كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء التاسع

أحمد محمد الشنوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٨

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

الفهـــــــرس

مقدمة

يهدينا التاريخ الى ان كل عمل عظيم لابد أن يقوم على أساس فكرة عظيمة . فقد جاء الرسل والأنبياء ومعهم الكتب المنزلة ، وهل ينكر أثر القرآن الكريم والكتب المقدسة فى مسيرة التاريخ وتشكيل حياة البشر ؟ كذلك جاء عباقرة البشر من العلماء والمفكرين ، فهل ينكر أثر « جمهورية افلاطون » فى تطوير نظم الحكم ، أو أثر « ديكارت » فى تقديس العقل فى كل عمل يقوم به ؟ .

ان كتابا مثل كتاب « الأمير » لميكيافيلى استطاع أن يرسم سياسة محددة لايطاليا تهدف الى تخليص الوطن من الاعتداء الأجنبى ، وكان لكتاب « العصيان العام » لهنرى ثورو أثر مباشر فى تفكير غاندى وأتباع سياسة « المقاومة والسلبية » التى نجحت فى تحرير الهند من نير الاستعمار البريطانى . كما كان لكتاب « الادراك العام » لتوماس بين دور كبير فى تحرير أمريكا . ولكتاب « كوخ العم توم » للكاتبة الأمريكية هاريت ستو — فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية — نتائجه فى حركة تحرير العبيد .. ولكتاب ماركو بولو أثر ضخم ، فهو الذى كشف لأهل الغرب كنوز الشرق .. ورسالة كولمبس التى كتبها عام ١٤٩٣ عن رحلته الى أمريكا كان من نتيجتها خروج أمريكا الى حيز الوجود المعروف الآن ، وبات لها هذا الدور الضخم الذى تلعبه فى العالم وحضارته ..

ومن ذا الذى ينكر أن الثورة الفرنسية التى اندلع لهيبها فى أواخر القرن الثامن عشر كانت ثمرة لما كتبه جماعة من كبار الكتاب أمثال فولتير

وروسو ؟ وأن كتاب « عالم واحد » تاليف ويندل ويلكى ، الذى نشره عام ١٩٤٣ وبشر فيــه بفكرة العالميــة ، كان أساسا من الأسس التى ارتكز عليها انشاء هيئة الأمم المتحدة ؟! ..

وليست هذه الا أمثلة قليلة جدا ..

فالكتب العظيمة والرائدة فى التراث الفكرى العالمى ، التى أثرت تأثيرا عظيما مبــاشرا أو غير مبــاشر فى سير التاريخ أو تطور العــلوم أو العلاقات الاقتصادية أو سلوك البشر أو ثقافة الانسان وحضارته بصورة عامة .. كتب كثيرة متنوعة على مدى التاريخ الانسانى كله .

وبرغم أهمية تلك الكتب ، فمن النــادر أن تجد شــخصا قرأها جميعا ، وذلك لصعوبة الحصول عليها مجتمعة مؤلفة أو مترجمة ، أو لندرة طباعتها ... ولذا كان تفكيرى فى اصدار هذه الأجزاء من هذه الموسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » استجابة لحاجة ملحة شعرت بها ، وهى ضرورة التعريف بروائــع تلك الكتب الخــالدة ، التى تؤلف الركيزة الأساسية التى يمكن أن يقوم عليها بناء الثقافة وتكوين الانسان الواعى المثقف ، خاصة وأن الكثيرين ــ ومن الشباب بالذات ــ لا يكادون يعرفون شيئا عن بعض هذه المؤلفات .

وهانذا أقدم اليك عزيزى القارىء « الجزء التاسع » من هذه الموسوعة لتكتمل فيها عصارة ١٢٤ كتابا ، من أهم ما قدم عباقرة العلم والســياسة والاقتصاد والقانون والفلسفة والأدب ... والتى أثرت تأثيرا عظيما فى الفكر الانسانى على مر الدهور ، والتى تعد بحق من الأعمدة فى الحضارة الانسانيــــة .

والله أسأل أن ينتفع بهذه الموسوعة بأجزائها ويجعلها خالصة لوجهه . فانه نعــم المولى ونعــم النصير ..

المؤلف

حرب البيلوبونيز

ثوكيديدس

٤٠٤ ق.م

كثيرا ما يطلق على المؤرخ اليونانى هيرودوت (١) « أبو التاريخ » ، ولكن بعض الباحثين يرى أن واضع أساس الكتابة التاريخية الحقة هو المؤرخ ثوكيديديس • وقد تناول هيرودوت فى كتابه (عالم البحر الأبيض المتوسط) الفترة من نهـــاية القـــرن التاسع الى آخر القـــرن الخامس (ق • م) • أما ثوكيديديس فقد اكتفي بكتابة التاريخ السياسي للعصر الذي عاش فيه وأرخ للحرب البيلوبونيزية (٢) التي اشترك فيها بوصفه قائدا أثينيا ، وبطبيعة الحال كان المجال الذى اختاره أقل اتساعا وأضيق حدودا من المجال الواسع الذي آثر هيرودوت أن يجول فيه ويصول •

وقد يبدو لأول وهلة أن ما قام به ثوكيديديس يعد هينا سهلا الى جانب ما تناوله هيرودوت فى كتابه • ولكن الواقـــع أن فهم الانســـان لاتجاهات عصره ونزعاته ومختلف تياراته ــ وهى فى دور التكوين ــ ليس من الأمور الهينة ، ولهذا السبب لم يظفر العلماء الذين بدأوا حركات جديدة في الأدب والسياسة والاجتماع بالتقدير المناسب فى حياتهم • وقد استطاع ثوكيديديس أن يفهم الكثير عن حالة عصره النفسية ، وأن يروى لنا أحداثه فى نزاهة قليلة النظير ، حتى أصبحت كتابته التاريخية نموذجا يحتذى ، ومثلا فى الأمانة والدقة وصدق الوصف وبراعة التحليل • وذلك برغم أن ثوكيديديس مات قبل أن يتم كتابه •

ثوكيديديس ونشاته

وما نعلمه عن حياته جد قليل ، ولد فى عام ٤٦٥ ق•م على الأرجح من أسرة أثينية ثرية • وكانت أسرته تنتسب الى البيت الحاكم فى تراقيا ، وكان يمت بصلة النسب والقرابة الى ملتياديس بطل معركة ماراثون ، وورث عن أبيه ضيعة بهـــا مناجـــم للذهب فى تراقيا • وقد تاثر تفكيره

بالثورة الشاملة التى أحدثها الفلاسفة السوفسطائيون (٣) ولم يتخذ له مذهبا خاصا من مذاهبهم • وانما تعلم من هؤلاء المفكرين درسا مهما ، وهو أن يمحص الأخبار ويختبر الحقائق ولا يتأثر فى أحكامه بالتقاليد وأن يخضع كل شىء للمنطق • ويتجلى تأثير المعركة السوفسطائية فى الربع الثالث من القرن الخامس قبل الميلاد حينما نوازن بين طريقة هيرودوت فى كتابة التاريخ ، وطريقة ثوكيديديس •

ثوكيديديس وحرب البيلوبونيز

كان ثوكيديديس فى الرابعة بعد الثلاثين حينما نشبت حرب البيلوبونيز فى سنة ٤٣١ ق•م• وقد اعتزم منذ أوائل الحرب أن يسجل أحداثها • وفى سنة ٤٢٤ ق•م عين قائدا على الأسطول الأثينى وعهد اليه بمقاومة القائد الاسبرطى (براسيداس) وبمنعه من الاستيلاء على (أمفيبوليس) ، ولكنه تريث فى تحركه فتمكن براسيداس من اقتحام المدينة قبل أن يصل ثوكيديديس لرده عنها ، وعوقب من أجل ذلك بالنفى لمدة عشرين سنة من أثينا • وقد استغل نفيه وفراغه الطويل فشرع فى الرحلات والتنقل لمشاهدة أماكن القتال حتى وصل الى صقلية ، وحاول ان يعرف أساليب أعداء أثينا فى حروبهم والدوافع التى ساقتهم الى خوض غمار الحرب • وعاد الى أثينا فى سنة ٤٠٤ ق•م• ومضى فى محاولة استكمال كتابه ولكنه لم يتمه •

ثوكيديديس يكتب للأجيال المتلاحقة من بعده !!

وكانت تملك ثوكيديديس نزعتان تسيطران على نفسه :

النزعة الأولى هى ميله الشديد الى ادراك الحقائق ، وبخاصة تلك الحقائق التى يعنى بها المؤرخ وتنير له السبيل فى ربط الأحداث بعضها ببعض • وهو يقول فى ذلك : « أما من ناحية طريقتى فى سرد الأحداث ، فانها ليست مستمدة من أى مرجع ظفرت به بطريق المصادفة •

ولم أعتمد فيها على مجرد تأثراتى الخاصة ، وانما هى تقوم من ناحية على تجاربى وعلى أشياء شاهدتها بعينى ، ومن ناحية على مشاهدات

آخرين أخضعتها للبحث الفاحص الدقيق والامتحان الصارم فى حدود الممكن . وكان هذا عملا بالغ الصعوبة ، لأن الذين شـــاهدوا الأحداث بعيونهم كانت تختلف روايتهم لها . والذاكرة فى بعض الأوقات قد تخذل أو قد يكون هناك ميل الى أحد الاتجاهات ، وكتابتى التاريخية كان يمكن ان تكون أكثر اثارة للاهتمام والتشويق لو أننى تحريت فيهـــا أن تكون أكثر خيـــالا ، ولكن سأكون قانعا اذا ثبت أنها نافعة للباحثين الذين يحاولون أن يعرفوا كيف حدثت الأشياء على وجه الدقة فى الماضى ، لكى يستطيعوا أن ينظروا الى المستقبل ، لأنه لما كانت الطبيعة الانسانية على ما هى عليه فان المستقبل سيشبه الماضى ان لم يكن مثله تمـــاما . وموجز القول اننى كتبت لا لأحظى بثناء المعاصرين ، وانما لأترك ميراثا للأجيال التى تجيء بعدى » .

وقد يجد القارىء فى هذا الوصف شيئا من الاستعلاء والتفاخر ، ولكن قراء ثوكيديديس لا يستكثرون عليه ذلك ولا يجدون فى حديثـــه مبالغة أو انحرافا عن الحق .

وكان الاهتمام الآخر الذى يشغل بال ثوكيديديس هو معرفة كيف يحكم الناس أو كيف يمكن أن يحكموا ، وكان هذا باعث اهتمامه بتتبع أخبار الامبراطورية الأثينية .

وربما تكون صلاته العائلية مكنته من الحصول على أخبار لم يكن الحصول عليها ميسورا لغيره ، كما أن تجربته فى مباشرة الحرب قد جعلته أهلا لأن يؤرخ لها . أما صلته العائلية باقليم تراقيا ، فمكنته من ألا يكون متحيزا لأثينا تحيز الأثينى القح .

ثوكيديديس وخطته فى تاريخه

ويقع الكتاب فى جزءين كبيرين : الجزء الأول ينتهى عند سنة ٤٢١ ق.م وكان يبدو فى ذلك آنه نهاية الحرب ونهاية عمل المؤلف . والجزء الثانى يروى فيه الأحداث حتى الاستيلاء على أثينا فى سنة ٤٠٤ ق.م وهو يرى أننا نستطيع تقسيم الفترة من سنة ٤٣١ ق.م الى سنة ٤٠٤

ق٠م٠ الى ثلاثة أقسام : القسم الأول ، الحرب التى استمرت عشر سنوات٠ والقسم الثانى الهدنة الجوفاء التى ظلت قائمة سبع سنوات ٠ والقسم الثالث هو الحرب الثانية٠والواقع أن الحرب استمرت سبعا وعشرين سنة لأن الهدنة لم تكن هدنة حقيقية ٠

وقد تتبع ثوكيديديس مجــــرى الحوادث فى أثناء نفيه وتنقل كثيرا لاكمال عمله واستيفائه ، وقد أعلن فى المقدمة التى صدر بها كتابه تصوره الجديد لكتابة التاريخ والمنهج المثالى الذى يرى اتباعه فى البحث التاريخى، وعاب على هيرودوت وغيره من المؤرخين اليونانيين الذين ســبقوه ايثارهم العناية بتجويد الأسلوب وبراعة العرض على تحــــرى الحقــائق وغربلة المعلومات والأخبار ٠ واظهر أنه لا يقصد أن يقدم أخبارا للتسلية وأنه غير طامع فى احراز النجاح فى هذا الميدان ٠ ونبه القراء الى أنهم لا يجدون روايات قائمة على الأساطير فى كتابه ٠

وتختلف كتابة التاريخ الحاضر عن كتابة تاريخ العصور التى مضى عهدها ٠ فكتابة تاريخ العهد الماضى تقوم على المراجع والوثائق ٠ أما كتابة التاريــخ المعــاصر فتتضمن مــواد لم تكتب وكذلك الوثائق ، وفى عصر ثوكيديديس كان الموقف يختلف عما هو عليه اليوم ٠ فالذى يكتب تاريخ العهد الحاضر لا محيص له عن الاعتماد على الكثير من المواد المكتوبة مثل التقارير الرسمية والوثائق الحكومية ، ويضاف الى ذلك ما يستمده المؤرخ من الرجال الذين كان لهم دور بارز فى توجيه الأحداث ، أو من تجربته الخاصـــــة اذا كان قد اشترك فى بعض الأحداث والوقائع ، ولكن عمله الرئيسى سيكون قائما على مراجع مكتوبة ٠

والكتاب يبدأ على الوجه التالى :

« ثوكيديديس الأثينى كتب تاريــخ الحــــرب التى نشبت بــين البيلوبونيزيين والأثينيين ٠ وقد استهل عمله عند بداية الحرب لأنه اعتقد انها ستكون أعظم وأهــم من كل ما ســبقها من حروب ، وحمله على هذا الاعتقاد أن كلا من الطرفين أعد للحرب ما استطاع من قوة ، وأن الشعوب

الهلينية جميعا اشتركت فى هذه الحرب فانحازت الى هذا الطرف أو ذاك ، وبعضها سارع الى هذا الانحياز والبعض الآخر عقد العزم على ذلك . وكانت هذه الحرب أعظم حركة أثرت فى الهلينيين ، بل امتد أثرها الى بعض الشعوب الأخرى ، ويمكننا أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول انها أثرت فى مجموعة كبيرة من الجنس البشرى » .

وقد أدرك المؤلف أهميــة عمله هذا تمام الادراك وتبين له وجـه الحقيقة منذ البداية ، اذ ان الخصمين كانا يستعدان لخوض غمار هذه الحرب منذ أمد بعيد ، ولم تكن فى حقيقتها حربا أهلية تنشب داخل أمة من الأمم فحسب بل جرت اليها أمما أخرى .

وفى نظر الفيلسوف ، كل حرب فى حقيقتها حرب أهلية . وهذا الحكم يصح على الحرب البيلوبونيزية بوجـه خاص . تلك الحرب التى قسمت الجيش الى معسكرين . وقد نقح ثوكيديديس مصنفه بعد سنة ٤٠٤ ق.م وكتب له مقدمة جديدة جاء فيها :

« كتب تاريخ هذه الحوادث ثوكيديديس الأثينى نفســه متتبعا تسلسل الوقائع فى الصيف والشتاء حتى ذلك الوقت الذى تمكن فيه الاسبرطيون وحلفاؤهم من أن يضعوا حـدا لحكم أثينا ، واستولوا على أسوار بيرايوس . وبهذا الحادث تكون الحرب قد استغرقت فى مجموعها سبعا وعشرين سنة . واذا كان هنالك من لا يرى اضافة فترة الهدنة الى مدة الحرب فان حكمه خطأ ، ولابد له أن ينظر الى الأمور فى ضـوء الحقائق كما وقعت حتى يتبين له أن تلك الهدنة لم تكن فى الحقيقة فترة سلم توقف فيها كل من الطرفين عن استعادة أو تسلم كل ما اتفق عليه .. وهكذا اذا جمعنا مدة السنوات العشر الأولى التى استمرت فيها الحرب الى مدة الهدنة المزعومة التى تلتها وحسبنا ذلك بحساب فصول السنة ، لوجدنا أن عدد السنوات هو العدد الذى ذكرناه مضافا اليه بضعة أيام ، أما اذا نظرنا الى الأمر بعين أولئك الذين تحققوا من وقوع المعجزات فاننا سنجد أن هذه الحقيقة بالذات كانت صحيحة لأننى أذكر أنه كان يقال دائما منذ بداية الحرب حتى نهايتهـا ، ان هذه الحرب ستستمر تسـع

سنوات مضاعفة ثلاث مرات . ولقد عاصرت هذه الحرب وكنت فى سن تسمح لى باستنتاج الأحكام ، كما أننى تتبعت حوادثها بدقة لكى أتمكن من جمع المعلومات الصحيحة » .

ولقد ظل مصنفه ناقصا لأنه على الرغم من هذا القول الذى اقتبسناه آنفا لم يتعد ثوكيديديس فى كتابته سنة ٤١١ ق.م ، أما تقسيم المصنف الى ثمانية كتب فقد قام به على الأرجح علماء الاسكندرية .

وليست الفصول الثلاثة والعشرون الأولى من الكتاب الأول سوى مقدمة تدور حول علم الآثار ، وتمر الحوادث التى جرت من سنة ٤٧٩ق.م الى سنة ٤٤٠ ق.م مرا سريعا ، وبهذا يكون قد وصل تاريخه بتاريخ هيرودوت وشرح مقدمات الحرب الجديدة ووقف بقية الكتاب على الحرب نفسها حيث وصف أحداثها باعتدال وتجرد ، وأتى بها تبعا لتسلسلها التاريخى ، وحدد السنة الأولى من الحرب (سنة ٤٣١ ق.م) بذكر أسماء حكام أثينا واسبرطة،لكنه بعد ذلك كان يذكر السنوات بترتيبها أى السنة الأولى والسنة الثانية .. وهكذا ولم يكن يذكر الأشهر الأثينية . وكانت التقاويم المختلفة الشائعة فى عصره مصدر فوضى واضطراب ولهذا لم يعرها أدنى اهتمام ، وكان يميز كل سنة بين الفصل المعتدل والفصل الردىء ، وعندما يحتاج الى مزيد من الدقة كان يشير الى الأحداث المناخية كقدوم الربيع واستواء الحنطة على سوقها وتذريتها فى الهواء وجنى الكروم والأيام الجميلة الأخيرة .. وهكذا وضع وصفه للحرب فى هذا الاطار التاريخى المحكم. وكثيرآ ما كان يضطر الى الانتقال المفاجىء من أحد أجزاء بلاد اليونان الى جزء آخر ، وهذا مما يضايق القارىء ، الا أننا لا نملك الا أن نعترف له بسلامة المنهج ، اذ انه كان يربط بين البيئة الجغرافية والحوادث التاريخية وهذا خير ما يفعله المؤرخ العلمى حتى لا يضل سبيله وحتى يأمن الزلل والعثار عن قصد ، لأن ثوكيديديس كان مؤرخا علميا بالمعنى الدقيق للكلمة وهو أول من يستحق هذا اللقب فى العالم ، ويعتبر كتابه أول رائعة أدبية فى النثر الأتيكى (أما هيرودوت ، فقد كتب مصنفه باللهجة الأيونية) بل هو فضلا عن ذلك أول محاولة لوصف

الحرب ، أسبابها وتقلباتها بطريقة رجل العلم ذى الدربة والمران ، أو قل بطريقة الطبيب الذى يصف تقلبـــات المرض · وقد تجنب الخـرافات والالتباسات وقال فى ذلك مفتخرا :

« قد يكون خلو كتابى من بعض الخرافات ســـببا فى جعله منفرا للأذن · ولكن لعل هنالك من يرغب فى أن يلتقط فكرة واضحة عن الحوادث التى حدثت أو التى يحتمل أن تحدث فى يوم من الأيام بنفس الطريقـة أو بطريقة مشابهة لها ، وحسبى أن يجد مثل هؤلاء الناس كتابى هذا مفيدا لهـــم » ·

فان ثوكيديديس لم يكن يفكر فى مجده الشخصى ، بـل كان يفكر فى كتابه شأنه فى ذلك شأن كل عالم مخلص · وقد بذل جهودا مضنية فى سبيل الحصول على نتائج لها قيمة خالدة ·

أما المصادر التى اعتمد عليها ، فهى تجربته الخاصة ثم معلوماته التى استمدها من بعض الرواة،وكان فى بعض الحالات يعتمد على وثائق خاصة يدمجها فى روايته · فمعاهدة نيكياس مقتبسة بحذافيرها ، وكذلك نصوص الحلف الذى قام بين الأثينيين والأرجيفيين والمنتيبيين والأيليين ، وقد عثرت الجمعية الأثرية فى أثينا على جزء من هذه المعاهدة سنة ١٨٧٧ على لوحة من الرخام قرب الاكروبول ·ونص هذه النقوش يتفق والنص الذى أورده ثوكيديديس (راجع موسوعة تاريخ العلم لجورج سـارتون) ويعد هذا دعمـا عظيما له · ولم يكن ثوكيديديس ينتمى الى حزب ما على الرغـــم من اخلاصه العظيم لبركليس (٤) أو لنقل انه كان معتدلا فى تحيزه وان كان دائما مستعدا لأن يستمع الى وجهـات نظر الأطراف الأخرى ، وأن يتفهمها ويشرحها بأمانة وعطف · فقد دربت تعاليم السوفسطائيين الحرة الأثينيين على أن ينظروا الى الموضوع من وجهيه المتقابلين وأن ينظروا الى الشخصية من نواحيها المختلفة · ولا يعنى هذا أن جميع الأثينيين أفادوا من هذا التدريب ، الا أن عقليـة ثوكيديديس كانت على أتم الاستعداد للانتفاع به ·

وقد كانت غايته الأولى دائما أن يكون صـادقا قدر الامكان مهما كانت الظروف ، وكان يستشعر أحاسيس العالم الذى لابد له أن يصور التجارب السيئة والفشل ٠٠ انه شيء مؤثر حقا ، الا أن هنالك لذة فى وصفه ٠ وقد رسم صورا دقيقة للزعماء والقادة ، ووصفه لبركليس خير مصدر يعتمد عليه لدراسة شخصيته وسياسته ، وخاصة فى السنوات الأخيرة (من سنة ٤٣١ ـ ٤٢٩ ق٠م) ٠ وهو يصور لنا رجلا كان فى استطاعته أن يعمل المستحيل اذ انه كان قادرا على أن يكبح جمـاح الشعب دون أن يحد من حريته أى انه يحفزه على قبول النظام المفروض وكأنما اختاره بنفسه ٠ وقد كان من دواعى سرور ثوكيـديديس أن يصف عبقـرية بركليس السياسية ، اذ كان معجبا به الى حد بعيد ، الا أنه استطاع أيضا أن يكون منصفا فى موقفه من بعض الرجال الذين لا يميل اليهم ٠ وبهذه الروح وصف قسوة كليون ، وأمانة نيكياس التى يكتنفها الجبن وتختلط بها الأوهام ، والتهور الرائع الذى أبداه الكيبيادس ٠ ولم يكن رأيه فى الرجال متوقفا على نجاحهم أو عدمه فقد يخطىء الحظ الرجـل الطيب ولكن شخصيته تنم عن جوهره ٠

ويظهر حياده وموضوعيته وأمانته على أحسن صورة عندما يتناول المسألة الأساسية وهى الديمقراطية الأثينية مقارنة بالحكم والاستبداد فى اسبرطة ٠ وقد دافع عنها بركليس فى خطابه الجنائزى ، وهو من أنبل الأحاديث السياسية وذكرى خالدة لا تفنى لا لبركليس الذى ألقاه فحسب بل أيضا لهؤلاء الأثينيين الذين استمعوا اليه ولأمهم مدينة أثينا٠ كم كانوا عظماء ! هؤلاء الرجال استحقوا أن تتلى على مسامعهم مثل هذه الرسالة الكريمة وهى طويلة الى حد يحـول دون اقتباسـها كاملة ، لذا سنقدم نماذج منها ، قال :

« اننا نحب الجمال ولكن دون اسراف ، ونحب الحكمة ولكن دون ضعف ، أما الثروة فاننا نعتد بها لا لتكون موضع تفاخر ولكن لتعيننا على تحقيق أعمالنا ، ونحن لا نعيب الرجـل الذى يعترف بفقـره ولكننا نعتبر العيب كل العيب ألا يسعى الرجل الى اجتنابه ٠ وستجدون فى بعض رجالنا اهتماما بالشئون الخاصـة وبالشئون العامة فى آن واحد ، ولن

تفتقدوا فى البعض الآخر وخاصة هؤلاء الذين يعنون بالعمل نفاذ البصيرة فى الشئون السياسية ، لأننا لا نعتبر الرجل الذى لا يسهم بنصيب فى الشئون العامة رجلا أنانيا يعنى بشئونه الخاصة فحسب بل رجلا لا يصلح لشىء من الأشياء » .

وختم حديثه قائلا :

« لقد تحدثت اليكم الآن طبقا للقانون بتلك الكلمات التى وجدتها صالحة للمناسـبة . أما هؤلاء الذين جئنا لنواريهم التراب فقد نالوا من تقديرنا ما يستحقون وزيادة على ذلك ، ستعول الدولة أطفالهم من الآن فصاعدا حتى يبلغوا طور الرجولة ، وبهذا نكون قد توجنا الموتى وورثتهم بتاج ذى قيمة حقيقية ، مكافأة لهم على ما قدمت أيديهم فى هذا النضال ، اذ انه حيث تكون الجوائز التى تقدم مكافأة للفضيلة كبيرة نجد المواطنين الصالحين . والآن بعد أن ذرفتم على الموتى ما هم أهل له من دموع وبكى كل منكم موتاه ، عليكم أن تنصرفوا » .

أما الرأى الآخر فى الموضـوع ، فقد عرضه ثوكيديديس على لسان «كليون بن كلينيتوس» الذى كان أول من وفق الى اقناعهم بوجوب افناء الميثيلينيين ، ولم يكن من أشد المواطنين قسوة فحسب ، بل كان فى ذلك الوقت أيضا أبعدهم تأثيرا على الشعب . قال كليون :

« لقد أدركت فى مناسبات كثيرة مرت بى ، أن الديمقراطية لا تصلح لحكم الشعوب الأخرى » ومضى كليون فى حديثه مبينا أن الديمقراطية والسيادة الامبراطورية لا تتفقان .

وهكذا كان الأثينيون حوالى نهاية القرن الخامس يمرون بالأزمة نفسها التى يمر بها العالم اليوم .

فمن المؤلم حقا أن نقرأ بركليس وكليون اليوم فى هذا الوقت الذى تمر فيه الديمقراطية بتجربة جديدة ، تعانى خلالها ما لم تعانه خلال تجربة

سابقة . وعلينـــا أن نتأمل جيـــدا كلمات بركليس الخالدة ، وأن نعير تحذيرات كليون أيضا بعض الالتفات .

وقد ساعد ثوكيديديس معاصريه ، وما يزال يساعدنا نحن اليوم على تفهم الفروق الأساسية بين الرجال . وبعض هذه الفروق فطرى وبعضها الآخر نتيجة للظروف وان كان راسخا فى أعماقهم ، وكان عمله الخاص أن يقارن بين الخصمين العنيدين : أثينا واسبرطة . فقد وصف الاثينيين (فى الخطاب الجنائزى مثلا) بالرغبة فى العلم والتشوق اليه ، واتساع الأفق وحسن الضيافة والكياسة والذوق السليم والكرم والقلق ، بينما وصف الاسبرطيين بالضعة والحمية والأنانية والتوانى والهدوء والرجعية والحذر والغيرة والاصرار والصبر . وانه لمن المزعج أن يكون خصمك من هذا النوع من البشر (الذين قد يكونون رجالا فضلاء ولكن بطريقتهم الخاصة) وهذان النموذجان البشريان ما يزالان موجودين بين ظهرانينا حتى اليوم . والحرب بين أثينا واسبرطة لم تنته بعد وقد لا تنتهى أبدا . وهذا الوصف العلمى الذى قدمه لنـا ثوكيديديس كان أكثر تمثيلا وصدقا مما لو حاول أن يجعله أشد تأثيرا فيصبح بذلك أقل موضوعية وأقل تجردا ، وليس هنالك على تراخى الزمن ما يوازى الحقيقة من حيث تأثيرها .

وقد يأسف الانسان حقا لأن ثوكيديديس كان حريصا كل الحرص على التقيد بخطته ، ولذا نحى جانبا كل ما لا يدخل ضمن نطاق غرضه ، فلم يصف لنـا المجتمع فى ذلك الوقت كما لم يصف لنا تلك الآثار التى لا تبارى مما خلفه لنا أهل الفن والمفكرون من اليونانيين . لقد كان هذا العصر من العصـور الذهبية وكم يكون مهما وصف أحد المعاصرين له وخاصة اذا كان هذا المعاصر فى مثل ذكاء ثوكيديديس وحساسيته ! . ومهما يكن من أمر فلا شك أنه كان من رجال العلم ، اذ انه ادرك أن البحث العلمى لابد أن يقتصر على موضـوع ضيق النطاق واضـح المعالم ، ولم يقدم لنا ثوكيديديس صـورة عن عصر أثينا الذهبى ، وبدلا من ذلك استطاع أن يقدم لنـا وصـفا دقيقا ما أمكنه ذلك لمعركة الحياة والموت التى خاضتها أثينا ضد خصم حقود لا تهدأ ثائرته ، وكانت هذه غايته ولذا يجب ألا يصرفه عنها أمر من الأمور .

ولقد قيل ان أسلوب ثوكيديديس تغير وان نظـرته اختلفت خلال الثلاثين سنة التى قضاها فى التأليف ، وحاول علماء اللغة أن يثبتوا ذلك بواسـطة النقـد الداخلى · ولكن اذا عرفنا أن ثوكيديديس كان ينقح كتابه دائمـــا ، وأنه من المحتمل أن يكون جزء من الكتـاب الأول قد روجع فى الوقت الذى روجع فيه جزء من الكتاب السابع ، فان مثل هذا النقد لا يركن اليه · وعلى الرغم من ذلك ، فلابد لنا أن نتقبل هذا الرأى بوجه عام، فان ثوكيديديس كان لاشك ناضجا عندما بدأ فى تأليف الكتاب، الا أن خبرته أخذت فى الازدياد ، ولابد أن يكون لاخفاق نيكياس والحملة الصقلية أثر فى تبدل نظرته · وليس من الطبيعى ألا تتغير شخصيته بعد هذه الوقائع الفظيعة وألا يطرأ عليه ما يطرأ عادة على كل عالم يشتغل بمشروع طويل الأمد · فهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه عوادى التغير كلما نما عمله بمرور الأيام ·

ولنعد ثانيـة الى الفصول الأولى من كتاب ثوكيديدس ، وهى التى تضم المقدمة الأثرية ·· وما هو جدير بالتنويه أنه رأى ضرورة ملحة لكتابة مثل هذه المقدمة · والسبب فى ذلك أن ثوكيديديس كان عصريا ، كما أنه كان يحس بأثر الماضى الطويل الذى أدى الى خلق الحالة الحاضرة ، ولهذا كان لابد له أن يلخص تجارب الماضى ، وما يثير الدهشة فى نفوسنا أنه استطاع أن يضطلع بهذا العمل،مثال ذلك أنه افترض أن وصف هوميروس للحرب الطروادية لابد أن يكون مبنيـا على بعض الحقـائق مهما أسرف خياله الشعرى فى الزخرفة والتنميق ، وعنـدما تحدث عن الجزر الايجية قال :

« وسكان الجزر أشد تعلقا بالقرصنة ، ومنهم الكاريون والفينيقيون· ويظهر أن الكاريين كانوا يعمرون أكثر الجزر ، وهذا يتضح لنا من الحقيقة التالية : عندما طهر الأثينيون فى هذه الحرب على أهل جزيرة ديلوس ، ونقلت قبـور جميع من ماتـوا ، تبين أن أكثر من نصف الموتى كانوا من الكاريين · وقد استنتج ذلك من نوع الأسلحة التى دفنت معهم ، ومن طريقة الدفن التى ما تزال متبعة عندهم حتى الآن »··

وثوكيديديس هو الوحيد بين الكتاب القدامى الذى اعتمد على الشواهد الأثرية لتبيان أصول اليونانيين ، ويمكننا أن ندعوه « أبا علم الآثار » كما دعونا هيرودوت « أبا علم خصائص الشعوب » ٠

والمقدمة أيضا تلقى ضوءا على فلسفته التاريخية ، لأن وصفه يكشف عن فكرة تطورية على عكس الفكرة الرجعية التى عبر عنها هزيود (٥) والتى كانت سائدة حتى القرن السابع عشر ٠ وروايته تنم عن امكانية التكرار فى الشئون الانسانية ، ولكنه لم يتوسع فى شرح هذه الفكرة،ولهذا ليس من حقنا أن نقارنها بفكرة أفلاطون عن تكرار الدورات أو العود المستمر ، وربما عنى بذلك ببساطة ما يعنيه رجل العلم ، أى اذا تكررت الظروف المتشابهة فالنتائج قد تكون واحدة ٠ ومن الظروف التى ينبغى على المؤرخ أن يحسب حسابها الشهوات الانسانية ٠ وهذه لا تتغير تغيرا كبيرا باختلاف الزمان والمكان ٠ وهكذا قد تساعد دراسة الماضى المؤرخين على أن يتنبأوا بنتائج الصراع الذى يحتدم بين بنى الانسان ، شأنها فى ذلك شأن التقارير الاكلينيكية التى تساعد الأطباء على التنبؤ بالتطورات المتوقعة التى قد تطرأ على الأمراض ٠

وقد طبق ثوكيديديس نزعته الحيادية الموضوعية على نفسه أيضا ، فهو لا يكاد يذكر ادانته ونفيه ولا يحاول أن يعتذر ، فهل نعزو ذلك الى شعوره بالازدراء ؟ أو الى ضميره النقى ونفسه المتعالية ؟ أو الى الموضوعية العلمية ؟ الأغلب أن ذلك كان نتيجة لهذه العوامل الثلاثة مجتمعة وخاصة العامل الأخير ٠

ولكن من أين توافرت هذه النظرة العلمية لثوكيديديس ؟ لاشك أن صفات الموضوعية والتجرد التى ساعدت على تكوين هذه النظرة كانت فطرية لديه ٠ قد يكون هنالك بعض العوامل الخارجية التى تشجع على ظهور مثل هذه النزعة أو تعترض سبيلها ، وساعدت ثقافته على توكيد مثل هذه الصفات ، فقد جلس الى أنتيفون الرمنوس وغيره من السوفسطائيين ٠ واذا كانت السوفسطائية أصبحت مقيتة عندنا حتى اننا

لا نستطيع أن ندرك ما كان لهـا من قيمة فى القرن الخامس ، فعلينا أن نتذكر مبدئيا أن أكثر الأثينيين كانوا بالضرورة يعرفون معنى الحقيقـة الجدلية ، وكان لابد لأعضاء المحاكم الشعبية أن يقـدروا القيم النسبية لمختلف المرافعات التى تلقى على مسامعهم ، فكيف يتيسر لهـم ذلك ؟ كيف لهم أن يفاضلوا بين خطيبين يدافع كل منهما عن وجهة نظره الخاصة فى احدى الخصومات السياسية ؟ ومن النادر أن يكون أحد الحزبين نقيا نقاء لا تشوبه شائبة وأن يكون الثانى على العكس من ذلك ، فليست الأمور على مثل هذه البساطة ، وهذا لا يمنع أن ينحاز أعضاء الحزب الواحد الى حزبهم انحيازا أعمى . وقد يكون السوفسطائيون ــ وعلى الأقل النخبة الكريمة منهم ــ فى ذلك الحين يعلمون الشبان أن يتجنبوا الأهواء الحزبية والضغائن ، وأن يزدروا الأكاذيب والخرافات . وكان فى ذلك خير اعداد للتفكير المنطقى العلمى . وهؤلاء الرجـال الذين كانوا يقولون ان الحق نسبى لم يكونوا ساخرين ولا مشككين . وبفضـل خبرتهم السـياسية كانوا يدركون تمام الادراك تلك المشكلات التى كانت تنتـج عن الهوى وضيق الأفق ، فسهل عليهم معرفة الحق فى الخصومات العلمية المحضة . أما فى الشئون السياسية ، فان أول شرط لكشف الحقيقة هو التمسك بموضوعية الشىء والتسامح واللين مع الخصم . وكان ثوكيديديس على أتم الاستعداد لتفهم هذه التعاليم بفضـل عبقريته ، وقد بلغ الحد المستطاع من اتساع الأفق والحرص على الناحية الموضوعية .

ومكنه حبه للحق من أن يرى الوقائـع وأن يسجلها باخلاص وأن يصنفها . وكان قديرا على أن يرى الأشـياء كما هى ، ولم يعن بوجه عام بالناحية الخلقية للحوادث ، بل اكتفى بوصفها مثلما وصف الفساد الذى تمخض عنه الطاعون والذى حدث نتيجة للاضطرابات الأخرى التى رافقت صراعا لم تكن له نهاية ، وهو موضوع يعرفه جيدا أولئك الذين يدرسون الحروب .

وكان أسلوبه كعقله أمينـا وصـارما يكتب بحماسـة وايجاز ودقة ووضوح وحيوية ، كما أورد التفاصيل بالدقة التى أمكنه الحصول عليها . وكان الوصف العام على حظ كبير من الاتزان فلم يتردد ماكولى الذى كان

من اعظم مؤرخى الانجليز أن يقول : « ليس هناك أثر نثرى حتى كتاب دى كورونا نفسه ـ يبلغ فى تقديرى كتاب ثوكيديديس السابع ، انه الكتاب الذى لا يضاهيه كتاب فى الفن البشرى » (الكتاب السابع تناول الحملة الصقلية المشئومة التى كانت السبب الأول للهزيمة الفادحة التى منيت بها أثينا) • وماذا يستطيع المرء أن يقول أكثر من ذلك ؟ ومن يستطيع أن يقول مثل هذا القول وله أعظم من هذه السلطة ؟

وقد هاجم جميع النقاد مكررين ومسهبين احدى خصائص أسلوب ثوكيديديس فى الكتابة ، ألا وهى عادته فى تضمين كتابته الأقوال الأصلية (وهى خاصية يشاركه فيها بعض المؤرخين القدماء) • فلنستمع اليه :

« أما فيما يختص بتلك الخطب التى ألقاها على بعض الرجال عندما أوشكت نيران الحرب أن تشتعل أو أثناء الحرب ، فقد كان من الصعب استعادة ألفاظها بدقة ، والأمر سواء بالنسبة الى الخطب التى سمعتها بنفسى أو تلك التى نقلها لى الرواة من مختلف المصادر • ولهذا أقدم هذه الخطب باللغة التى يلوح لى أن هؤلاء الخطباء عبروا بها ، فيما يتعلق بهذه الموضوعات قيد البحث وبالعواطف التى تناسب المقام ، ومع هذا حاولت أن أتقيد بالمعنى العام ما استطعت الى ذلك سبيلا » •

أليس ذلك من الوضوح بمكان ؟ فعندما يستقر فى الذهن ، أن هذه الخطب لن تثبت حرفيا ، فليس هنالك كبير فرق بين كتابتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة باثبات علامات الاقتباس أو بالاستغناء عنها ، وكتابة الخطب على هذه الصورة كانت طريقة شائعة لا ينخدع بها أحد ، وكانت طريقة ضرورية أو لها ما يبررها على الأقل ، لأن القدامى لم يكونوا يملكون الوسائل التى تمكنهم من استيعاب الخطب نفسها ، اللهم الا اذا شهدوا الحفل بأنفسهم وكانت لهم ذاكرة قوية ، وليس لهذه الطريقة ما يبررها اليوم لأنه من اليسير الحصول على النصوص الحرفية للخطب •

وهنالك سؤال أخير قد يجول فى خاطر القارىء المتأمل وهو : كيف استطاع أثينى وطنى أن يصف هذه الأحداث الفاجعة التى أدت الى هزيمة

بلاده يمثل هذا الحياد ؟ وقد سبق أن أجبنا على هذا السؤال أو عن جزء منه . فلاشك أن ثوكيديديس كان وطنيا شديد الحب لديمقراطية أثينا ، الا أنه كان — من ناحية — رجل علم ، يضع اخلاصه للحقيقة فوق كل اخلاص ، ومن ناحية أخرى كان ايمانه بالديمقراطية عميقا ، حتى انه كان لا يعترف بأن هزيمة أثينا كانت أبدية ، فقد بقيت أثينا أو كان من الممكن أن تبقى كما كانت سابقة مدرسة اليونان . وقد بين بركليس فى خطبة الجنازة أن الثمرة الأولى للديمقراطية هى التثقيف لا مجرد النجاح ، وعلى الرغم من تلك التغيرات العظيمة ، تابعت أثينا حمل رسالتها فى تثقيف اليونانيين والعالم الغربى عامة ، وبهذا برهنت برهنة تامة على ما كان يؤمن به بركليس وثوكيديديس .

ثوكيديديس يعلمنا كيف ينبغى أن يكتب التاريخ !!

ولم يعلم ثوكيديديس اليـــونانيين بكتابه كيف يكتب التـــاريخ المعاصر فحسب ، بل علمهم كذلك كيف يتناولون التـاريخ القديم ، فقد صـــدر كتابه بموجز عن التاريخ اليونانى ، يعد من أوفى ما كتب فى موضوعه . وقد حاول فيه ان يعلل أسباب تأخر ظهور حكومة قوية فى بلاد اليونـــان قبـــل العصر الذى عاش فيه . وقد تخطى فى هذا الموجز الأساطير المتجمعة والروايات المهلهلة ليصف حركة التقدم ، مقدما البراهين التى توضح اتجاهه وتظهر العصور بسماتها البارزة ، وليلقى ضوءا ساطعا على العصر الأسطورى مما يمكن من استخلاص بعض الحقـــائق المجدية . ويمتاز تناوله للفترة التالية للحرب الفارسية اليونانية وظهور الامبراطورية الأثينية — بما قدمه من نتائج بحثـــه وتحصيله ، لأنه لم يكن هناك سوى حوليات شديدة الايجاز لتاريخ تلك الفترة .

وكان ثوكيديديس يرى أن على المؤرخ ألا يكتفى بسرد الأحـــداث على طريقة كتاب الحوليات ، بل عليه أن يوضح لماذا وقعت الأحـــداث ، وأن يوضـــح العوامل التى ساعدت على حدوثها . وقد اقتضته محاولة فهم الحقائق التاريخية أن يحاول فهم شخصيات الممثلين للأحداث وتعرف دوافعهم النفسية والملابسات التى أحاطت بهم . ويتأثر المؤرخ فى تفهمه للحالات النفسية بمزاجه الخاص ، ولهذا قال بعض النـــاس ان الذى يقدم لنا صورة صادقة لنفسية نابليون لابد أن يكون صنوا له ، وفى هذا الرأى مبالغة ، لأن هناك ما يسمى بالخيال النفسى ولكن التأثير الذاتى لا يمكن بحال أن نمنع تأثيره منعا باتا .

وكاتب التاريخ المعاصر يعيش فى البيئة نفسها ويتأثر بنفس العادات والتقاليد ووجهات النظر السائدة ، ويتيح له ذلك الفرصة لتعرف نفسية الشخصيات التى تظهر فى مسرح الأحداث • وبطبيعة الحال لا يستطيع أن يتخلص تخلصا تاما من ميوله وأهوائه الخاصة • ومؤرخ العصور السالفة يستطيع أن يكون أكثر نزاهة ونأيا عن المحاباة والتحيز ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع الفكاك من ميوله ونزعاته سوى الى حد ما ، وذلك لتأثره بمعايير عصره وآدابه • وقد حاول ثوكيديديس التغلب على هذه الصعوبة بأن أظهر الأشخاص بطريق سرد أعمالهم وذكر خطبهم وأحاديثهم، وهو يتوارى خلفهم ولا يتقدم الا بذكر بعض البارزين وتأثيرهم فى نفوس معاصريهم ويتحاشى أن يلزم نفسه باصدار احكام على اعمالهم او سلوكهم الشخصى •

وكان ثوكيديديس يرمى من وراء اثبات الخطب والأحاديث التى تفسر الحقائق ، الى اظهار العناصر التى يتألف منها الموقف ، وكذلك اظهار الدوافع والأفكار ، وكانت هذه الخطب والأحاديث تتيح لكل فريق من الفرق المتحاربة مثل أثينا واسبرطة ، أن يوضح وجهة نظره ويبين موقفه• ونستطيع من هذه الأحاديث والخطب أن نفهم الكثير من شخصيات أمثال بركليس وكليون وبراسيداس ونيكياس والكبياديس • وبذلك كان يستطيع المؤلف أن يجعل كلا من الرجال والأحداث يتحدث عن نفسه بغير اشارة أو تعليق من المؤلف سوى اشارة هينة اذا اقتضى الأمر • وباتباع هذا الأسلوب ، كان القارىء يخال أن الشخصيات التى تقوم بالأفعال تتحدث عن نفسها بغير حاجة الى المؤلف •

وقد لوحظ أن معظم الاحكام التى اجترأ ثوكيديديس على اصدارها على الشخصيات الواردة فى كتابه ، تتناول قدرتهم على فهم الأحداث وكفايتهم السياسية • وقد ظهر ذلك فى حديثه عن بركليس وأنتيفون وثيموستكليس وثيرامينيس وهيرموكراتيس •

ثوكيديديس وميكيافلى !!

وشدة نزاهة ثوكيديديس جعلت بعض نقاده يرمونه بضعف الوطنية ، فقد سمح لكل فريق فى كتابه أن يعرض قضيته فى غير تحيز ، لأنه كان يكتب باعتباره مؤرخا لا باعتباره أثينيا ، ولكنه مع ذلك كان

يهدف بكتابه الى افادة الامبراطورية الاثينية • وهو لا يخفى عن نفسه ولا عن قرائه أن الامبراطورية لا يمكن أن يدافع عنها على أسس العدالة ، لأن الامبراطوريات لا يمكن المحافظة عليها الا عن طريق القوة • وعنده ان من قوانين الطبيعة أن يحكم القوى الضعيف ، وهو مثل ميكيافلى يضع مصلحة الدولة فوق كل اعتبار ، ولا يطبق المعايير الأخلاقية على الاتجاهات السياسية ، وهو فى حكمه على الأعمال وطرائق تنفيذها يقصر مدحه وذمه على نجاح هذه الأعمال والطرائق أو اخفاقها فى تحقيق الأهداف التى حاولت اصابتها • ولو أنه كان حيا فى القرن التاسع عشر لما وجد فى سياسة كافور الايطالى أو بسمارك الألمانى التى كانت لا تعنى بغير مصلحة الدولة ما يستحق اللوم والنقد •

وقد كان ميكيافلى يقول : « ان رجل الدولة كثيرا ما يضطر الى أن يعمل ضد الايمان والانسانية » • ويبدو أن ثوكيديديس كان يرى أن مصلحة الدولة هى المرشد فى توجيه السياسة • وقد كان ميكيافلى ومعاصروه فى عهد الاحياء يرون أن خلاص ايطاليا متوقف على وجود الأمير صاحب العقل المدبر والارادة الماضية ، وثوكيديديس يرى كذلك أن الارادة القوية التى يملكها رجل الدولة لها تأثيرها البعيد • وقد أخذ على ثوكيديديس بحق أنه فى تقديره للشخصيات لا ينظر الى الفرد من جميع جوانبه • ان الانسان كوحدة نفسية وتفهم الجوانب المختلفة لشخصية الأفراد من المشكلات المهمة الدقيقة التى تواجه المؤرخ • ويرى نقاد ثوكيديديس أنه أخفق فى هذه الناحية ، وأن مبالغته فى الاعراض عن تناول بعض الجوانب القليلة الأهمية فى الشخصيات التاريخية ، قد أغرته بأن يقصر حديثه على الجوانب التى لها مساس بالسياسة والحياة العامة ويغفل سائر الجوانب الأخرى • ويشعر قراؤه بأنهم فى حاجة الى المزيد من معرفة الشخصيات الكبيرة التى تناولها ، مثل بركليس وغيره من المشاهير • وهو فى حديثه عن بركليس يكتفى بالاشادة بقدرته السياسية الفائقة وعدم اهتمامه بالمال ومثاليته •• ويقف عند هذا الحد ••

والنقاد المعجبون بقدرة ثوكيديديس والمقدرون لكفايته يسلمون بما فى كتابه من بعض العيوب ووجوه النقص ، ولكنهم يلفتون الأنظار

الى المجهود العظيم الذى بذله ليرتفع بالكتابة التاريخية الى المستوى العلمى اللائق ، مؤكدين أن الكتابة التاريخية لم تصل الى المستوى الرفيع الذى استطاع تحقيقه بكتابه الا فى القرن التاسع عشر ، ولا يشكون فى أنه من أكبر الأساتذة وفى طليعة الفنانين فى الكتابة التاريخية ، وأن كتابه الذى أدركته الوفاة قبل أن يتمه يعد من طرائف الأدب والتاريخ الخالدة .

الأناباسيس
أو حملة قورش

أكسينوفون

٣٧٠ ق.م)

أكســـينوفون ومؤلفاته

ولد أكسينوفون بن جريلوس حـول عـــام ٤٣٠ ق٠م وتوفى فى قورنثية حوالى ٣٥٤ ق٠م ٠ وذكر ديوجينس لائرتيوس (١) عنه ما يأتى :

« كان أكسنيوفون ممتازا من وجوه كثيرة أبرزها غرامه بالخيل والصيد وفن القتال ، هذا الى أنه كان رجلا صالحا يحب أن يقرب القرابين ويمارس الشعائر الدينية كما كان تلميذا وفيا لسقراط » ٠ وهذا الوصف القصير بارع وتكمله قصص تعيننا على معرفة أى طراز من الرجال كان ٠ ومن هذه القصص ما يذكره ديوجينس مثلا عن مقابلته لسقراط : « يقال ان سقراط التقى به فى الشارع فسد عليه الطريق بعصاه وسأله أين يمكن أن يشترى الانسان حاجات الحياة الضرورية ٠ فأخبره بأمكنتها ثم سأله سقراط : واذا أراد الانسان أن يكون فاضلا فأين يذهب ، فلم يحر جوابا٠ وعندئذ قال سقراط : اتبعنى لأرشدك » ٠ أليست هذه قصة بديعة ؟ انها توحى بأنه كان لدى سقراط من نفاذ البصيرة ما يجعله يعرف الرجـــل الصالح حين يراه ٠ وتؤثر فينا هذه القصة تأثيرا عميقا ٠

كان أكسينوفون ثريا يستطيع أن يشبع ذوقه فى الركوب والصيد ٠ ولعله اشتغل فى فرقة الفرسان بأثينا ٠ ولكنه لم يكن ذا حرفة معينة ، ولذا استطاع سنة ٤٠١ ق٠م أن ينضم الى جيش من مرتزقة الاغريق فى حركة قورش الثانى ضد أخيه الملك ارتخشارشا ، وغلب قورش وقتل فى معركة كوناكسا واضطر الجيش الاغريقى أن يتلمس طريقه الى بلاده ناجيا بنفسه ٠ وانتخب أكسينوفون رئيسا له بعد مصرع قادته ، ونجح

فى قيادة « عشرة الآلاف » الى طرابزون · وفى أوائل عام ٣٩٩ ق·م سلم ما بقى من الجيش الى قائد اسبرطى كان موجودا فى ذلك الوقت بآسيا · ونفى حول ذلك الوقت من مدينته(٢) ثم استمر فى خدمة اسبرطة وأصبح صديقا معجبا بأجسلاوس (ملك اسبرطة ٣٩٩ ــ ٣٦٠ ق·م) ، وكان من أحسن قواد الاسبرطيين وأشرفهم، وحارب أكسينوفون الفرس تحت قيادته وعاد معـه الى اليونان ، واشترك (فى الفرقـة الاسبرطيـة) فى معركة كورونيا · وتزوج أثناء ذلك وبلغ أولاده عام ٣٩٤ ق·م من العمر ما يسمح لهم بتلقى العلم فى اسبرطة · ووهبه الاسبرطيون فيما بعد ضيعة كبيرة فى سكيلوس على مقربة من أوليمبيا ، وفيهـا عاش عيشـة ملاك الأرض يدير أملاكه ويركب الخيل ويصطاد ويكتب · وقد ألف معظم كتبه خلال العشرين سنة التى أقامها فى سكيلوس · ومن المؤكد ، أنه كتب أفضلها هناك ، ونعنى رسالته فى زحف الجيوش أو حملة قورش وذلك بين عامى ٣٧٩ ــ ٣٧١ ق·م ثم أدت تقلبات الحرب الى فقدانه ضيعته واضطراره الى بدء حياة جديدة فى قورنثيـة · وفى عام ٣٦٩ ق·م وقع الأثينيون صلحا مع اسبرطة وسـمحوا لأكسينوفون بالعودة الى موطنه · وقد خدم أولاده بين حين وآخر فى جيش فرسان أثينا ·

لم نذكر جميع أعمال أكسينوفون الحربية ، الا أنه من الواضح أنه اكتسب كثيرا من التجارب كفارس وجندى ، وهو لم يكتسب ذلك فى تقهقره المشهور حين كان شابا من كوناكسا الى البحر الأسود فحسب ، بل باشتغاله أيضا فى خدمة أعداء بلده · وكان من أشد المعجبين بالتعليم فى اسبرطة وما فيها من نظام ، وكتب بعد موت اجسلاوس عام ٣٦٠ ق·م رسالة فى مدحه ·

مؤلفات اكسينوفون

مؤلفات أكسينوفون متعددة وغزيرة · وباسـتثناء كتـاب منها أو كتابين لا يمكن أن يكون قد ألفها قبل نشاطه الحربى (٤٠١ ــ ٣٩٤ ق·م) وهى لهذا تقع ولا شك فى القرن الرابع قبل الميلاد · وقد ألف

كثيرا منها في سكيلوس (٣٩٤ – ٣٧١ ق.م) ، ولكنه ظل يكتب حتى الأيام الأخيرة من حياته ، وسنستعرض ثبت مؤلفاته .

ونبدأ بمجموعة من ثلاثة كتب تتعلق بالصيد والفروسية ، اذ من المفروض أن أولها كتبه في شبابه قبل خروجه من أثينا الى آسيا .

١ – فى الصيد : وهى رسالة تعرض للصيد وبخاصة صيد الأرنب البرى ، وتشتمل على تربية الكلاب ، وهى أول رسالة من نوعها معروفة لنا .

٢ – فى ركوب الخيل : وكان يظن أنها أول رسالة فى هذا الموضوع فى أية لغة ، حتى نشر هرونزى عام ١٩٣١ رسالة حيثية عن الفروسية ، كتبها رجل يحب لحم الخيل وله فى الفروسية تجربة طويلة .

٣ – فى الفروسية : وتبين الواجبات التى ينبغى أن يعرفها قائد الفرسان ، وهى تتمة للموضوع السابق ، وتبحث فى تطبيق الفروسية من جميع وجوهها فى الأغراض الحربية .

ويعرف قراء الفرنسية كتابى أكسينوفون (٢ ، ٣) عن الفروسية بسبب ترجمة رائعة قام بها بول لويس كوريية (١٧٢٢ – ١٨٢٥) وكان متضلعا فى الدراسات الفارسية وهلينيستيا على حد سواء .

أما أشهر مؤلفات أكسينوفون فهما الكتابان الخاصان بالأمور الآسيوية (٤ ، ٥) .

٤ – زحف الجيوش أو (حملة قورش) وهو عرض لأعظم مغامرة فى حياته ، وتصوير لاشتراك عشرة آلاف جندى من المرتزقة فى ثورة قورش الأصغر وانسحابهم الى طرابزون . ويعد أول تاريخ من نوعه . ولا يزال يعد من أهم المذكرات الحربية . وهو كذلك أول وصف للبلاد التى اجتازها فى مرتفعات أرمينيا . والكتاب مملوء بتفصيلات عجيبة ، وفيه اشارات الى النعام والجراحين فى الجيش والعسل السام والوشم وصناعة أهل

كاليبس للأسلحة الحديدية وتجارة الكتب • ويوضح أكسينوفون ضاربا بنفسه مثلا ، حاجة ضابط الجيش الى أن يكون عادلا كريما تهيا يحب الجند ويكسب اخلاصهم • وقد كانت مشاق القيادة عظيمة فى حالته بوجه خاص ، لأن «عشرة الآلاف» كانوا متباينين كل التباين ، فهم قوم من المغامرين جندوا من كل الأراضى الاغريقية ، أشبه بحطام بشرى لفظه اليم ، لا يجمع بينهم بقية من الهلينية ، وتثيرهم عزلتهم وسط البرابرة •

وكان ذلك الجيش فى حاجة الى قائد عبقرى يؤلف بين هؤلاء المغامرين •

ويعد كتاب « زحف الجيوش » أو حملة قورش قطعة أدبية رائعة تكفى لتخليد مؤلفها •

٥ ــ تربية قورش : عبارة عن سيرة قورش الأكبر مؤلفة تأليفا قصصيا • ونجد فيه أن نظم الفرس وعاداتهم ــ المفروض أنها موضوع الكتاب ــ أقرب الى أن تكون مقالا لها بقلم شخص كان معجبا بالاسبرطيين، بقدر ما كان يحتقر الفوضى الأتيكية •

انه كتاب من أنفس كتب العالم فى الأدب ، ويمكن أن تسميه النموذج الأول لطائفة من الكتب ظفرت ببعض الذيوع فى العصر الوسيط ، مثل « مبادىء الحكم » وكتب تعليم أبناء الملوك وتعليم حكام المستقبل واجباتهم وحقوقهم •

ولا يصح أن نفهم كتاب « تربية قورش » فهما حرفيا (كما كانت الحال فى الماضى) فانه مملوء بالأخطاء التاريخية الممزوجة بالحقائق • ومع أن غرضه الرئيسى أرستقراطى فان أكسينوفون لم ينس أستاذه سقراط ــ لم ينسه أبدا ــ ولذلك فالكتاب يشمل الطرف والأفكار السقراطية حتى ليذكر صورة بهيجة لسقراط أرمنى ، بل انه ليشمل بعض لمحات عن آراء ديمقراطية ، مثال ذلك ، أنه يشير (بتهكم حقا) الى حرية الناس فى ابداء الرأى ، وبشكل أكثر جدية الى هذه الحقيقة ، وهى أن « المساواة فى الحقوق

فى فارس تعتبر هى العـــدل » • وترجـــع هذه المتناقضـــــــات الى ان قلب أكسينوفون كان أكبر من أهوائه • وفى الكتاب حكايات أو صور ممتعة عن فضـــل الخبز على اللحم أو غيره لأن الانســـان لا يحتـــاج الى تنظيف يديه بعد أكله (الجمهورية الصغرى وحدائق الحيوان أو ملاعب الوحوش وخطر الثورة ونظام البريد) وأقوال مأثورة مثل : « النصر فى المعـــارك بالأنفس لا بالأبدان » و « يتجنب أهـــل الاعتبـــار ما يضر اذا انكشف » و « يتجنب أصحاب العزم ما يضر ولو لم ينكشف » ، ولعل هذه الحكم مقحمة على الكتاب • والفصل الأخير أشد تأثيرا وفيه يصف موت قورش ووصـــــاياه ويناقش خـــلود النفس مناقشـــة يمكن أن توازن بـ « فيدون » لأفلاطون دون أى ضير على أكسينوفون •

هذه القصة التعليمية الاغريقية (وهى أصل بعيد انحدر منه كتاب « تليماك ») مملوءة بالحياة وخفة الروح ، مما يساعد على تعليل ذيوعها • ومع أنها طويلة بعض الشىء ، فانها تصور جميع الموضوعات التى أيقظت روح الاستطلاع عند المؤلف أو أثارت انفعالاته فى مراحل مختلفة من حياته (من البلاد الآسيوية التى ارتادها والأجانب الذين عرفهم وطرائق التربية والخـــدمة العســـكرية وفنـــون الحرب والصـــيد والســـياسة والتهكم السقراطى) • واذا كان أكسينوفون قد كتبها فى زمن متقدم نسبيا فهى تمهيد لمؤلفاته الأخرى ، واذا كان قد كتبها فى زمن متأخر وهو الأرجح فيما يبدو فهى تلخيص لما جاء فى تلك المؤلفات من رسائل أساسية فى ثوب رومانتيكى وتعد خاتمة رقيقة •

ولنا الآن أن نشرع فى فحص كتـــابات أكسينوفون السقراطيـــة (٦ – ٩) التى كتبها على الأرجح فى سكيلوس •

٦ – المذكرات : وهى دفاع عن سقراط وذكريات عن محاوراته ، وهى تقدم لنا صورة عامة عن عادات سقراط ، وهى صادقة فى الأغلب وتصلح أن تكمل الصورة الأفلاطونية وتصححها • ونحن فى الحالتين أمام ذكريات ولكن ذكريات أكسينوفون توحى بالثقة أكثر من ذكريات أفلاطون•

٧ ـ الدفاع : وهذه أيضا تكمل الغرض الذى نشره أفلاطون بهذا العنوان نفسه وتكرر بعض الأجزاء مما جاء فى المذكرات ٠

٨ ـ المأدبة : وهى تكرار آخر لمحاورة أفلاطون لا يمكن أن يكون عرضيا ٠ ولا مناص لنا من القول بأن « مأدبة » أكسينوفون متأخرة عن « مأدبة » أفلاطون وأقل منها جودة ٠

٩ ـ فى تدبير المنزل : وهى محاورة بين سقراط وكريتوبولس تتعلق بادارة الضياع وتدبير المنزل ٠ ويروى سقراط ، وهو لم يكن يهتم بالزراعة وحياة الريف ، حواره مع مزارع يسمى أسكوماخوس ٠ ومن الواضح أن آراء هذا الرجل هى آراء أكسينوفون ، لأنها تبرز نموذج تفكيره من التعلق بالأرض والروح العملية وحسن الطبع والطيبة الواضحة ٠

أما مؤلف أكسينوفون الوحيد الذى يضرب فى صميم التاريخ فهو « هيلينيكا » ٠

١٠ ـ هيلينيكا : ويقع فى جزءين متميزين : الأول يتابع تاريخ ثيوسيديدس من ٤١١ ق٠م الى نهاية الحرب البيلوبونيزية ٤٠٤ ق٠م ، والجزء الثانى تتمة له حتى معركة مانتنيا (٣٦٢ ق٠م) ، ولكن بطريقة أخرى ٠ ويظهر بوضوح تحيز أكسينوفون لاسبرطة ضد طيبة أكثر من مرة ٠ ومع أنه وصل فى هذا الجزء الى سنة ٣٥٨ ق٠م، فانه لم يكمل تماما، وأكبر الظن أنه عاش عدة سنوات بعد ذلك ولكنه اضطر الى التوقف عن الكتابة ٠

وتكون مؤلفات أكسينوفون السياسية مجموعة أخيرة (فى غير ما ترتيب تاريخى ، ويصعب بيان التسلسل التاريخى الدقيق لكتبه) ٠

١١ ـ اجسلاوس : وهو سيرة ملك اسبرطة الذى خدمه أكسينوفون وأعجب به ، وقد ألف بعد موت اجسلاوس عام ٣٦٠ بمدة قصيرة ٠

١٢ ـ سياسة اللقدمونيين : والمرجح أن هذا المديح لأنظمة اسبرطة كما وضعها لوكورجوس قد كتب عام ٣٦٩ ق٠م ٠ ثم أضاف الى الكتاب خاتمة بعد زمن قليل ٠

وهناك كتاب يشبهه عن « سياسة الأثينيين » كان ينسب سابقا الى أكسينوفون ولكنه فى الأغلب تأليف متقدم بقلم أحد الأشراف قبل عام ٤٢٣ ق٠م ٠

وكلا الكتابين بعنوان السياسة ، مثل عنوان كتاب أفلاطون الذى يترجم عادة باسم الجمهورية ٠

١٣ ـ هيرون : وهى محاورة وهمية بين هيرون الاكبر طاغية سرافوسة الذى حكم من ٤٧٨ الى ٤٦٧ ق٠م وبين الشاعر الغنائى سيمونيدس القوسى (ح ٥٥٦ ـ ٤٦٨ ق٠م) وتعالج موضوعا مزدوجا : أيكون الطاغية أسعد من الشعب الذى يحكمه ؟ وكيف يظفر باحترامه ومحبته ؟ ولعل أكسينوفون قد استوحى تاليف هذه المحاورة فى زمان حكم ديونيسيوس الثانى (٣٦٧ ق٠م) وهو الذى كان أفلاطون يأمل أن يجعل منه ملكا فيلسوفا ٠

١٤ ـ فى الوسائل : ويشمل اقتراحات عملية لتحسين المالية الأثينية ، كتبه فى أواخر حياته بعد أن تصالح مع مدينته بزمن طويل ٠

أكسينوفون معلما

ومؤلفات أكسينوفون مع تنوع موضوعاتها تشترك فى أمور كثيرة لا من جهة أسلوبها فقط ، بل من جهة محتوياتها أيضا ٠ فالنغمة المسيطرة عليها تعليمية ذلك أن أكسينوفون لم يكن فيلسوفا ولكن كان كأستاذه سقراط معلما بالفطرة لا يصده عن التعليم شىء ، وهكذا كان يؤمن بسلطان التعليم وبقدرته على تعليم غيره ، ولم يكن ينظر فى الجليل الرائع لكن نظره فيما نظر فيه كان صادقا ، فحاول أن يفهم العالم الضئيل الذى حوله لا الكون كله ، وأن يفسره بوضوح وبساطة ما وجد الى ذلك سبيلا ٠ ونظرية التعليم علما وعملا مبسوطة فى (المذكرات) ، وبخاصة فى الكتاب الرابع وواردة عرضا فى « تربية قورش » ٠ وقد تأثر فى نظريته لا بسقراط فقط ، بل بديمقريطس والفيثاغوريين وكانت جماعة منهم تقيم قريبا من سكيلوس حيث قضى عشرين سنة من أسعد السنوات وأغزرها

انتاجا . وعنده أن الناس جميعا فى حاجة الى حسن التدريب وهو ألزم لأولئك الصبيان الذين تتوافـر فيهم المواهب الطبيعية . وقد أدرك كل الادراك العناصر الثلاثة الأساسية فى كل تربية ، وهى المواهب الطبيعية والتعليم والرياضة البدنية . وهو يرى أن على الشباب أن يتدربوا على التعبير عن خواطرهم لزيادة ضبط نفوسهم ، وأن يلبسوا لكل حال لبوسها، وأن يتعلموا مع التصرف الاستقلال ، ويجب أن نعـــدهم للاســهام فى المناقشات السياسية والأعمال الادارية .

وكانت غايته الأساسية كفاية سقراط ، حتى لقد أجرى وصاياه على لسان أستاذه . وكان يواصـــل تعاليمه (يحـاول مواصلتها) مؤولا اياها ومضيفا اليها ثمار تجربته الواسعة . وقد اهتم خاصة بالتعليم العام الذى يحتـــاج اليه كل متأدب كى يؤدى مهمته ، ومع ذلك شعر بالحاجة الى الملاءمة بين هذا التعليم والصفات الخاصة لكل طالب . ففى الناس صفات متباينة يمكن أن نحسن كل واحدة منها بالتدريب المناسب . ومن واجب المعلم أن يتلمس الاستعدادات الحسنة ليعمـــل على تنميتها . ومهما يكن من شىء فالتربية الخلقية والدينية أساسية ، ولا ينبغى للمعلم أن يحاول فقط زيادة المعلومات ، بل الأولى أنه يقوى روح الطالب ويكون خلقه .

ولا يبدو شىء من هذا مبتكرا اليوم ، ولكن سقراط وأكسينوفون كانا أول من قال به . وعلينا أن نذكر أن أكسينوفون كان يكتب فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد .

أثر اكسينوفون

كان أثر أكسينوفون بالغ العظم بسبب أهدافه التعليمية من جهة ، وحكاياته المشوقة التى رواها وأحسن روايتها من جهة ثانية ، وانسانيته ونقاء أسلوبه من جهة ثالثة . كان سمحا ، وكان نثره من السهولة والحلاوة بحيث جعله يلقب بنحلة أتيكا . ولقـــد وصف كونتليان أسـلوبه بهذا الوصف الحسن : « البهجة الخالصة » وأصبح أكسينوفون بسبب هذا الوصف اماما فى اللغة أجيالا كثيرة . وكان لهذا من ناحيـة أخرى أثر

سبي» ، اذ ان كثيرا من الطلبة حاولوا بغير تحضير كاف شق طريقهم في فهم كتاب « زحف الجيوش » ، فشق عليهم ذلك وأصبحت ذكرى الدرس تؤلمهم • ومع هذا لا نأخذ بحكمهم على «زحف الجيوش» ولا على أكسينوفون، لأن دراسة النصوص القديمة جميعها بهذه الطريقة أضحت مثار ألم وتعذيب • ولئن دل هذا على شيء فانما يدل على ضعف الطلاب والمعلمين •

وكان أثر أكسينوفون عظيما في الزمن القديم • ولقد قيل ان كتبه التي ألفها عن آسيا وبخاصة « زحف الجيوش » ، هي التي وضحت السهولة النسبية في معاملة الآسيويين ، وأثارت في ملوك مقدونيا الطمع في فتح آسيا • وأكبر الظن أن الاسكندر الشاب درس هذه الكتب ، ومن ناحية أخرى كان وصف أكسينوفون لمملكة آسيوية مثالية تصويرا ساحرا للممالك الهلينستية • وكان سادة الرومان يدرسون الصيد وتدبير المنزل والأخلاق وصناعة الحكم في كتب أكسينوفون ، وكانوا يجدون فيها حلولا واضحة في لغة سهلة مناسبة لمعظم مشاكلهم •

وقد درست مؤلفات أكسينوفون في عصر النهضة البيزنطية وحوكيت طريقتها الاتيكية • وكان هيرودوت وأكسينوفون النموذجين الرئيسيين الأدبيين ليوحنا سيناموس (النصف الثاني من القرن الثاني عشر) وقد ترجمت مؤلفات أكسينوفون الى اللاتينية على يد الهلينستيين الأوائل : بوجيو الفلورنسي ، وليوناردو بروني الأريزي ، وفرنشسكو فليلفو التولنتيني • وقرأ أدباء الانجليز في المدة من ١٥٣٠ م الى ١٦٣٠ م كتاب « تربية قورش » ، وحاولوا أن يجدوا فيه حل مشكلاتهم • فقد كان ذلك الكتاب أول قصة تاريخية في عالم الأدب لم يستمتع بها ويتعلم منها الانجليز فقط بل الفرنسيون والأدباء في كل مكان متمدين من أوروبا • فكان الأنيس الصامت الذي علم الناس الطريقة السقراطية والسياسية ، كما كان مقدمة شرقية • ثم فضل عليه الناس فيما بعد كتاب « زحف الجيوش » ، وظل أكسينوفون من أبرز المعلمين للاغريقية وللهلينستية ••

الاطار التاريخي لحملة قورش

بجوار معبد أبوللو في دلفي يقوم حجر مخروطي — هو الأومفالوس أو « السرة » — اعتقد اليونانيون القدماء أنه مركز الكرة الأرضية . وكان هذا الاعتقاد وليد شعورهم بالتفوق والتفرد ، وبأنهـــم منارة يحيط بها الظلام من كل جانب ، وبالتالى فهم خير الأنام وكل من وقف خارج حدود الأرض اليونانية همجى ، ومن ثم أيضا فكلمة أجنبى باليونانية القديمة هى « برباروس » . ولعلهم لم يجانبوا الصواب كثيرا فى زعمهم هذا فقد كان ذلك الشعب يصنع حضارة لاتزال الى اليوم مصدر رشد والهام يثرى وجدان العالم وفكره ، ولم يكن ما حققه ذلك الشعب من امتيـاز وتفـرد فى مجال السياسة والحرب ونظام الحكم يقل فى شىء عما حققه فى الفن والأدب والفكر . فبراكسيتليس يصوغ من الحجارة تماثيل تنطق وتتحـــرك ، وفيدياس قد جعل الازار الذى يتدثر به التمثال ، وهو من الحجارة الصماء ، يشف عن جسد التمثال من تحته ، ومسرحيات إسيخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس لاتزال تبهر القارىء أو المشـــاهد ، وفلسفة أفلاطون ومنطق أرسطو وجدل السفسطائيين العظام ، وانجازات علماء الطبيعة فى مجال الذرة والفلك .. وأناكساجوراس ونظرياته عن سطح القمر المظلم وعن الشمس ككتلة صخرية ملتهبة وعن المادة التى لا تفنى ولا تستحدث ونظريته عن الائتلاف والانشطار ، وبروتاجوراس وجهوده فى علم اللغة والفلسفة .. هذه العبقرية التى أعلنت عن نفسها فى الفن والأدب والعلوم والطبيعة والتى أعلنت عن نفسها أيضا بشكل واضح فى السياسة ونظم الحكم .. ديمقراطية أساسها عشق الحرية فى العقل وفى الجســـد وبعض العنف والعذاب . وبهذه الروح وقفوا متفردين فى العالم . وسنلمس تلك الحرية فيما كتبه أكسينوفون فى حملة قورش عن العلاقة بين الجندى اليونانى ورئيسه .. انه يتصدى له ولا يطيع أوامره عن عماء ، انما هو اقناع أو اقتناع ولا ثالث غيرهما .

بلاد اليونان هى منطقة الاشـــعاع وسط عالم مظلم ، وأثينا هى بؤرة الضوء وسط تلك المنطقة ، وبالتالى فهى تنشر الحضارة على باقى ولايات

بلاد اليونان بقوة الطرد المركزى ، وتتلقى الحقد والحسد من جيرانها بقوة الجذب المركزى باعتبارها محط الأنظار . وكانت أثينا بحق هى صفوة الصفوة (وكان أكسينوفون أحد فرسان ذلك العصر ٥٠٠ ــ ٤٠٠ ق.م) ومثلما كانت آثار الحضارة التى تشعها تصل قوية الى الجيران ثم تزداد أفولا بالتدريج كلما بعد المكان ، كذلك كان العداء يصلها قويا من أقرب الجيران وأقل ضراوة من الجيران البعيدين .

من الخارج كان الاغريق جميعا يتصدون لهجوم الأعداء الذى يأتيهم من جبهتين : من فارس فى الشرق سنة ٤٩٠ ق.م فى معركة ماراثون وسنة ٤٨٠ ق.م فى معركة سلاميس حيث هزم الاغريق الفارسيين وأحرقوا لهم سفن العودة ، ومن الغرب اندحرت جيوش الغزاة الذين جاءوا من قرطاجة ، وكانت هزيمتهم فى هيميرا فى صقلية فى نفس العام الذى انتصر فيه الاغريق فى معركة سلاميس سنة ٤٨٠ ق.م ، ثم هزم الأعداء فى كوماى فى ايطاليا .

ومنذ ذلك الحين انتابت أثينا أو الامبراطورية الأثينية نوبة من الغرور وقد انتصرت على الفرس ، وازداد حقد جيرانها عليها وتطلعهم الى تبوؤ مكانتها . وبدأ الصراع رهيبا بين أثينا وجيرانها من الجنوب الاسبرطيين أو البيلوبونيزيين سكان شبه الجزيرة المورة ، وهم قوم شديدو البأس محاربون عتاة ، وسرعان ما اندلعت نيران حرب أهلية مريرة عرفت باسم « حرب البيلوبونيز » (٣) أتت على كل شىء ، وهى التى اعتبرها توينبى السقطة التى كانت سببا فى انهيار الحضارة اليونانية القديمة .

على امتداد ذلك العصر نفسه وعلى الطرف الشرقى لبلاد اليونان كان تاج فارس ينتقل من داريوس الأكبر الذى كان يحكم البلاد ابان معركة ماراثون الى ابنه كسركسيس الذى كان يحكم البلاد أيام معركة سلاميس، مارا بأرتاكسركسيس وبداريوس نوثوس الى الابن الأكبر لداريوس واسمه أرتاكسركسيس الثانى ، متخطيا بذلك الابن الأصغر قورش . وقد يبدو الأمر عند هذا الحد طبيعيا ــ أن يرث الابن الأكبر تاج البلاد قبل الابن الأصغر لولا أن كانت هناك ظروف أخرى .

وقد لعب قورش دورا بارزا فى التاريخ اليونانى ، فقـرب نهاية الصراع الذى احتـــدم بين أثينا واسبرطة أقام الاسبرطيـون حلفـا مع تيسافرنيس ، وهو الستراب الفارسى على ليديا وأيونيا والقائد الأعلى لكل القوات الفارسية لضرب آســـيا الصغرى ٠ وقد كان الطمع من الجانبين هو أساس ذلك التحالف ، فتيسافرنيس قد قبل هذا التحالف طمعا فى أن يستطيع ــ بمساعدة الاسبرطيين ــ أن يستعيد السيطرة على المدن اليونانية على الساحل الآسيوى والتى كانت من قبل تحت الحكم الفارسى ثم أصبحت فى ذلك الوقت جزءا من الامبراطورية الأثينية٠ أما الاسبرطيون ، فقد كانوا بدورهم يطمعون فى أن ينالوا من تيسافرنيس العون والمساعدة لامداد أسـطولهم ، ومع ذلك فلم يكن تيسافرنيس بالرجل الساذج ، بل كان سياسيا يحمل وجهين: نفعيا ومنافقا،والى جانب ذلك كان صديقا لألكبياديس الأثينى وهو سياسى محنك ذو وجهين أيضـــا ، حتى لقد سمى الكبياديس الكوثورنوس (٤) الذى أسدى الى صاحبنا نصحه بأن من مصلحته الا ينتصر جانب على الآخر بل أن يجهد كل جانب الآخر بحروب مستمرة ليضعف اليونانيون جميعا أمامه ٠ وعلى ذلك تراجع على الفور وأوقف اعاناته المادية عن الاسبرطيين ، وعندما احتج الاسبرطيون لدى الملك الفارسى داريوس الثانى بأن موقف تيسافرنيس يعتبر خرقا للاتفاق بين الجانبين أرســـل الملك ابنه الأصغر قورش سترابا على ليديا بدلا من تيسافرنيس ، وعلى فروجيا الكبرى وكابادوكيا ، وقائدا حربيا لغرب آسيا الصغرى كله ٠ وهكذا أصــــبح قورش رئيســـا لتيسافرنيس الذى جــــرد من كل سلطاته العسكرية ، عدا جزءا صغيرا من منطقة نفوذه السابقة هو أيونيا ٠

وهكذا وجد قورش فجـــأة فى هذه المكانة الخطـيرة ٠٠ كان ذلك سنة ٤٠٧ ق٠م تقريبا ، ولم يكن قورش قد تجاوز بعد السابعة عشرة ، وقد طلب اليه الملك أن يخلص العون للاسبرطيين المغلوبين على أمرهم حتى ذلك الوقت ٠ وقد قدم قورش لهـــم مساعدات جليلة ربما كان لها أكبر الأثر فى أن أحرز الاسبرطيون فيما بعد نصرهم على الاثينيين ٠ وفى هذه الفترة تعرف الى الكثيرين من الضباط والجنود اليونانيين ، وارتبط معهم بعلاقات ومعاملات كثيرة ٠ وقد بقى هؤلاء القواد الاغريق على رأس قوات

على أهبة الاستعداد للخدمة فى صفوف أى سيد ، والفصل فى الأمر يحسمه من يدفع أكثر . كذلك أتاحت له مشاركته فى حرب البيلوبونيز أن يتعرف أساليب القتال اليونانية ، وأن يشهد تفوق الجندى اليونانى الهائل على مثيله الفارسى . ثم كانت الحرب التى دامت ربع قـرن قد بدأت تطرد عددا كبيرا من الضباط والجنود اليونانيين الذين تعودوا الحرب ولم يطيقوا السـلم . وقد صـادق قورش هؤلاء جميعا ، ومن بينهـم كليارخوس اللاكيديمونى وبروكسينوس صديق أكسينوفون وخيريسوفوس الاسبرطى ومينون من تساليا .

وقبل انتهاء حرب البيلوبونيز بقليل ، أى حوالى ٤٠٥ ق.م استدعى قورش من آسيا الصغرى ليكون الى جوار والده على فراش الموت . لكنه قبل أن يصـل تلقى الأخبـار بأن أخـاه ارتاكسركسيس قد أصدر أمرا بالقبض عليه فور توليه الحكم بعد موت أبيه ، مما أصل المرارة فى نفس قورش، فطلب الى أصدقائه اليونانيين حشد كل من يستطيعون من الاغريق، ليقوم بحملة ظـل الهدف منها مخبوءا عن الجنود فترة طويلة من رحلة الحملة ، ثم عرف بعد ذلك أنها تستهدف تجريد أرتاكسركسيس من تاج الحكم . والسبب فى ذلك شـعور قورش بالمرارة المفاجئة حين وصله نبأ البحث عنه لاعتقاله بعد وشاية تيسافرنيس به عند أخيه ، فى الوقت الذى كان يهيىء نفسه ليتولى الحكم ، فقد كان أثيرا الى قلب الملكة والملك لأنه الأصغر سنا ، ولأنه ولد فى القرمز ، أى ولد وكان أبوه متوجا على خلاف الابن الأكبر أرتاكسركسيس . ولهذا سابقته ، فقد تولى اكسركسيس — قبل ذلك بثمانين عاما — الحكم قبل أخيه الأكبر لذلك السبب نفسه .

وعلى امتداد الرقعة الزمنية نفسها ، وفى غفلة من تواتر الأحداث وتدافعها اللاهث ، نلمح اكسينوفون واحدا من الذين يشاركون فى صنع الحياة الثقافية فى القرن الذهبى (٥٠٠ — ٤٠٠ ق.م) الذى شهد حصاد عبقرية شعراء الدراما والمؤرخين والفلاسـفة . وتميز أكسينوفون بسحر خاص يتبدى فى تبسطه فى المحادثة الذى ورثه عن سقراط ، وحدث أن طلب اليه صديقه بروكسينوس ان يسافر معه فى حملة قورش ، ووجد

أكسينوفون فى ذلك فرصة لقضاء بعض الوقت ولمشاهدة بلاد لم يرها ، ونصحه سقراط أن يستشير نبوءة دلفى (٥) أولا ففعل لكنه لحرصه على السفر ـ لم يسأل النبوءة هل يسافر أم لا بل سألها : « أى الآلهة ينبغى أن يقدم لها الأضاحى ليكون حظه أكثر توفيقا فى رحلته» • وسافر أكسينوفون مع الحملة ، وهو لا يعلم أن الحظ يعد له دورا خطيرا فى تلك الحملة وهو لم يبلغ سن الثلاثين • وقد سجل أحداث تلك الحملة فى كتاب « الحملة » على ما ذكرنا •

حملة قورش كما يصفها اكسينوفون

واذا كان لنا أن نستبق الأحداث متعجلين الوصول الى الجزء الثالث من مؤلف أكسينوفون ، يشدنا اليه بساطتـــه فى رواية الخبر وسحره فى اختياره أكثر الزوايا اطلالا على الفكرة التى ينبغى لفت انتبـاه قارئه اليها داخل الخبر الذى يرويه ، ثم تمكنه وبراعته فى ترتيب تفاصيل الخبر على نحو يجعل منه كاتبا روائيا فنانا ، اذا تعجلنا الوصول الى الجزء الثالث من « الأناباسيس » لنعرف كيف اشترك أكسينوفون فى الحملة ، وسنلحظ أنه كان متأنيا صبورا فلم يستسلم لاغراءات الرغبة فى الاعلان عن النفس والبحث فى أول مكان فى مؤلفه يسجل لنفســـه فيه اشتراكه فى تلك الحملة ، فقد يأتى ذلك المكان وسط أحداث تافهة تضيع معها سيرته ، ولكنه ينتظر الى أن يصل الى أكثر اللحظات توترا وأعظمها حرجا ، والى أن يصل الى أكثر المواقف تعقدا حيث تكون الأحداث عند ذروة الخطورة ، وقد اغتيل قواد الحملة ليظهر فى هذه اللحظة منقذا ومخلصا بعد أن طال بنا الشوق الى معرفة كيف يكون الخلاص من تلك الورطة ، ثم هو قد اختـــار لنفسه الجزء الثالث ـ وسط العقد ـ ليروى فيه قصة اشتراكه فى الحملة ، فنكاد وقد فرغنا من قراءة الكتب السبعة نحس أننـا قد كنا صيدا لذلك الماكر أكسينوفون ، ألقى حولنا شباكه حين أوهمنا أنه كاتب موضوعى فانسقنا معه واذا بنا فى الجزء الثالث ـ وقد قطعنا الرحلة معه ـ نكتشف أن الجزءين

الأول والثانى وما ينطويان عليه من أحداث جسام ، قد كانا فى الحقيقة مقدمة لسيرة أكسينوفون أو مدخلا اليها · واقرأ ما يقوله عن عدم امتثاله لنصح سقراط وتحايله على نبوءة دلفى واصراره على الاشتراك فى الحملة ، ولا يفوتك أن تلحظ أيضا كيف يظهر فجأة وكيف يجىء هذا الظهور فى ذروة الأزمة : « وبعد أن وقع القادة فى الأسر ، وكذلك الضباط الكبار والجنود الذين كانوا فى رفقتهم ولقوا حتفهم جميعا ، كان طبيعيا أن يجد الاغريق أنفسهم فى غمار حيرة مربكة ، ونهبا لأفكار مضنية ، فهم يقفون على أبواب الملك وهم محاطون من كل جانب بقبائل معادية لا تحصى ولا تعد ، وليس ثمة من منقذ يمد لهم يد العون فيما يحتاجون اليه من مؤن بعد ذلك وأنهم بعيدون عن بلاد اليونان بما لايقل عن عشرة آلاف ستاديا (حوالى ١٦٠٠ كيلو متر) وأن ليس لهم من مرشد يدلهم على الطريق ، وأنهم محاصرون من كل جانب بأنهـــار يستحيل عبـــورها تسد عليهم خاصـــة طريق العودة · ان الأجانب الذين قاموا مع قورش ومعهم بهذه الحملة قد خدعوهم ووشوا بهم ، وأنهم قد تركوا وحيدين ولم يعد بينهم فارس واحد يعينهم ، حتى لقد أصبح الأمر واضحا أمامهم على هذا النحو : ان هم أرادوا النصر فليس بوسعهم أن يقتلوا رجلا واحدا (من الأعداء) ، وان كان لا مفر أمامهم من الهزيمة فلن يبقى واحد فى قيد الحياة · وهم وقد عجت عقولهم بتلك الأفكار وعربد بنفوسهم اليأس واستبد ، راح قليلون منهم يتشممون الطعـــام فى عزوف عندما حل المســـاء ، وقليلون يوقدون نارا ، وكثيرون لم يرجعوا تلك الليلة الى ثكناتهم ، وانما رقدوا حيثما اتفق ، وقد فر منهم النوم بعد أن طواهم الحزن وأضناهم الشـــوق الى وطنهم وأهليهم ، والى زوجاتهم وأطفالهم الذين بدا لهم أنهم لن يروهم بعد الآن · تلك كانت حالهم حين خلدوا الى الراحة ·

وكان بين أفراد الجيش رجل اسمه أكسينوفون أحد الأثينيين ولكنه سافر مع الحملة لأن بروكسينوس ، أحد أصدقائه منذ فترة طويلة ، كان قد أرسل اليه فى داره دعوة الى مرافقته · ووعده بروكسينوس كذلك ان وافق على السفر معه ، أن يقدمه ويوثق صـــداقة حميمة بينه وبين قورش

الذى يعتبره أعز لديه من وطنه نفسه • وبعد أن قرأ أكسينوفون رسالة بروكسينوس التقى بسقراط الأثينى وناقشه فى أمر تلك الرحلة ونصح سقراط أكسينوفون ، وهو يخشى لو أصبح أكسينوفون صديقا لقورش أن يكون ذلك سببا فى تهمة تدين أكسينوفون من جانب الحكومة الأثينية • والسبب فى ذلك أن اعتقادا كان قد ساد بأن قورش قد حرص كل الحرص على تقديم أعظم المساعدات للاسبرطيين فى حربهم ضد أثينا ، نصح سقراط أكسينوفون أن يتوجه الى دلفى ليستشير الاله فى أمر تلك الرحلة • وقد ذهب أكسينوفون وسأل أبوللو أى اله ينبغى عليه أن يقدم له القربان ويزجى الصلاة ليعينه على أن تكون رحلته موفقه كل التوفيق ، وأن يعود آمنا الى وطنه بعد أن تكون قد صحبته السلامة وأصابه أسعد الحظوظ ، وقد أجاب الاله أبوللو عن سؤاله ودله عن الآلهة التى ينبغى أن يقدم لها الأضاحى • ولما عاد أكسينوفون من دلفى ، قص على سقراط النبوءة فكشف له صاحبنا الخطأ الذى تـردى فيـه ، فهو لم يسـأل « الاله » أولا ما اذا كان الخير فى أن يذهب أم فى أن يبقى ، وانما هو قد قرر لنفسه أولا أن عليه أن يذهب ، ثم هو قد سأل الاله بعد ذلك عن أفضل السبل الى الرحيل • ومع ذلك أضاف سقراط : « وما دمت قد طرحت السؤال على هذا النحو فلا عليك الا أن تفى بكل ما أشار به الاله » •

ويصف أكسينوفون بعد ذلك كيف ألحق بصديقه خدعته وغرر به مثلما غرر بباقى الجنود • ومع ذلك واصل السير مع الحملة ، ويعود مرة أخرى الى اللحظة التى كان قد بدأ بها هذا الكتاب ، الى الورطة التى ألمت بالجنود وقد قتل القواد •

ويروى أكسينوفون قصة قورش وأسباب الحملة من أولها بادئا من السـطر الأول من مؤلفه عن الحملة : « والآن عندما رقد داريوس طريح الفراش وقد ألم به المرض ، وعندما تشوف نهاية حياته تدنو ، فقد رغب فى أن يكون ولداه الى جانبه ، وحدث أن كان الابن الأكبر الى جواره بالفعل فى ذلك الوقت • أما قورش فقد أرسـل لاستدعائه من ولايته التى كان قد نصبه سترابا عليها ، وجعله قائدا لكل القوات المرابطة فى سـهل

كاستولوس ، وعلى ذلك فقد رحل قورش وفى رفقته صديقه تيسافيرنيس ، ومصطحبا معه ثلاثة آلاف من الهوبلتياى (الجنود حاملى الأسلحة الثقيلة) الاغريق يقودهم أكسيناس من باراسيا .

وعندما أسلم داريوس روحه وأصبح أرتاكسركسيس خليفة الملك ، أسرع تيسافيرنيس ليشى بقورش ، افتئاتا ، عند أخيه الملك مدعيا أنه كان يتآمر عليه . ولما أن صدق أرتاكسركسيس الوشاية ، قبض على قورش بنية اعدامه لولا أن تشفعت له أمه وأعادته الى ولايته . والآن وقد عاد قورش بعد أن تربص الخطر بحياته ، وأفعمت روحه مرارة الازدراء راح يتدبر الأمر ، لن يتاح له ما أتيح لأخيه (من قوة) ولهذا ، ان استطاع فليكن ملكا بدلا منه ، وقد كانت باروساتيس الأم تحابى قورش وتهبه كل حب وحدب مؤثرة اياه على أخيه الذى أصبح الآن ملك (البلاد) ولاشك أنها ستساندهء .

وقاد قورش الحملة ، وحيثما ســـــار كان يتلقى العون من المؤن والرجال ، فبدأ سيره من سارديس الى نهر ماياندروس ومدينة كولوساى متقدما عبر لوكاؤنيا وكابادقيا عبر جبل مونت تاوروس والممر المعـروف ببوابات كيليكيا ، وقد بعث بعيون عن طريق آخر ليوهم حراس الفرس بأن الحملة تعود أدراجها . ويضطر قورش هنا الى التصريح بالسبب الحقيقى للحملة ويصف أكسينوفون موقف الجنود من قورش فى تلك اللحظة فى الجزء الأول منالأناباسيس: « وجمع قورش قواد الاغريق وأخبرهم أن المسيرة يجب أن تتجه الى بابل ضد الملك العظيم، وأشار عليهم تبعا لذلك أن يتولوا توضيح ذلك للجنود وأن يبذلوا غاية جهدهم لاقناعهم على اتباعه . وعلى ذلك عقد القواد اجتماعا أعلنوا فيه الأمر ، وثارت ثائرة الجنود وغضبوا من القواد قائلين انهم كانوا على علم بذلك منذ وقت طويل وانمـــا أخفوه عنهم ، وأبعـد من ذلك أنهم رفضـوا أن يستمروا فى رحلتهم ما لم يعطوا نقودا ليتساووا بالرجال الذين رحلوا مع قورش من قبـــل عندما ذهب لزيارة أبيه وتلقوا الهدايا والعطايا، برغمأنهم لم يكونوا يسيرون الى معركة، بل لأن أباه قد استدعاه لزيارته . ونقل القواد هذا المطلب الى قورش الذى

وعد بأن يعطى كل رجل خمسة ميناى (حوالى عشرة جنيهات) من الفضة عندما يصلون بابل ، وبأن يدفع كذلك أجورهم كاملة ، حالما يرجع بالاغريق الى أيونيا فى رحلة العودة ٠

وبهذه الوعود اقتنع الجزء الأكبر من الجيش اليونانى ٠

أما بالنسبة لمينون ، وقبل أن يتضح له ما يمكن أن يكون الجنود الآخرون قد فعلوه ، أى ما اذا كانوا قد تبعوا قورش أم لا ، فقد تحدث اليهم هكذا : « أيها الجنود،ان أنتم أطعتمونى فأنتم جديرون بتقدير قورش وتكريمه لكم فوق سائر الجنود ، وما عليكم ان تبذلوا جهدا أو تواجهوا خطرا ، فبماذا أنا آمركم ؟ فى هذه اللحظة (أتصور) قورش يرجو الاغريق أن يتبعوه ضد الملك ، وخطتى ، اذن ، أن عليكم أن تعبروا نهر الفرات قبل أن تتضح اجابة باقى الاغريق على رجاء قورش ٠ فان هم أطاعوه وقدروا أن يتبعوه فسيكون لكم أخيرا المفخرة والحظوة بأنكم أصحاب الفضل فى هذا القرار ، لأنكم أنتم الذين بدأتم العبور ، ولن يشعر قورش لكم بالعرفان والامتنان فحسب وقد وجدكم أشد الناس حدبا عليه وتحمسا لقضيته ، بل سيرد الفضل بأفضل منه ــ وهو يعرف كيف يفعل ذلك ، ومن ناحية أخرى اذا رفض الباقون أن يتبعوه فسوف نعود جميعا أدراجنا ، ولكنكم أنتم وحدكم الذين أطعتموه ستكونون رجاله المقربين ليس فقط فى أعمال الحراسة الخاصة (وهى خدمة سهلة) بل فى القيادات وفيما أنتم فيه راغبون غير ذلك ، أعرف أنكم ــ كأصدقاء لقورش ــ ستكونون فى مأمن منه » ٠ ولما أن سمع منه الجنود هذه الكلمات اقتنعوا وعبروا النهر سريعا قبل أن يعطى الباقون اجابتهم ، وعندما عرف قورش أنهم قد عبروا طار فرحا وأرسل « جلوس » الى القوات بهذه الرسالة : « أيها الجنود ، اليوم أحييكم وأثنى عليكم ، ولكننى سأبذل قصارى جهدى كى تجدوا فى شيئا أستحق عليه ثناءكم ، والا فلست قورش بعد اليوم » ٠ ولهذا قوى الأمل فى نفوس جنود مينون وتوجهوا بالدعاء له أن يشمله التوفيق ، بينما أرسل قورش الى مينون نفسه أروع الهدايا ٠ بعد ذلك تقدم قورش لعبور

النهر وتبعه باقى الجيش الى آخر رجل ، وفى هذا العبور لم يبتل رجل واحد لما فوق صدره بماء النهر · ويقال « ان هذه هى المرة الوحيدة التى تم فيها اجتياز هذا النهر سيرا على الأقدام فلم يعبر بعد ذلك الا بالقوارب» ·· «ويبدو أن العناية الالهية قد تدخلت ، وأن النهر قد تراجع وانحسر بوضوح أمام قورش ، لأن قدرا مسطورا كان قد خط بأن يصبح قورش ملكا » ·

وتتقدم الحملة فتجتاز أراضى سوريا الى أن تصل الى نهر أراكسيس « وهنا يجدون قرى كثيرة مليئة بالحبوب والنبيذ فيبقون هنـاك ثلاثة أيام ثم يستكملون مؤونة الجيش ويتقدمون عبر الصحراء العربية مسترشدين بنهر الفرات الذى جعلوه الى يمينهم » · وقبل أن نمضى مع مسيرة الحملة ، لايفوتنا أن نرصد من الجزء الذى تقدم براعة أكسينوفون فى نقل الواقعة ، انه ليس بالمؤرخ الذى يسجل ويكتفى بالتسجيل وفى سنة كذا حدث أن ·· فحسب ، كمـا أنه لا يكتفى بالوصف ونقـل الواقعة كما شهدها ، انما هو يغوص الى أغوار النفس ويخرج الى السطح وقد أمسك فى قبضته بكل ما يعتمل بتلك الاغوار ليبسطه أمامنا·ولعل لميوله الفلسفية يرجع هذا المنهج الذى مزج فيه بين التاريخ والتحليل النفسى ، ثم هو يحدد أولا مكان الحدث وشـــخوصه ويترك هؤلاء يحدثونك بلغتهم وبنفس الكلمات التى خرجت من أفواههم من قبل ، فان كان الحوار أقدر على تجسيد الواقع لجأ الى الحـوار ، وان كان السرد لجـأ الى السرد ، وهو بانتحائه هذا المنحى يمازج بين عمل الأديب ومهمة المؤرخ · وستجد فى النهاية أن الكتاب الذى بين يديك هو كتاب فلسفة ونموذج من أدب الرحلات وكتاب حرب الى جانب أنه كتاب تاريخ ·

وعند ايسوس ينضم خيريسوفوس الاسبرطى ومعه ٧٠٠ رجل· ويصل عدد جنود قورش الآن الى ١٢٫٩٠٠ جندى من الاغريق ، و ١٠٠٫٠٠٠ من الفارسيين · وكانوا جميعا لا يتوقعون أن يحارب الملك ، لكنه يظهر أمامهم فجاة عند كوناكسا على بعد ٥٠ ميلا من بابل · وكان تشكيل جيش قورش على النحو التالى : كليارخوس قائدا للجناح الأيمن وكله من الاغريق ويقف بهم فوق الفرات، وقورش قائدا للوسط ، وأريايوس الفارسى قائدا للجناح الأيسر ·

ويصف أكسينوفون بعد ذلك كيف هجم الاغريق وانطلق جناح كليارخوس الأيمن وأطلق الجنود الصيحات ليطعنوا بالرعب قلوب الفارسيين الذين ولوا الأدبار هاربين دون أن يقتلوا رجلا واحدا٠أما قورش فقد كان طوال الوقت يعد ٦٠٠ من أقرب الجنود اليه من « رفقاء المائدة » كما يسمون ، ووقف يرقب ظهور أرتاكسركسيس فى الوسط ، ونعرف بعد ذلك أنه عندما يلمح الملك يصيح : « اننى أرى الرجل » ويندفع اليه مع جنوده مسددا ضربة قاتلة ، لكنه فى نفس اللحظة يلقى رمحا فى عينه يصيب منه مقتلا لينهى صراع قورش مع أخيه هذه النهاية الدرامية المفجعة بما يعيد الى أذهاننا قصة الأخوين بولينيكيس وايتيوكليس ولدى أوديب ، اللذين اقتتلا على أسوار طيبة وقتل كل منهما الآخر فى نفس اللحظة ٠

كان بوسع الاغريق أن يمكثوا حيث هم ، وأن يصبحوا خطرا يهدد فارس،ولكن كليارخوس يتقدم الى أريايوس الفارسى يعرض عليه أن يأخذ مكان قورش ويعده بأن يساعده على الوصول الى العرش ، فلا يقبل أريايوس خوفا من نقمة الفرس٠ويعرض اقتراحا بديلا بأن يدل الاغريق على مخرج من هذا المكان الذى تمزقه القنوات المائية ولن يقودهم الى رحلة العودة ٠ ولم يفعل الفارسيون شيئا لمواجهة فورية مع الاغريق سوى أنهم أغاروا على معسكرهم وسرقوا مؤونتهم من مأكل وشراب ٠ ثم أرسل الفارسيون تيسافرنيس ، الستراب الفارسى والسبب الحقيقى فى كل هذه المصائب الى معسكر الاغريق عارضا عليهم الصلح والصداقة ، بينما هم فى الحقيقة يدبرون لمكيدة٠ويلتقى تيسافرنيس بكليارخوس ويعقد معه مؤتمرا أبدع فى وصفه أكسينوفون الذى نقل الينا أقوال كل فريق من الاغريق والفارسيين نقلا حرفيا كأنه « محضر جلسة » ٠ وأغلب الظن أن الخطب التى جرى بها قلم أكسينوفون هى صياغة جديدة لأقوال القواد دبجها أكسينوفون بنفسه ، أى انها ليست بالتسجيل الحرفى ٠ فالمنطق الذى يحكم الفكرة الواحدة والذى تنتظم وفقه الأفكار متجاورة على نحو يفرض اقناع السامع بها ، وان كانت فى غير صالحه ، وقوة الحجة ، والأسلوب

الأدبى الذى لا يمكن ان يكون قد انطلق عفو الخاطر ، وانما جاء بعد تريث وتفكير ثم تقديم وتأخير ، كل هذه شــواهد لعلهـا تقطع بأن أكسينوفون قد أعاد صياغتها حتى لا تكون الرقعة الارجوانية فى عمله • وفى نهاية الاجتماع يقبل كليارخوس دعوة تيسافرنيس الى عقد مؤتمر موسع داخل الأراضى الفارسية • وبعد تبادل الزيارات يخرج كليارخوس ذات مرة ومعه بروكسينوس ومينون وأجياس وسقراط الآخى ، ومعهم عشرون قائـدا ومائتان من الجنود • ووصلوا للقاء تيسافرنيس ، وفتحت الأبواب لكبار القواد الخمسة وانتظر القواد العشرون والجنود خارجها • أما القواد الكبار فقد ألقى القبض عليهم للادلاء بخططهم قبل أن يقتلوا ، وأما القواد والجنود فقد انطلقت عليهم كتائب الفرسان من الفرس تطيح رقابهم لاتدع عبدا ولا حرا •

ويجد الاغريق أنهم قد وقعوا فى ورطة ومزقهم اليأس على نحو ما رأينا فى بداية الجزء الثالث ••

وعندئذ يظهر أكسينوفون الذى يبحث عن أحــد ضباط صديقـه بوكسينوس ويقنعه بأن لا سبيل الى النجاة الا بالحرب • ويعقد مؤتمرا يدعى اليه القــادة ويتم الاتفــاق على التقهقر قليلا والتحصن فى نيمرود ومسبيا وهما مدينتان محاطتان بالأســوار • وظل الفارسيون يهاجمونهم عن بعد ، ولكنهم كانوا يخشون الالتحام • واجتمع أكسينوفون والقواد واتفقوا جميعا على الاتجاه نحو الشمال عبر أراضى الكرد الى أرمينيــا •• ويصف أكسينوفون عرضهم العسكرى معلقـا بأنهم كانوا ممثلين بارعين يؤدون دور المحاربين الشجعان ، ومر الجنود اليونانيون بمغامرات قاسية وسط الجبال والثلوج الى أن وصلوا أخيرا سهول أرمينيا حيث نعموا الوقت بالراحة وأحاطوا بينابيع التيجريس • ثم مرت حياتهم بعد ذلك بمخاطر ظنوا معها أنهم هالكون لا محالة • وبعد أن فقدوا كل أمل فى الحياة ، بدأ يشدهم الى بعضهم البعض حب مفاجىء ونوبات من العطف غير المبررة ، الى أن لاحظوا هرجا فوق أحد التلال • وجرى أكسينوفون ــ فيما يروى عن نفسه ــ لاكتشاف ما يجرى هنــاك فرأى رجــلا يتبع رجلا آخر يندفعان صائحين ، وعندما اقترب منهما سمعهما يقولان : « البحر •• البحر » •

أصبح الاغريق الآن — بفضل أكسينوفون — على مقربة من مستعمراتهم • وفجأة — وقد أصبحت حياتهم فى مأمن وضمنوا العودة — يتقاتلون ويتقاذفون الشتائم فى نوبات غير مبررة أيضا !!

أصبحوا الآن عند تريبيزوند ومع ذلك فقد مر عام كامل قبل أن يستقر الجيش تماما • وكان عليهم أن يبحروا عبر البحر الأسود ومن ثم أمامهم مغامرات كثيرة • سار أكسينوفون أخيرا برا الى كيراسوس ، ثم أعاد استعراض الجنود وقد أصبح عددهم الآن ٨٦٠٠ جندى ، وعبروا وطن الموسونويكو الذين يعيشون فى أعشاش فى أعالى الأشجار ، وفكر أكسينوفون فى اقامة مستعمرة يونانية فى هذا المكان لكن الرأى قر فى النهاية على العودة • واختار الجند أكسينوفون قائدا لهم ، لكنه اقترح خيريسوفوس الاسبرطى بدلا منه لكى لا يقلل من أهمية الاسبرطيين • ثم سرعان ما مات خيريسوفوس بالحمى ، وآل الأمر الى أكسينوفون الذى حاول أن يصور الأمر وكأنه قد فرض عليه رغما عنه — ليعود بهم الى بلادهم •

★★★

وقد أثارت الأناباسيس جدلا كثيرا انصرف فى أغلبه الى تاريخ صياغته والى منهج أكسينوفون فى كتابة التاريخ • فمن قائل ان أكسينوفون قد كتب قصته عن تلك الحملة مستعينا بملاحظات كان يدونها أولا بأول أثناء الحملة ، ومن قائل انه بدأ صياغتها فى وقت كانت الأحداث لاتزال حية فى ذهنه ووجدانه • ويشهد بذلك مثلا الأسلوب البسيط الذى يحمل خصائص النتاج المبكر للكاتب • ومن الناحية الأخرى ، فان اقحام أكسينوفون لنفسه ولسيرته الذاتية — فى الكتاب الخامس أو الجزء الخامس — يشير الى أن تاريخ كتابته كان فى وقت متأخر يرجع الى سنة ٣٧٠ ق•م ، وعندما يشير أكسينوفون الى هذه الحملة فى جزء من « تاريخ بلاد اليونان » « الهللينيكا » الذى كتب حوالى سنة ٣٨٠ ق•م فانه يحيل قارئه — ان شاء مزيدا من التفاصيل — الى تاريخ حملة قورش الذى كتبه ثيميستوجنيس السيراكوزى ، وهذا يعنى أنه لم يكن قد دون بعد كتابه عن الحملة (الأناباسيس) حتى ذلك الوقت • ويفهم من هذا

كله أن اكسينوفون كان قد دون الأناباسيس عقب عودته من آســــــيا الصغرى مباشرة فى سنة ٣٩٤ ق٠م لكنه لم ينشرها حتى سنة ٣٧٠ ق٠م ، وربما أراد أكسينوفون أن يؤخر نشر عمله الى سن متأخرة تحرجا من الجزء الذى كتبه عن نفسه ٠

وقد كان لما كتبه أكسينوفون عن تلك الحملة أهمية قصوى ، فهو قد نقل صوراً حية وصادقة وجعل لليونانيين بهذه الصور مكانة فريدة ، فقد كشفت تلك الكتابة عن أروع القيم التى تحلى بها الجندى اليونانى من شجاعة وتحمل وتقوى وصبر وانسانية واستقلال وعقل ٠ هم جنود بحق وقت الشدة وهم أغارقة بحق حين يناقشـــــون ويصرون على أن تصـــل كلمتهم ، وعلى أن يقتنعوا أو يقنعوا ، وبـــأن يؤخذ برأيهـــم حين يكون صوابا ٠ حتى لقد أطلق على هذه المجموعة من الاغريق أسماء منها أنهم « ديمقراطية متحركة » ، « جمهورية متجولة » ، خلاصة من عظمة أثينا تقف شاهدا فى وسط آسيا ، وقد بلغ من اخلاص أكسينوفون فى نقل المعارك حية فى كتابه حدا جعل أحـــد الدارسين للعلوم العســـكرية يكتب : « ولا شك أن الجندى الذى أفادنا أعظم فائدة والذى سبق الاسكندر هو أكسينوفون ، وأنه هو الذى أطلع العالم كيف ينبغى أن يكون تكتيك الانسحاب ، وكيف يمكن قيادة المؤخرة ٠ والآن وبعد أن مر ثلاثة وعشرون قرنا فليس ثمة من نص حربى قديم غير الأناباسيس » !! ٠

ملحمة عنترة بن شداد
من الأدب الشعبي
٨٣٠ م

عنترة .. مثل بارز للفروسية العربية

تعد سيرة « عنترة » العربية الشعبية بحق من روائع الملاحم العالمية . فما من مصنف يحوى هذه الروائع يخلو من عرض موجز أو مفصل لهذه السيرة التى تؤكد حقيقة مبهمة ، وهى أن الشعوب تتبادل التأثر والتأثير على اختلاف الأجناس والأديان والألوان ، على الرغم من اختلاف العصور . والباحثون اذا تجاوزوا ما فى الملاحم الشعبية من وجوه التماثل ، فانهم يسجلون وبخاصة عن سيرة عنترة ، أنها كانت من الروائع التى احتفلت بها أوربا فى القرن الثامن عشر وربما قبل ذلك ، ثم أصبحت من الموضوعات الأساسية فى الدراسات الأدبية بصفة عامة وفى دراسات الأدب المقارن بصفة خاصـــة ابان القرن التاســع عشر . فما أكثر ما فيها من العناصر الثقافية والأساليب الفنية التى تحتاج الى تحقيق تاريخى وتحليل أدبى !. واذا كنا نلمس منذ البداية تشابها أو تطابقا بين بعض حلقات هذه السيرة وبين ملحمة السيد الاسبانية وأغنية الرولان الفرنسية ، فاننا لانستطيع أن نغفل اعجاب ناقد أدبى عظيم مثل « هيبوليت تين » بهـذه السيرة العربية ووضعه اياها بين الروائع الملحمية العالمية مثل سيجفريد ورولان والسيد ورستم وأوديسيوس وأخيل . كما أن الشاعر الفرنسى لامارتين كانت تأخذه النشوة ويستبد به الطرب كلما ذكر هذا البطـــل العربى عنترة أو اطلع على جانب من ملحمته الرائعة .

ولم يكن اختيار الشعب العربى لهذا البطل الجاهلى بلا سبب حيوى أملاه عليه موقفه من ذاتيته القومية العامة من ناحية ، ومن الشعوب الأخرى

التى تسللت الى موطنه وغلبته على مصالحه من ناحية أخرى ، ومن الواضح أن الشعب العربى انما اعتصم بموطنه الأصلى وهو الجزيرة العربية ، والتفت الى عصر نقاء الجنس وهو الجاهلية عندما أحس بوجدانه القومى ينبض دفاعا عن الحمى والنفس بعد انحسار موجة الفتوح الاسلامية واستئثار غير العرب من المماليك وأشباههم بمقدرات الحكم فى أجزاء من الوطن العربى وابان ذلك الصراع الدموى الطويل الذى عرف بالحرب الصليبية ٠٠٠ ومن أجل هذا كله اختار الشعب العربى مثالا بارزا للفروسية العربية الجاهلية وهو عنترة بن شداد العبسى الملقب بأبى الفوارس وهو الذى جمع بين الفتوة والتفوق فى الشعر وأسهم فى أيام العرب المشهورة ، كما كان من أصحاب المعلقات ٠

ولقد شغل الباحثون أنفسهم ولا يزالون بمحاولات الحكم على هذه السيرة الشعبية من ناحية النوع الأدبى ومن ناحية البناء الفنى ومن ناحية التاريخ ، وقلما عنوا بالباعث الأصيل الذى أثمرها ٠ وهى كغيرها من نصوص الأدب الشعبى تكاملت فى بيئات عربية مختلفة ، ولم تبلغ غايتها من الكمال الا بعد أن استنفدت الأجيال والقرون فى النماء والتطور والتراكم ، ولهذه الحقيقة دلالتها الكبيرة وهى : أن الوجدان القومى تشبث بالمثال الذى اختاره ورآه ملائما لما يريد أن يعبر عنه ، فلم يحتفظ به حقبة تقصر أو تطول ، ولم يجعله موضوع غنائه فى بيئة واحدة مهما كانت، وانما ظل يعبر بوساطته عن هذا الوجدان بأبعاده التاريخية ، وبما تصوره من أمجاد وبما أراد أن يرسب من معارفه وبما اعتصم به من قيم يفرض على أفراده جميعا التصعيد اليها فى السمت وفى الفكر وفى التعبير وفى السلوك جميعا ٠ ولا يرد اهتمام الشعب العربى بشخصية عنترة على هذا النحو الى رواة الأخبار كالأصمعى وأبى عبيدة وأمثالهما ، وانما يرد الى الفترة التى عاشها هذا الفارس العربى واشتهر بخلائقه ومواقفه ووقائعه حتى تجاوز ذكره منازل بنى عبس الى الجزيرة العربية أولا والى الوطن العربى الكبير ثانيا ٠٠ ولقد ذكر عنترة أيام النبى صلى الله عليه وسلم ولهجت به ألسنة بعض الصحابة وتردد اسمه فى صدر الاسلام وحمل الفرسان أخباره مع الفتوح ٠ وذكر الجاحظ أنه كان زاد العامة فى السمر ٠ ونمت

هذه الشخصية بنمو الوجدان القومى العربى ، حتى تكاملت صورة الملحمة وتخصص فى سردها فريق من القصاص الشعبيين ، وسجل العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية هذه الحقيقة ، كما سجلها ادوارد لين الذى وصف عادات المصريين المحدثين وأخلاقهم قبل الاحتلال الانجليزى للديار المصرية. وكانت سيرة عنترة الأخت الشقيقة لسيرة بنى هلال، وعرف المتخصصون فى الأولى بالعناترة والمتخصصون فى الثانية بالهلاليـــة ٠٠ ومن اليسير أن يتبين الدارس النواة الأصلية التى أصبحت على مر الأجيال والقرون سيرة شعبية كأنها الشجرة المورقة بجذورها وساقها وأغصانها وثمارها ٠

أبو الفوارس عنترة فى الجاهلية

وهناك سؤال على كل باحث أن يجيب عنـــه قبل أن يعرض النواة الأصلية التى تطورت حتى أصبحت سيرة شعبية ٠ وهذا السؤال هو : لماذا حفر عنترة بن شداد العبسى صورة شخصيته وأحداث ســـيرته فى ذاكرة الشعب العربى دهـرا طويلا ولم تحتفل هذه الذاكرة بأنداده من فرسان الجاهلية وفيهم من كان أعرق نسبا وأوفر مالا وأقوى شكيمة ؟ ويجيبنا على هذا السؤال د ٠ عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى فى كتابه عن سيرة عنترة :

لقـد ذكر الشعب العربى الزير ســالم فترة من الزمن ولهج بسيف ابن ذى يزن فترات ، ولم يكن لهما مع ذلك نفس المكانة التى لاتزال لعنترة فى وجدان الشعب العربى الى الآن ٠ وتكمن الاجـابة فى أن محور سيرة عنترة بن شداد العبسى يدور حول الحرية التى افتقدها المواطن العـربى عندما التفت الى الجزيرة فى مرحلة نقاء الجنس ٠ واذا أردنا أن نجمل سيرة هذا الفارس فى عبارة واحدة فاننا نستطيع أن نقول : انها كانت صراعا أراد به صاحبه أن يحقق وجوده كفرد حر فى مجتمع حر ، يضاف الى ذلك أنه كان شاعرا ، فالحديث فى سيرته واقع وتعبير معا ٠ ولم تكن فطنة الشعب لتغفل عن هذه الحقيقة التى يمكن أن تكون حافزا شخصيا لكل مواطن عربى ، وقوميا لكل مجتمع عربى ، ولذلك تجاوز عنترة عصره ودياره وظل حتى الآن بملحمته جزءا لا يتجزأ من التراث الشعبى الحى ٠

من هو عنترة ؟

هو عنترة بن شداد بن عمــرو وقيل ابن عمرو بن شداد بن معاوية ابن قراد العبسى من أهل نجد ينتهى نسبه الى مضر،ويكنى بأبى المغلس(١) لغاراته فى الغلس ، ويلقب بعنترة الفوارس لشجاعته وعنترة الفلحاء (٢) لانشقاق شفته السفلى • وأم عنترة حبشية سوداء يقال لها زبيبة ، سباها أبوه فى احدى غزواته فأولدها عنترة وكان لها أولاد عبيد من غير شداد فلم يعترف به أبوه فى أول الأمر بل أنكره جريا على عادة العرب ، لأنهم كانوا يستعبدون أولاد الاماء ولا يعترفون بهم الا اذا ظهرت عليهم النجابة •

اخلاقه وشــــجاعته

وكان أشــد أهل زمانه وأجرأهم فؤادا وأسخاهم يدا • وهو على شجاعته وشدة بطشه حليم لين الطباع سمح اذا لم يظلم ، وفى ذلك يقول:

أثنى على بمـــا علمت ، فاننى سـمح مخالقتى ، اذا لم أظـلم

وحدث عمر بن شبة قال : قال عمر بن الخطاب للحطيئة : « كيف كنتم فى حربكم ؟ » قال : « كنا ألف فارس حازم » قال : « وكيف ذلك ؟ » قال : « كان قيس بن زهير فينا وكان حازما فكنا لا نعصيه • وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل اذا حمل ونحجم اذا أحجم • وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأى فكنا نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك » • فقال عمر : « صدقت » •

وقال الهيثم بن عدى : قيل لعنترة : « أنت أشجع العرب وأشدها ؟ » قال : « لا » • قيـــل : « فبماذا شـــاع لك هذا فى الناس ؟ » قال : « كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزما وأحجـــم اذا رأيت الاحجـــام حزما ولا أدخل موضعا الا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمـد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثنى عليه فأقتله » •

ولعنترة كثير من الوقائع المشهورة ولكن أضيف اليه ما ليس له حتى اشتبه الصحيح بالموضوع • وقد حضر داحس والغبراء فأحسن فيها البلاء وحمدت مشاهده وفيها قتـل ضمضما المرى أبا حصـــين وهرم •

ولذلك قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر
للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما
والناذرين اذا لم ألقهما دمي
ان يفعلا فلقد تركت أباهما
جزر السباع (٣) وكل نسر قشعم (٤)

وأحب عنترة عبلة ابنة عمه مالك بن قراد ، فهاجت شاعريته واتسع خياله ، فنظم القصائد الطوال وازداد طموحا الى المعالي ، فجد في طلبها ليمحو ببيض فعاله سواد لونه . وأنى له أن يطمع فيها وهو عبد لم يعترف به أبوه وانكره أبناء عمه فغامر لاجلها ولاقى أشد الأهوال حتى ألحقه أبوه بنسبه ، ولكنه لم يظفر بها كما يستدل من شعره .

وقد اختلف في موته فقال ابن حبيب وابن الكلبي : « أغار عنترة على بني نبهان من طيىء فأطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير ، فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول :

حظ بني نبهان منها الأخبث كأنما أثارها بالخشحث
آثار ظلمان بقاع محدث

وكان وزر بن جابر النبهاني في فتوة فرماه وقال : « خذها وأنا ابن سلمى ! » فقطع مطاه (٥) فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح :

وان ابن سلمى عنده فاعلموا دمي
وهيهات ! لا يرجى ان سلمى ولا دمي
اذا ما تمشى بين أجبال طيىء
مكان الثريا ليس بالمتهضم
رماني ، ولم يدهش بازرق لهذم (٦)
عشية حلوا بين نعف ومخرم (٧)

وقال ابن الكلبى : «وكان الذى قتله يلقب بالأسد الرهيص» (٨) ٠

وذكر أبو عمرو الشيبانى : « انه غزا طيئــا مع قومه ، فانهزمت عبس ، فخر عنترة عن فرسه ، ولم يقدر لكبر سنه أن يعود فيركب ، فدخل دغلا (٩) وأبصره ربيئة طيىء فنزل اليه وهاب أن يأخذه أسيرا فرماه وقتله » ٠

وقال أبو عبيدة : « انه كان قد أسن واحتاج ، وعجز بكبر سنه عن الغــارات ٠ وكان له من غطفــان بعير ، فخرج يتقاضاه فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرج وناظره (١٠) فأصابته وقتلته » ٠ على أن الرواية الأولى أشهر الثلاث ٠ ومات عنترة بعد أن بلغ التسعين ٠

آثــار عنتــرة

ديوان شعر مشهور أصابه كثير من النحــل لطول ما تداوله الرواة والقصاصون ، وأكثره فى الفخر والحماسة وذكر الوقائع والغزل العفيف بابنة عمه،وقليل منه فى المدح والرثاء ٠ وأشهر شعره المعلقة وهى السادسة بين السبع الطوال ٠

عرفنا عنترة عبداً أسود أحب ابنة عمه فلم يستطع الوصول اليها وهو غير حر ينكره أبوه ، وعرفناه فارسا مغوارا جــرىء الفؤاد طماحا الى المعالى ، وعرفناه كريما جوادا وحليما سهل المخالقة ، وعفيفا شريف النفس أبيا لايغمض على قذى (١١) ، فلا غرو أن تظهــر جميع هذه الصفات فى شعره ويكون لها أثر كبير فيه ٠ ولاسيما أثر ذلك النضال العنيف الذى اشترك فيه من ناحية حبه وجده فى طلب المعالى ، ومن ناحيــــة أخـــرى عبوديته وسواد لونه ، فترك فى شعره مرارة وألما هما صورة لما فى نفسه من الم العبودية والحب ومرارة التعبير ، وترك فيه أيضا تلك الحماسة التى تتمثل بها شجاعته ونفسه الطموح ٠

بين العبودية والفروسية !!

نشأ عنترة أسود اللون أبوه شداد من سادات بنى عبس ، وأمه زبيبة أمة حبشية ، فلم يعترف شداد به جريا على عادة العرب ، فجعل عنترة فى

طبقة الرعيان يحلب ويصر . ولكن نفس هذا الفارس الشجاع لا تحتمل العبودية وفيها من الشمم والاباء والجرأة شيء كثير ، فكانت تتألم أشد الألم لما تلقى من الاحتقار والازدراء ، فتحاول جهدها أن تخرج من طبقة الرعيان فى اظهار شجاعتها ولديها سلاحان ماضيان : الشجاعة والشعر . وكلاهما كفيل بأن يجعل لصاحبه مكانة عالية فى القبيلة . فالفارس يدافع عنها بسيفه والشاعر يدافع عنها بلسانه . فلماذا لايتحرر عنترة وتدعيه بنو عبس وهى تحتاج اليه حاجة مزدوجة ؟ وقد قال صاحبنا الشعر فى صباه وشهد المعارك وهو لا يزال يحلب ويصر . ولكن أباه كان حريصا على التقاليد البدوية فأبى استلحاقه وتحريره ، ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من فصاحته واقدامه ، كما ضربه عندما حرشت زوجته سمية بينهما ولم يكن عنترة قد تحرر بعد .

وما كان عنترة يجهل قدر نفسه فينام على الضيم والخمول ، فقد كان يعلم حق العلم أن قومه سيحتاجون اليه اذا أغاروا أو أغير عليهم . فأخذ يلح على أبيه طالبا اليه أن يعترف به ، وأبوه يعرض عنه ، بينما هو صابر ينتظر يوما عصيبا تنكب فيه بنو عبس فيلتجئون اليه ، فيغتنم الفرصة لتحقيق أمانيه ، وليس هذا اليوم ببعيد الوقوع وغزوات العرب متواصلة طمعا فى الغنائم أو طلبا للماء والكلأ ، فما طال به الأمر حتى سنحت له الفرصة التى يتوقعها ، وقد اختلف الرواة فى ذكر خبرها فقال ابن الكلبى : « وكان ادعاء أبيه اياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا ابلا فتبعهم العبسيون . فلحقوهم فقاتلوا عما معهم . وعنترة يومئذ فيهم فقال له أبوه : كر يا عنترة . فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلاب والصر . فقال : كر وأنت حر . فكر وقاتل يومئذ قتالا حسنا فادعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه » .

وحكى غير ابن الكلبى أن السبب فى هذا أن عبسا أغاروا على طيء فأصابوا نعما ، فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة : لا نقسم لك نصيبا مثل أنصبائنا لأنك عبد . فلما طال بينهم الخطب كرت عليهم طيء فاعتزلهم عنترة وقال : دونكم القوم فانكم عددهم . واستنقذت طيء الابل . فقال له أبوه : كر يا عنترة ! فقال : أويحسن العبد الكر ؟ فقال له أبوه : العبد غيرك . فاعترف به فكر واستنقذ النعم .

ويذكر السيوطى رواية هى أقرب الى روح القصة منها الى التاريخ ، وان وافقت فى جوهـــرها الروايتين المتقدمتين ، وهى أن عنترة خلع نير العبودية بحد سيفه واحتياج بنى عبس اليه . ولم يقف عنترة عند هذا الحد بل أراد أن يحـــرر اخوته لأمه وهم عبيد مثله . وقيل انه حررهم أو حرر منهم أخاه حنبلا . ولكن لونه الأســـود بقى شاهدا على عبوديته واعتلال نسبه وبقيت أمه زبيبة أمة لا حرة ، أم ولد لا أم بنين ، ســـوداء لا بيضاء ، حبشية لا عربية ، حجة للناس على أنه هجين أخواله الزنوج . فمن أين له أن يمحو سواد لونه أو أن يجعل أمه من ربات الحجال ، ولونه لا ينصل وأمه لا تتحرر . والعرب لا يتسامحون فى النسب وكرم الأمومة والخؤولة ، فقد جعلوا له القابا تذكره أبدا بسواده وأمه . فهو الغراب ، وأسود بنى عبس ، وابن السوداء وابن زبيبة ، فما عليه الا أن يقبل هذه الألقاب ويدافع عن لونه وأمه ليخرس ألسنة المعيرين ، فكان له كفاح بسيفه وكفاح بلسانه فجاء شعره صورة ناطقة بهذا . مثال ذلك قوله :

وانـــا المجـــرب فى المواقف كلها ، مـــن آل عبس منصبى وفعـــــالى

منهـــم أبى حقا ، فهـــم لى والد ، والأم من حـــام ، فهـــم أخـــوالى

بين الحب والحرب

لم يكن عنترة ناعما فى حبه فتظهر آثار هذه النعمة على شـــــعره ، بل كان شقيا تعسا يطمع فى عبلة ، فيصده والدها ويحاول استرضاءه فلا يجد الى ذلك سبيلا ، فكان اذا تغزل تألم وشكا ، وليس فى غزله غير شـــكوى وآلام .

وقد أفاضت قصته فى أخبار حبه لعبلة ، وتذمم والدها أن يزفها اليه ، ولكن الرواة لم يعيروها جانبا كبيرا من عنايتهم ، وانما جعلوا همهم فى التحدث عن وقائعه وعبوديته وتحررها ، واذا ذكروا عبلة أتوا بها عرضا خلال هذه الروايات دون أن يشرحوا مأساته الغرامية التى تفصلها القصة

أبلغ تفصيل مع أن شعره الصحيح لا يخلو من الاشـــارة اليهـا • فهذه المعلقة ، وهى أثبت شعر له ، تدلنا على أن والد عبلة كان يتنكر له ويهرب بابنته الى ديار الأعداء ليبعدها عنه • فيشكو الشاعر الفارس عداوة قومها له ومشقة الوصول اليها •

فعبلة فى أرض الأعداء وقومها هم الذين ذهبوا بها اليهم • فاضطر عنترة الى مقاتلة الأعداء ومقاتلة أهلها معهم ، فأصبح طلبها عسيرا عليه • كيف يطلبها وهو يقتل قومها ؟ ان فى ذلك لطمعا منه فى غير مطمع •

على أن اليـــأس والحرمان لم يرافقـا عنترة طوال حيـاته ، فى القصة ، فقد رق له قلب عمه مالك فزوجه عبلة ، واشتفى قلبه الكليم ، أما التاريخ فلا يقطع بخبر الزواج ولا ينفيه •

منزلة عنترة

اتضحت لنا ميزة الشاعر الفارس ، بما فيها من ألم ومرارة ، وعرفنا طرائقه فى استرضاء عبلة ، وفى فخره وحماسته ووصف وقائعه ، والدفاع عن نسبة ، والرد على معيريه ، ولا ينبغى لنا أن نغفل عن تلك العذوبة التى نتذوقها فى شعره فانه رقيق على غير ضعف ، ســـهل العبـارة على غير اسفاف • ولا نعجب لوجود هذه الرقة فى شعر عبد أسود خشن العيش ، هائل المنظر ، بل يجب أن ننظر الى أخـلاقه الحسنة وتأثير الحب فيها ، فانما شعره صورة لنفسه • ولعنترة منزلة عاليـــة فى الشعر ، كما له منزلة عالية فى الفروسية •

تاريخ الملحمة

ونحن اذا حاولنا أن نؤرخ لهذه السيرة الشعبية ، فان علينا أن نتذكر حقيقـة بارزة لا يمكن اغفالها ، وهى استحالة تحـديد فترة مضبوطة استغرقتها قريحة أديب ما فى الجمع والتاليف ، ذلك لأن الآثار الشعبية تتسم بالحياة والمرونة معا •• تسقط منها حلقات وتضاف حلقات ويتعدل السياق ، وتختلف الوظائف وان ظلت المحاور الرئيسية على حالها لثبات

الحوافز الى وجود هذه الآثار وتفاعلها المستمر مع وجدان الشعب العربى ٠ وليس صحيحا أن يزعم دارس أن هذه السيرة وأشــباهها قد نجمت فى حدود سنوات بأعيانها ، وأنها من تأليف شخصية معـروفة بمقوماتهـا النفسية وخصائصها الأسلوبية ٠ والصحيح أنها كانت نواة ثم نمت على الأيام حتى تكاملت فاستقرت آخر الأمر على صورة ثابتة لا تكاد تتغير ، والصحيح أيضـا أنهـا ، حتى بعد مرحلة التكامل والثبات تتعرض لما تتعرض له النصوص الشعبية ، فتنفرط بعض حلقاتها ، وتتخذ أشكالا جديدة ، وقد تنمو خلية منها بمعزل عن أصولها ، وقد تتبدد كلها وتبقى ظواهر فى أمثال الشعب أو بعض تقاليده ٠

وهناك أخبـار تحاول أن تعلل السبب فى تأليف سيرة عنترة ، بل تحاول أن ترد هذه السيرة الى مؤلف بعينه ، وهذه الأخبار تزعم أن قصر الخلافة الفاطمية فى الديار المصرية تعرض لفضيحة تزرى من شـأنه بين العامة ، فطلب الى أديب معروف بأن يؤلف قصة مشوقة تلهى الشعب عن فضيحة القصر فكانت سـيرة عنترة ٠ ونحن قبل أن نناقش تلك الأخبار نرى من واجبنا أن نسجل أن الأدب الشعبى العربى بل كل أدب شعبى ، كثيرا ما يجنح الى خلق قصة تبرر أصلا من الأصول أو تلفق سببا من الأسباب ، وهو أسلوب شعبى يعمد الى تغطية الثغرات ، والايهام بمعرفة المجهول ، والميل الدائم الى التبرير لا بمنطق العقل ، ولا بتسجيل الواقع ولكن بأسلوب التخيل الفنى ٠

وقد نقل أحد مؤرخى الأدب العربى المحدثين أنه قد « نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخ يوسف بن اسماعيل ، كان يتصل بباب العزيز فى القاهرة فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز لهجت الناس بها فى المنازل والأسواق ، فساء العزيز ذلك وأشار الى الشيخ يوسف أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث ٠ وكان الشيخ يوسف واســع الرواية فى أخبار العرب كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبى عبيدة وعن هشام وجهينة اليمانى الملقب بجهينــة الأخبـار وعبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى (٧٤٠ ــ ٨٣١ م) وغيرهم فأخذ

يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس فأعجبوا بها واشتغلوا بها عما سواها. ومن تلطفه فى الحيلة أنه قسمها الى ٧٢ كتـابا والتزم فى آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند الموضـــع الذى يشـــتاق القـارىء الى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى الأول ، وهكذا الى نهاية القصة . وقد أثبت فى هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها. غير أنه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الأغلاط المكررة بتكرار النسخ » .

وهذا القول يعنى أنهـا من تأليف شخص واحد بذاته ، وأن بناءها الفنى الضخم تكامل فى اطار زمنى محدد وبحافز من خـــارج نفسية هذا المؤلف . وهو قول لا يحتاج الى كبير عناء فى نقده ، وان كان يدل على اعزاز العامة من العرب للبطل عنترة .

ومما يدخل فى باب الايهام الفنى ، تشبث السيرة نفسها ، بعد أن تكاملت ، بالانتساب الى واحد من أعاظم الرواة والاخباريين وهو الأصمعى. ولم تحفل السيرة بترجمة صـــحيحة لهذا الراوية الفحل . ولم تشغل مستمعيها أو قراءها بعد ذلك ببطاقة الحياة الانسانية ، ولكنها عمدت الى أسلوبها المقرر المعروف بالجنوح الى المبالغـــة فى الخيال ، فقد ذكرت أن الأصمعى من المعمرين ، وأنه عاش ما يقرب من سبعة قرون ، ولم يكن هذا التلفيق عبثا ، وانما كان فنيـا فى جملته وفى تفصيله للايهام بأن هذا الراوية عاصر أحداثا وأجيالا ، وأن ذاكرته كانت بمثابة التاريخ القومى للأمة العربية بأسرها . وحرصت السيرة على أن تذكر أنها انما نشأت فى العصر الذهبى للدولة الاسلامية ، أى فى عصر هارون الرشيد ، وفى بلاطه ، وذلك لكى تؤكد الحافز على تكاملهـا وهو الموازنة الضرورية بين واقع الأمة العربية المغلوبة على أمرها فى أوليات الحروب الصليبية وبين عصر البطولة الجاهلية وما ينطوى عليه من فضائل نقاء الجنس والعصر الذهبى الذى بلغته أمة العرب والاسلام أيام الرشيد ، عندما كانت هى الأمة المستكملة للتفوق الحضارى على غيرها من الأمم . فاذا أضفنا الى هذا كله التشبث بالمنهج الفنى نفسه ، تأكيدا لواقعية الأحداث بالقول بأنهـــا

روايات مباشرة من عنترة نفسه وعن حمزة ، وأبى طالب ، وحاتم الطائى ، وامرىء القيس ، وهانىء بن مسعود ، وحازم المكى ، وعمرو بن ود ، ودريد بن الصمة ، وعامر بن الطفيل ٠٠ فاننا نكاد نقطع بأن التشبث بالأصمعى وايراد أسماء هؤلاء الأعلام جميعا ، لا يدل على حقيقة تاريخية أو شبه تاريخية ، بقدر ما يدل على الايهام الفنى بواقعية الأحداث والشخوص ، وان خرجت عن المألوف والممكن والمعقول ٠

الملحمة الشعبية

سيرة عنترة بن شداد من أوائل السير الشعبية التى حفظها لنا التاريخ ٠ والقضية المجتمعية التى تعالجها هى قضية الشعوبية وموقف العرب من أبناء الأجناس الأخرى ٠ ونحن نعتبرها أضخم هذه الأعمال الشعبية لا من حيث حجمها ولا من حيث رصدها لقضية من أخطر القضايا التى شغلت المجتمع العربى وهى قضية الشعوبية وحسب ، ولكن من حيث مضمونها الانسانى العظيم ، اذ تعتبر بحق أول صرخة فنية يطلقها الضمير الانسانى فى عمل أدبى كبير ضد العبودية وضد التفرقة العنصرية ٠

وقصة عنترة بن شداد هى قصة عبد تحرر ، ترسم صراعه من أجل المساواة بينه وبين الآخرين فى الحقوق والواجبات ، وتعكس صراع بطلها العنيف من أجل التحرر من موقف المجتمع المتخلف منه بحكم كونه عبدا ابن أمة ورجلا أسود فى مجتمع البيض ٠ ونحن بفهمنا لسيرة عنترة هذا الفهم نقدم لك تلخيصا كاملا لهذا العمل الكبير الذى يقع فى ٣٥٥٤ صفحة تقريبا يحاول المؤلف فيها كلها منذ البداية — وحتى يضع كلمة الختام — أن يصنع مقياسا آخر يقيس به الناس بغير المولد واللون ، وهما المقياسان اللذان تحدد بهما المجتمعات مجال المفاضلة بين الناس ، اذ يتحدد مكان الفرد بنسبه وبأصله الجنسى ، الا أن كاتب هذه السيرة يحاول أن يحدد معنى الحرية ومعنى الأحرار كمفهوم مضاد للمفهوم المتوارث التقليدى للحرية والأحرار ٠٠ فالحرية عنده مسئولية والتزام خلقى أمام المجموع وأمام الفرد الحر نفسه ٠٠ وبهذا المفهوم تتبلور القضية وتتبلور شخصية البطل أيضا ٠

. يصور المؤلف بطله أسير ذل العبودية ، وأسير اللون الاسود برغم فضائله التى تؤهله لمركز الصدارة فى القبيلة ، فهو شجاع وهو فى نفس الوقت شاعر كبير يملك ناصية الفعل والقول جميعا • ويضع أمامه الصورة المضادة لشخصيات تنتسب الى القبيلة بحكم اللون والولادة معا • وهى لا تنتسب الى القبيلة فحسب ، وانما تنتسب الى أشرف بطونها ، كشخصية الربيع بن زيادة الذى يصر المؤلف دائما على نعته بصفة (الطنجير) ويرسمه بصورة ترسم معالم تخنثه وبعده عن مظاهر الرجولة الكاملة ولجوئه الى أساليب النســاء فى التــآمر على عنترة ، ويصور لنا المؤلف هذا التشويه فيجعله يضطر الى لبس ملابس النساء للهروب بحياته ذات مرة •

ثم يضع المؤلف الاثنين فى مجال التنافس فى حب عبلة ، ويخلق من المواقف الروائية ما يظهر الفضائل الكامنــــة فى شخصية عنترة العبد الأسود ، ويظهر المطاعن واضحة فى شخصية الربيع المدلل الثابت النسب العريق الحسب •

فالشرف اذن لاتكفى فيه الصدفة التى تجعل من انسان ما صاحب فضل بمجرد أنه ينحدر من صلب انسان ذى مكانة ومال ، وانما تفضل هذه الأحداث الروائية ، فيما تخلق فى مواقفها من مقارنات ، شرفا آخر يأتى عن طريق السمات المتكاملة التى تمثل الدليل الحقيقى على الجدارة بالانتساب الى معانى التفوق والسمو • والحر اذن مجموعة سمات تتوافر فى نفسه الانسانية ، وليس مجموعة علاقات تخلقها الصدفة وتكونها الظروف •

ودفاع المؤلف عن هذه القضية يجعله يضع المخالفين لعنترة دائما موضع الاختبار • وفى كل تجربة يفقــدون حريتهم ولا يحصلون عليها الا بسيف عنترة العبد الأسود فيصبحون بهذا عتقاء سيفه • وهم بحكم شرعة الحرب عبيد له ، وبهذا يثير مشكلة المسئولية ، فهذا الانسان يتحمل بحكم ميزاته وتفوقه وبحكم مشاركته الفعلية فى أحداث القبيلة مسئولية لا تقل عن مسئولية أى فرد من أفرادها الذين يتمتعون بحريتهم ، ولكنه فى نفس الوقت لا يتمتع بحقوق الأحرار التى يقصرونها على أنفســهم

فى تعصب وغباء · وليس غريبا اذن أن يرسم المؤلف طريقة حصول عنترة على حريته واعتراف القبيلة بصحة نسبه الى أبيه شداد ، فى اثارة روائية لهذه المشكلة بالذات ·· مشكلة المسئولية والحقوق ·

فبعد أكثر من مرة ينقذ فيها عنترة القبيلة ويقتل أعداءها وهم من أشهر فرسان الجزيرة ، يصر أبوه وتصر القبيلة على الزامه مكان العبيد ، ثم يتقدم عمارة أخو الربيع بن زياد صاحب المكانة الكبيرة فى القبيلة يريد أن يتزوج عبلة ، ومالك أبوها موافق على ذلك ، برغم كثرة الوعود التى أزجاها مضطرا الى عنترة فى أكثر من موقف أنقذ فيهـا حياته أو كرامته أو عرضه · وتحول عبودية عنترة دونه فى الوقوف أمام عمارة ، حتى يصل الأمر الى أن مالكا أبا عبلة يلطم عنترة حين يعترض طريق عمارة · وما ان يرى العبيد هذه البادرة من مالك حتى يهجموا على عنترة جميعا ليؤدبوه على تجرئه على سيده · ويصل الأمر الى مداه حين تتشابك القضية ويتدخل فيها شداد فيهين عبده الأسود عنترة ارضـاء لشيوخ القبيلة وسادتها ، ويحس عنترة أن هؤلاء القوم لايعرفون له فضلا فيستسلم للهزيمة ويخلع ثياب الفرسان ويعود الى رعى الأغنام متخليا عن مسئوليته تماما مادامت القبيلة قد رفضت الاعتراف بحقه·ويقول لأبيه شداد : «مولاى··افعل بى ما تريد واحكم على حكم الموالى على العبيد — والعبـد ما له غير مولاه ، ان أبعده أو أدناه · وأنا أشهد على نفسى أنى من اليوم فصاعدا قد امتثلت لأمرك ولا أقصر عن خدمتك ولا أفارق رعى الجمال وأكون على حفظ أموالك واعيا ، ولا أركب جوادا ولا أجرد حساما مع الأبطال ولا أنطق بالشعر أبدا ، ولو شربت كاسات الردى من الأنذال ·· » ·

وهذه الكلمات وثيقة استسلام واضحة تقدمها نفس حرة أمام صلابة المجموع وغبائه ، فليس من حق هذا المجموع أن يطلب من فرد من أفراده الدفاع عنه والمشاركة فى حمايته ، وهو ينكر عليه حقه الطبيعى فى التمتع بما يتمتع به باقى أفراد هذا المجتمع من حقوق، وانما يلجأ عنترة الى السلاح الوحيد الذى فى يده ، وهو الاحتجاج العملى باعلان العزلة عن هذه الحياة ورفض المشاركة فى تحمل أعبائها ·

ويمهد المؤلف بهذه الوقفة الى الوصول الى قمة من قمم عمله الروائى فى السيرة ، والى نقطة يتحول عندها مجرى الأحداث كلها ، حين تخرج القبيلة فى غزوة من غزواتها تاركة بعض فرسانها لحماية الحى ، فيهاجمه عدد كبير من الفرسان لا طاقة لهم بهم ولا يجدون لهم خلاصا منهم الا فى عنترة الذى يقف بعيــدا عن المعــركة بين العبيد حيث أرادوا له هــم أن يقف ، ويأبى عنترة أن يترك مكانه،فمن لا حقوق له لا مسئولية عليه،فاذا ما اشتد الأمر بهم اضطروا الى الخضوع الى شروطه • وعنترة لا يترك مكانه الا بعد أن يعلنوا تحرره ، والا بعد أن يعلنوا اعترافهم بصحة نسبه الى أبيه شداد، والا ــ أيضا ــ بعد أن يعترفوا بحقــه فى الزواج من ابنة عمه عبلة • فوسط الأزمة تجــد القبيلة نفسها مضــطرة الى اجابة عنترة الى كل شروطه • وهنا •• وهنا فقط ينزل عنترة الى الميدان فيحقق النصر لقبيلته التى أصبح عنده ما يبرر الدفاع عنها ويهزم أعداءها • وقد حصل على حريته وأكد نسبه لأبيه شــداد ، ومكانه فى صفوف الأحرار من أبناء القبيلة •

وهكذا يجيب المؤلف على السؤال الذى أثــاره اجابة تؤكد مفهومه للحرية وتؤكد حق كل مسئول عن أمن قبيلته ووجودها فى التمتع بكل حقوقه دون ما اعتبار لصدفة النسب أو قيد العبودية •

ولكن الاعتراف المرغم شىء وتأكيد هذا الاعتراف بحيث يصبح حقيقة واضحة فى حياة القبيلة وفى حياة الجزيرة أيضا شىء آخر • ويتمثل هذا فى العقبات التى تضعها القبيلة أمامه لتحول بينه وبين الزواج من عبلة ، كما يتمثل فى الغضاضة التى يعامله بها أشراف القبيلة ، وتصبح على عنترة مهمة شاقة هى اثبات جدارته كانسان بمنزلة الحر التى أصبح يتمتع بها ، كما أصبحت له عند المؤلف مهمة أخرى هى تأكيد السمات التى يراها جديرة بالانسان الحر •

ويلتقى عنترة فى سبيل تحقيق هذه الأهداف بأكثر من فارس عربى مشهور فيتفوق عليه فى مجال الصراع • كما يتلقى بأكثر من حدث حساس يكشف عن معدنه وطبيعة خلقه ، فاذا به مسارع الى انقاذ كل ملهوف• وتأسر

شهامته الناس كما يأسرهم سيفه ، حتى ليقع شاس بن زهير ملك عبس فى الأسر وينقذه منه • معـروف كريم سـبق أن فعله عنترة مع أسرة من بنى كندة • ونلمح « شاسا » يقول لنفسه : « هذه فعال عنترة معى ومع سـائر الناس وهو ابن أمة فكيف تفعـل أنت بضـده يا شـاس وأنت ابن حرة مكرمة» • وكما يثبت عنترة دالته على بنى عبس أجمعين ، فان المؤلف يحاول كذلك أن يثبت له هذه المكانة على جميع فرسان العرب المشهورين ليصبح فارس الجزيرة كلها ، ولتكتمل له هذه المكانة لابد له أن يصل الى مرتبة أصحاب المعلقات من شعراء الجزيرة المبرزين ، ويبدأ كفاح عنترة الشاعر محاولا أن يؤكد مكانته الشعرية كما أكد مكانتـــه فى مجـال الفروسية • ويدير المؤلف مقابلات بينه وبين أصحاب المعلقات حتى يوضح لنا الكفاح الشاق الذى يخوضه عنترة فى هذا الميدان أيضا ، فحين يلتقى عنترة بطرفة بن العبـد يقول : « يا أبـا الفوارس ما أنت الا قد كملت بالشجاعة • لكن بلغنى ، أنك رجل معلول النسب • ولولا ذلك كنا قبلناك وسمعنا ما قلته من شعرك وفى فصاحتنا أدخلناك » • فالمشكلة فى الشعر هى المشكلة نفسها التى واجهته من قبل فى علاقته بعبلة ، وهى مشكلة النسب ، وكما استطاع عنترة أن يثبت جدارته فى أن يكون عضـوا فى مجتمع القبيلة بسماته وصفاته لا بنسبه ومولده ، يعتمد أيضا هذه المرة على هذه السمات نفسها التى تعلن أمام المجتمع العربى الذى يجتمع فى مكة أمام الشيخ عبد المطلب ليقرر موقفه من عنترة وجدارته بأن يأخذ مكانه فى هذا المجتمع بل وفى الصدارة منه •

ويلتقى عنترة بأصـحاب المعلقـات جميعا فى مشهد روائى خلاب ، ويقفون حياله كما وقف طرفة بن العبد ، ولكنه يحكم السيف بينه وبينهم ، فيأسرهم جميعا ويقرون له بأولى فضائل العربى الحر وهى الشجاعة ، فاذا ما أطلقهم من أسرهم أقروا له بثانية فضائل العربى الحر وهى الشهامة، فاذا ما اجتاح معهم فى أمر الشعر وقرأ أمامهم قصيدته الكبرى أقروا له بالفضيلة الثالثة عند العرب وهى القول • ويجتمع أصحاب المعلقات عليه يمتحنونه فى معارف العرب ويعلنون جدارته فى أن يدخل معهم فى مجتمع الخالدين من أصحاب المعلقات •• يسجد الناس فى كل مكان فى الجزيرة لقصائدهم المعلقة فى الكعبة••• !!

وليس بعد أن يصل المؤلف ببطله الى مثل هذه المكانة ـ يمكن أن يثور السؤال عن المضمون فى هذا العمل الكبير ، فهو لا شك كما قلنا حكاية عبد تحرر ٠٠ حكاية تؤكد أن الانســـان حر بسماته وخصائصه وخصاله ، وأن حق الحياة ينبغى أن يمنح لكل جدير به دون ما نظـر لأى اعتبار آخر ٠ يؤكد هذا المضمون موقف عنترة من الفارس القبطى (مقرى الوحش) الذى يأسره فى احدى معاركه على حدود الشام ، فيصبح عتيق سيفه وهو مع هذا يعامله معاملة الأحرار ، ويعطيه سهم الأحرار فى الغنائم، بل يساوى بينه وبين نفسه فى المكانة برغم اختلاف الجنس واختلاف الدين واختلاف المكانة بين الفائز والمهزوم ٠ فاذا ما مات (مقرى الوحش) أفرد لابنه نصيبا كاملا مثله فى ذلك مثل أى فارس عربى الأصل من فرســان الجزيرة نفسها ، فعنترة حين يصبح الأمر رهن ارادته لايستطيع أن يقر شريعة العرب بل هو يغيرها بما يتلاءم لفهمه وايمانه بقضية الحرية ونفوره من معنى العبودية ٠ وهذه الظاهرة تتكرر بعد ذلك من عنترة فى علاقتـه بالنســاء اللائى يأسرهن ويحصل عليهن بسيفه ، فاذا هن عنده زوجات لا اماء ، واذا أولادهن عنده أحرار لاعبيد ، بل لقد استغل المؤلف شخصية زبيبة أم عنترة استغلالا روائيا رائعا فى التدليل على قضيته ، اذ يكتشف عنترة ـ بعد أن أصبح فارسا مهيبا فى الجزيرة ، وفى احدى غزواته لبلاد الحبشة ـ أن النجاشى خاله وأن أمه التى يعتبرها العرب أمة (عبدة) هى فى واقع الأمر أخت لملك الأحباش ٠ فكأنما يريد أن يؤكد أن العشوائية التى تخلق من بعض الناس عبيدا هى عشوائيـة عمياء لا منطق لها ولا شرعية لوجودها ، وأن هذا الموقف الذى يقفه العرب من ازدراء العبيد يقوم على أساس خاطىء ينتهك كرامات النــاس ويذل بشريتهم دون ما اعتبـار لحقوقهم الطبيعية بل والموروثة فى الحياة الحرة ٠

وتصبح ســيرة عنترة بهذا أكبر وثيقة أدبيـة واول صرخة فنيـة تدافع عن قضيتى الرق والتفرقة العنصرية وتضع حـلا لهما ، مطالبـة المجتمع الانسانى باتاحة الفرصة أمام الصالحين من أبنائه ليقدموا جهدهم للخير العام دون نظر الى لون أو الى عوامل مفتعلة ترفع بعض الناس وتذل

بعض النـاس • كما تؤكد للانســانية أنها لن تستطيع أن تشرك أبناءها في المسئولية الا اذا أشركتهم جميعا فى الحقوق •

وان كان المؤلف قد لجـأ فى علاجه لمشكلتى العبودية واللون الى نغمة القوة لا الى نغمة الضعف ، فما كان ذلك منـه الا اسـتجابة للواقع الاجتماعى الذى تدور فيه أحداث عمله الروائى ، وذلك هو الجزيرة العربية التى يعرف أهلها منطق القوة ، الذى تعود أن يكسب قضاياه بالقصـد والجهد لا بالمطالبة واستثارة العطف •

فلسفة جحا

من التراث الشعبي

ع ٩٠٠ م

الفاكهة ثمرة الأرض ، كما أن الفكاهة ثمرة العقل .. وقد اتخذت كل أمة من الأمم فى كل عصر ومصر شخصا من الشخوص الجحوية الباسمة ، رمزا لفكاهاتها تسند اليه كل طريف من فنون دعابتها ، فكثرت الشخوص « الجحوية » لذلك وتعددت ، فلم يكد يخلو منها زمان ولا مكان .

وقد طوع القصاصون كثيرا من الطرائف الجحوية وفصلوا منها أنماطا فكرية البسوها عرائس أفكارهم وأودعوها نفائس توجيهاتهم وآرائهم . فلم تلبث — على مر الأزمان واختلاف الأمم — أن تشكلت بألوان العصور والأمم التى قبستها ، كما يتشكل الماء بلون الاناء الذى يستودعه .

وأصبح الرمز الجحوى — على توالى العصور — أشبه بالرمز الجبرى يختلف مدلوله فى كل مناسبة عما سبقها .

ولو خلا العالم من أمثال هذه المفارقات لأصبح جحيما لا يطاق ، وطالما استعان بها أعلام الفكاهة من المصلحين والقادة فى كسب قضاياهم . وربما أغنت النكتة العابرة الملهمة ينطق بها الفكه الموهوب عن المقالات المستفيضة .

وطالما تناول الموهوب الفكه بدعابته الباسمة أدق الخفايا فأربى على الغاية .

وفى تاريخ الأدب شخصيات كثيرة جرت بها ألسنة الرواة وأقلام القصاصين وصورتها فى غير صورتها الحقيقية . ويقال فى مثل ذلك عن « جحا » الذى تروى عنه النوادر الكثيرة وتشاع حوله الحكايات والأسمار

منذ القدم حتى أيامنا التى نعيشها • ولم تعد لغة من اللغات الحية الا وتضم هذه الأسمار وتلك الحكايات •

وها هـــو جحا شيخ الفكاهة الشرقية الســاحرة ورمز الدعابة الفلسفية الساخرة والجادة فى الوقت نفسه ، وصاحب النكتة اللاذعة ، واليه تنسب حكايات طريفة عن العفاريت والجن وتروى الملح الغريبة التى يطرب لها الصغار والكبار على السواء • هذه الشخصية الفريدة •• نجدها فى كل زمان ومكان ، فى القرية النائية أو المدينة العامرة ، مع الفلاح فى حقله ، والحاكم الظالم فى مجلسه ، والمظلوم المقهور فى موضعه ، مع القضاة على منصات العدل ، ومع اللصوص فى أوكارهم ، مع البلهاء والحمقى ، مع البنين والبنات ، مع الأدباء والعلماء • نجده فى حدث طريف ، وفى مفارقة مضــحكة ، هذه الشخصية الفنية المعقدة المتعددة الملامح والســمات ، والمتناقضة فى الآراء والمواقف من هو صاحبها ؟ •

انه شخصية حقيقية ذات واقع تاريخى ، كمــا يقول الكاتب كامل الكيلانى فى المخطوط الذى عثر عليه ونشر فى مجلة الهلال حيث يقول :

« فى البدء ومنذ خمسة عشر قرنا ولد « خرافة » فيما يقول عارفوه طرافا وصافا ، بارع المقال رائع الخيال ، يروى للناس عجائب من أخبار العفاريت والجن وطرائفهم وملحهــم ويقص عليهم من ذلك غرائب معجبة • يزعم لمعاصريه أنها حدثت له ، وأعجب بأحاديثه كل من سمعها • واشتدت فتنتهم بها حتى نسبوا اليها كل طريف من الحديث تخطف الأســـــماع غرابته وتبهج النفوس براعته ، وأصبح اســـم « خــرافة » مرادفا لكل حديث خيالى جذاب لا حقيقة له • ثم مضى القرن الأول ومضى معه « خرافة » ثم جاء القرن الثانى ومعه هدية من أنفس الهدايا الفنية التى يعتز بها عالم الفكاهة والمرح ، فكان شيخ السخرية العربيـــة وامام الفكاهة الشرقيـــة « أبو الغصن دجين بن ثابت » الملقب « بجحا الفزارى » • وقد لقى «جحا» من التقدير والاعجاب فى القــرن الثــانى من الهجــرة مثل ما لقى سابقه « خرافة » من قبل ، ولم يقل شــأنه عن ســابقه تقــديرا واعجابا ونباهة

ذكر ، وبعد صيت ، وأعجب الناس بأسلوبه السهل الممتنع في فهم الحياة، كما أعجبوا بما سمعوا به من طرائف وملح ، ومن شـــدة اعجابهـم به خلعوا لقبه ـ كما خلعوا لقب سابقه (خرافة) من قبل ـ على كل عجيب من القول وطريف من الحديث .

وأصبح للقصص الجحوى خصائصـــه وميزاته ، كمـــا أصـــبح للقصص الخرافي (نسبة الى خرافة) من قبله بدائعه وخيالاته .. وأضاف بعض الناس الى طرائفـه الكثير من مخترعاتهـــم وفنون ابداعاتهــــم ـ كما صنعوا بألف ليلة ـ حتى تعذر التمييز بين الأصول الجحوية ومحاكاتها المروية ، ولا سيما بعد أن اختلطت بفكاهات « أشعب » و « أبي دلامة » و « البهلول » ومن اليهم من أعلام الفكاهة العربية .

جحا العربى .. وجحا التركى

ويقول د . محمد رجب النجار في كتابه (جحا العربي) :

« في ضوء غلبة الرمز الفني للنموذج الجحوى في الأدب العربي ، غاب عن بال الكثيرين أن جحا العربي شخصية ذات واقع تاريخي وأن نسبه ينتهى به الى قبيلة فزارة العربية .. اذ ولد في العقد السادس من القرن الأول الهجري وقضى الشطر الأكبر من حياته في الكوفة..بذلك تخبرنا كتب التراث العربي وبخاصة كتب الأدب والأخبار والتراجم والسير .. وقد أشارت الى اسمه وما يشتهر به من نوادر وحكايات هو صاحبها .. وعلى الرغم من اضطراب أخباره أحيـــانا في تلك المصادر ، فانها تجمع في النهاية على وجوده « التاريخي » بسمته وملامحه المعروفة بيننا .

وعنايتنا بالواقع التاريخي لجحا أو بالأحرى للنموذج الجحوى ، قد لا تجد من يؤيدها من دارسي الفولكلور الذين يحتفون عادة بالرمز الفني ودلالاته ووظائفه الحيوية أكثر من احتفالهم بالواقع التاريخي للشخصية ، ما دامت قد تحولت الى نموذج فني ورمز قومي يحمل في أعطافه جانبا من جوانب التعبير عن الجماعة . وقد اتخذ أسلوبا مميزا في الابداع الأدبي الشعبي هو أســـلوب الحكاية المرحة .. التي عرفت في كتب التراث باســـم

« النوادر » • غير أن عنايتنا هنا بالواقع التاريخي جاءت لأكثر من سبب ، فالوقوف عند تاريخ هذه الشخصية — ما دامت حقيقية — يشكل حلقة من حلقات تطورها الى نموذج فني قومي، ويحسم في الوقت نفسه ذلك الخلط أو الاضطراب الذي يلحق بالنموذج الجحوي وأصالته في تراثنا العربي عامة ، ومأثوراتنا الشعبية خاصة •• وما يترتب على ذلك من نتائج تساعدنا في تحليل البواعث التي أدت الى نمو هذه الشخصية وتطورها الى رمز فني ، ولسوف نرى عند التناول التاريخي بعض الحقائق الأدبية والفنية التي اقترنت بهذا النموذج وصارت معلما مشتركا بين النموذج العربي وبين النماذج الجحوية اللاحقة •• وبخاصة النموذجان التركي والمصري • فضلا عن أن هذا التناول سوف يتيح لنا — الى حد ما — امكان تتبع النوادر المنسوبة الى النموذج الجحوي بعامة ودراستها ومعرفة أصولها ، ومن ثم مقارنتها والوقوف على مدى ما أصابها من حذف أو تغيير أو اضافة ، في ضوء المزاج القومي الذي أبدعها، ورددها تراثا شفويا أو مدونا لأجيال متعاقبة وقرون متطاولة » •

ومما هو جدير بالذكر أن « ابن النديم » المتوفى سنة ٣٨٥ هـ / ٩٨٧م صاحب الفهرست (الذي انتهى من تاليفه سنة ٣٧٧ هـ) يذكر لنا كتابا قائما بذاته اسمه « كتاب نوادر جحا » وقد وضعه في أول قائمة كتب النوادر ضمن « أسماء قوم من المغفلين ألف في نوادرهم الكتب ولا يعلم مؤلفها » • واذا كان ابن النديم قد صنف نوادره ضمن نوادر الحمقى والمغفلين ، فالذي يعنينا هنا أن نوادر جحا العربي قد باتت في القرن الرابع الهجري من الشهرة والذيوع بحيث وجدت من يحفل بجمعها وتدوينها وتصنيفها • ويأتي ابن النديم نفسه ليضع هذا الكتاب في صدر قائمة كتب النوادر التي أشار اليها ، مما يؤكد مدى شيوعها وذيوعها آنذاك •

ويرى أحد الدارسين المعاصرين أن هذا الكتاب ربما كان عونا للآبي (المتوفى سنة ٤٢٢ هـ) صاحب نثر الدرر ، وللميداني (المتوفى سنة ٥١٨ هـ) صاحب مجمع الأمثال ، مستدلا على ذلك من وجود تشابه بين

كتابيهما فى انتخاب بعض النوادر ، مما يدل فى نظره على أن الآبى والميدانى قد استقيا مادتهما عن جحا من مصدر واحد .. غير أن هذا الاحتمال ضئيل ما دام المصدر الأصلى مفقودا . ولعل أقرب الاحتمالات لتفسير ذلك التشابه ، أن الميدانى نفسه ربما كان قد استقى مادته من نثر الدرر للآبى ، ثم أضاف اليها ما سمعه فى عصره من نوادر وأمثال كان جحا العربى بطلها .

وقبل أن نمضى فى ترجمتنا لجحا العربى ، فانه من الأهمية بمكان أن نشير بادىء ذى بدء الى أصالة النموذج الجحوى العربى وأصالة نوادره فى ضوء ما ذكرته كتب التراث حتى القرن السادس الهجرى ، ومن ثم تتأكد أسبقيته — تاريخيا — على نظيره جحا الأتراك المعروف بنصر الدين خوجه الذى لم يكن قد ظهر الى الوجود بعد ، وبذلك تكون مصادر التراث العربى قد حسمت نهائيا ذلك الخلط أو الاضطراب بين شخصيتين ، وهو خلط قد وصل بنا الى حد انكار وجود شخصية جحا العربى أو اعتبارها — فى أحسن الأحوال — شخصية خرافية أو وهمية لا أصل لها ، وهو أمر مجاف للحقيقة والواقع معا .

عندما يشرع باحث فى الترجمة لحياة جحا العرب — وغايته تأصيل تلك الشخصية من الناحية التاريخية — فسوف يجد نفسه ملزما بأن يتخذ منهجا مغايرا — نوعا ما — لما ألفناه فى التراجم ، ومن ثم فسوف نسمح لأنفسنا بأن نترجم لجحا ترجمة تتبع التسلسل الزمانى للمصادر نفسها التى استقينا منها مادة البحث العلمية ، وغايتنا من وراء ذلك أن نتتبع التسلسل التاريخى — قبل الموضوعى أحيانا — لنمو هذه الشخصية وتطورها فى وجدان الأمة العربية ، فضلا عن نموها وتطورها تاريخيا وفنيا على السواء .

وفى ضوء ما ذكرت تلك المصادر ، فان أول خيط بين أيدينا يمكن أن نأخذ به هو ما أورده الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) فى كتابه « القول فى البغال » من نادرة بطلها جحا دون أن يترجم له ، مما يدل على أن جحا كان معروفا فى أوائل القرن الثالث الهجرى . ومن ثم لم يكن

الجاحظ فى حاجة للترجمة له بالرغم من أن اسم جحا لم يتردد بعد ذلك فيما بين أيدينا من كتب الجاحظ ، أو لعله ترجم له فى بعض ما ضاع من كتبه · جدير بالذكر أن شارل بلا — عند تحقيقه لهذا الكتاب — كاد يشك فى نسبة الكتاب الى الجاحظ بسبب تلك النادرة التى حاول أن يعزوها أول الأمر الى النساخ ، لكنه عاد فرجح وجود جحا العرب اعتمادا على رواية ابن النديم التى سبقت الاشارة اليها ·

واذا ما تجاوزنا اشارة ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، فان الخيط التالى الذى نمسك به يتمثل فى اشارة الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ فى قاموسه « الصحاح » ، عندما ذكر « أن أبا الغصن كنيته جحا » ، وكانت تلك الاشارة أول وأقدم خيط تحت يدنا يشير الى كنيته · بالرغم من أن محقق الصحاح ينفى — توهما — وجود علاقة بين جحا صاحب النوادر وبين جحا صاحب الكنية التى ذكرها الجوهرى ·· وهو نفى لا سند له كما سيتضح بعد ذلك · وما نكاد نمضى قدما حتى نستطيع أن نلتقط خيطا آخر ورد فى مخطوط « نثر الدرر فى المحاضرات » للآبى المتوفى سنة ٤٢٢ هـ حيث يذكر أن الجاحظ حكى أن اسمه نوح ، وكنيته أبو الغصن ، وأنه أربى على المائة · وفيه يقول عمر ابن أبى ربيعة :

دلهت عقلى ، وتلعبت بى حتى كأنى من جنونى جحا

ثم أدرك — جحا — أبا جعفر ونزل الكوفة · ويروى الآبى بعد ذلك مجموعة من النوادر التى نسبت اليه · جدير بالذكر أن الآبى قد صنفها بين نوادر الحمقى والمغفلين ، وهذا يعنى فى رأيه أن جحا كان واحدا من الحمقى ·· غير أن الذى يعنينا فى ضوء هذا المخطوط ، هو المعلومة التاريخية التى تجعلنا نرجح أن جحا ولد فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى ، ما دام قد أربى على المائة وأدرك أبا جعفر المنصور ، وهذا يعنى ، من ناحية أخرى ، أنه عاش فى أواخر الدولة الأموية ثم أدرك سقوطها اثر الصراع العسكرى (الدموى) الذى نشب بين الأمويين والعباسيين ، وأنه نزل الكوفة أيام أبى جعفر · كما

يعنينا أيضا من رواية الآبى ، تلك الصفة التى اشتهر بها جحا فى رأى معاصريه وجاءت على لسان عمر بن أبى ربيعة عندما ضرب به المثل فى الجنون وأن الآخرين يتلعبون أو يتلاعبون معه .. على اعتبار أن الجنون هنا لايعنى زوال العقل بل فساد التفكير ـ كالحمق تماما ـ وهذا ما يؤكده الآبى نفسه .

ويقول د . محمد رجب النجار : ودلالة تلك الصفة هنا تأتى على غاية الأهمية اذ ان الجنون أو الحمق يعنى سقوط التكليف عن صاحبه وبخاصة التكليف الاجتماعى الذى يثقل كاهلنا دائما . ومن المعروف أن سقوط التكليف اذا شاع عن شخص ما يجعل من أقواله ـ مهما كانت صريحة أو جارحة أو حادة ـ مادة ثرة لاتنفد للفكاهة والسخرية دون أن تعرضه للعقاب المادى أو حتى للجزاء الاجتماعى ، وحينئذ يكون بمقدوره أن يقول ما يشاء دون خوف أو تردد . وتلك السمة تشكل واحدة من أهم سمات الشخصية الجحوية من الناحيتين التاريخية والفنية على السواء . وما دام الآبى قد ترجم لجحا فى حديثه عن حمقى العرب ومغفليهم من المعاصرين لجحا (وما أكثرهم فى تلك الفترة ، الأمر الذى يستحق دراسة قائمة بذاتها عن تلك الظاهرة فى كتب التراث وبيان دلالاتها) ، فذلك يعنى أن العرب قد وسموا جحاهم بالحمق ، وأن شهرته طارت فى الآفاق ابان حياته ، حتى ليضرب به المثل فى الحمق .. وراح بعضهم يسخر منه أو يستهزىء بأقواله كما جاء فى بيت ابن أبى ربيعة ، وكما جاء فيما انتخب له الآبى نفسه من نوادر بلغت خمسا وأربعين نادرة . غير أنه فى ضوء هذه النوادر نفسها نستطيع أن نضيف ملمحين آخرين من ملامحه ، أحدهما أن جحا ليس أحمق أو أبله كما وسمه الآبى .. بل انه متحامق متباله كذلك ، وشتان ما بين الصفتين ، فاذا كانت الأولى تشير الى غباء صاحبها فان الأخرى تؤكد ذكاءه . أما الملمح الآخر فيتمثل فى استدعاء الخلفاء والقواد له للتسلية والترفيه من خلال التندر عليه ، الأمر الذى يزيد فى شهرته فى نظر المجتمع الشعبى على الأقل .

ولو استقرأنا الآن بعض الملامح والقسمات الخاصة بشخصية جحا العربى من خلال نوادره لا أخباره ـ وبخاصة تلك النوادر التى أثرت

عنه ونسبت اليه فى حيـــاته وكان صاحبهـــا وبطلها فلم تنسب لغيره كما ذكر الأقدمون – لما خرجنا بغير الملامح والقسمات التى أكدتها أخباره (التاريخية) نفسها • ومن ثم سوف نجد أنفسنا فى خلاف مع هؤلاء الأقدمين ، الذين ترجموا لجحا وصنفوا نوادره بين نوادر الحمقى والمغفلين ، وكان عليهم أن يترجموا له وأن يصنفوا لنوادره بين الأذكياء •• ذلك أن المتأمل لهذه النوادر التى انفردت نسبتها الى جحا فى حياته تؤكد أنه كان ذكيا لماحا حاضر الجواب سريع البديهة حاد البصيرة ثاقب النظر وان تظاهر بغير ذلك لأسباب بعينها – الأمر الذى أكده أحد الباحثين المعاصرين هو كامل كيلانى الذى عثر – فيما يقول – على مخطوط قديم كتبه أبو السهلل طارق بن بهلل بن ثابت بن أخى جحا (الذى كان معنيا بتسجيل أحاديث عمه جحا وملحه وطرائفه) ، وأن هذا المخطوط يشرح لنـــا الأسباب التى أدت بجحا الى اتخاذ أسلوبه الخاص فى التغابى والتحامق •

يذكر كامل الكيلانى فى مقدمة المخطوط الذى عثر عليه ، ونشرها فى مجلة الهلال ، الطريقة التى تم عليها اللقاء المشهور بين جحا وأبى مسلم الخراسانى – كما رواها أبو السهلل :

« وقد ولد « جحا العربى » أبو الغصن دجين بن ثابت بالكوفة ، وعاصر الباطش الجرىء أبا مسلم الخراسانى ، وقد نمى خبره اليه ، فاستدعاه ، واستطرفه وجازت عليـــه حيلتـــه ، فحسبه أبله أو مخبولا ، وما هو فى الحقيقة بأبله ولا مخبول ، ولكنه ساحر بارع يلعب بالعقول » •

وقد سجل « أبو الغصن » هذا اللقاء فى ذكرياته التى حفظها لنا ابن أخيه طارق بن بهلل • قال :

« لقد نمت بعض أخبارى الى أبى مسلم الخراسانى القائد الجبار الذى هزم الدولة الأموية وزلزل كيانها ، وأقام الدولة العباســـية وثبت دعائمها مكانها ، وشيد بناءها ، فامتلأت نفسى منه رعبا وفزعا أول الأمر ، ثم جريت على مألوف عادتى فى الاستهانة بما لا حيلة لى فى دفعه من الأخطار

ومقابلته بالابتسام . ولم أعلم لاستدعائه اياى سببا . فلما بلغت مكانه علمت أن صديقى « يقطين » قد سمع « أبا مسلم » يذكرنى بالخير فى أحد مجالسه ويتنادر بما أذاعه بعض الأغبياء عنى من ضروب الغفلة .

فلم يكد يتبين شوقه الى لقائى حتى أفضى اليه بمكانى . فأمر أبو مسلم باستدعائى اليه . فاعتصمت بالحذر وتظاهرت بالبله . ولم أكد أرى صاحبى « يقطين » مع أبى مسلم وليس معهما ثالث حتى التفت اليه متبالها وسألته متغابيا : « أيكما أبو مسلم يا يقطين ؟ » فانخدع فى أمرى أبو مسلم على وفرة ذكائه وفطنته ، واستغرق فى الضحك من بلاهتى . وهكذا ضمنت الفوز فى البعد عنه والنجاة من صحبته » .

« وقد ذاع صيت أبى الغصن ونبـــه ذكره فى أوائل القرن الثانى من الهجرة وأعجب الناس بما سمعوا به من طرائفــه وملحه ، ثم دفعهم اعجابهم به الى أن خلعوا لقبه على كل دعابة مستملحة ، ثم أضـــافوا اليه على مر الزمن جمهرة كبيرة من طرائف غيره من المبدعين ، فاختلطت بفكاهاته وتعذر التمييز بين الأصل والتقليد .

ولم يلبث جحا أن أصبح علما على فن من فنـون الفكاهة الشرقية ، بعد أن كان علما على شخص بعينه من أفذاذ الناس » .

فاذا ما تركنا هذا النص الذى نشره الأستاذ كيلانى وذهبنا نستشف حقيقة « النموذج الجحوى العربى » وأســلوبه فى الحياة من خلال نوادره ، ما خرجنا بغير النتيجة القائلة بأن أبا الغصن دجين بن ثابت المعروف بجحا الفزارى كان من أذكى رجال عصره على غير ما أذاع عنه اهل عصره ، الذين صنفوا نوادره مع أخبار الحمقى والمغفلين .. وندلل على هذا بالنوادر التى وجدناها له فى أقدم مخطوط لدينا ، وهو نثر الدرر للآبى ، وسنأخذ هذه النوادر بترتيب الآبى نفسه وروايته .

ويستخلص د . محمد رجب النجار من نوادر جحا العربى النتائج الآتيـــة :

ـ أن جحا العـرب ـ من نوادره وبشهادة بعض معاصريه ـ به ذكاء وفطنة ودهـــاء ٠٠

ـ أنه اتخذ من الغباء أو التغابى ـ الحمق أو التحامق ـ أسلوبا له فى الحياة مكيفا نفسه بذلك مع ظروف عصره ٠٠ ومعاصريه ، فيما لا حيلة له فى دفعه من الأخطار ٠

ـ أن جحا كان ذا حس فكاهى مشهود ٠٠ مؤمنـا بفلسفة الضحك ودوره فى التغلب على صـــعاب الحياة ، موهوبا يجيد قول الفكاهة بـكل الوانها المختلفة ، قادرا على السخرية حتى من نفسه ٠٠ وأنه حاضر البديهة سريع الخاطر ، حسن التخلص من المآزق ٠

ـ أن جحا قادر على أن يقلب المأساة الى ملهاة ـ فى قمة من قمم فن السخرية ، كما فى هذه النادرة التى ذكرها الآبى حين « نظر جحا الى رجل مقيد وهو مغتم ، فقال له غمك يا رجل ؟ اذا نزع القيد عنك فثمنه قايم ، ولبســــه ربــح » ٠

ونصر الدين خوجة أو الخوجة نصر الدين ، هو البطل الأشهر لقصص الذكاء والغباء عند الأتراك دون منازع ٠ واليه تنسب نوادرهم وحكاياتهم المرحة ، وتكسب بهذا الانتساب أهميتها البالغـــة لديهم ٠ ومن ثم فهم يرددون الكثير من نوادره وحكاياته ـ ليس من بـاب التفكه أو التنـدر فحسب ـ بل يستعينون بها ـ موقفا وسلوكا ـ فى التعبير عن حياتهـــم العملية وما تنطوى عليه تلك الحياة من ضروب المعاناة اليومية ، يقتدون بها فى سلوكهم ويتمثلونها فى الكثير من مواقفهـــم كما تقول دائـرة المعارف الاسلامية التى نراها تذكر عددا من الآراء المتضـاربة والمتناقضـة حول هذه الشخصية ـ من الناحية التاريخية ـ كذا التضارب والتناقض الذى لمسناه فى التاريخ لجحا الفزارى العربى ٠٠ فهو ، أى « نصر الدين خوجة »، فى أحد الأحاديث رجل متعلم عاقل فى زمن الرشيد ، بينما هو فى حديث آخر ، معاصر لخوارزم شـــاه علاء الدين طاليش (الذى حكم فى المدة ١١٧٢ ـ ١٢٠٠ م) ٠

وتجمل دائرة المعارف الاسلامية الآراء التى توصل اليها الدارسون ـ ولا سيما المستشرقون فى تأريخهم لهذه الشخصية واعتقادهم بوجـودها ، وان اختلفوا فى زمانهـا ومكانهـا • ويمكن أن نقسـم تلك الآراء الى مجموعتين •

المجموعة الأولى ـ تضعه فى القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلاديين (أى زمن بيازيد الأول وتيمور وقرمنيد الثانى علاء الدين) •

بينما تضـعه المجموعة الأخـرى فى القـرن الثالث عشر (فى زمن سلجوق علاء الدين) •

ويبدو أن الرأى الأول قد استمد أدلتـه مما جاء فى قصص رحلات أوليا شلبى ، حيث ذكر على سبيل المثال قصة ذلك اللقاء بين تيمور وبين الخوجة فى الحمامات ، حينما أعلن الخوجة عن اسـتعداده لشراء قميص تيمورلنك فى مقابل أربعين فدانا ـ هى قيمة القميص فقط ـ أما تيمـور نفسه فلا يسـاوى شـيئا • ويقول د • محمـد رجب النجـار : « اننا نشارك كاتب مادة نصر الدين الشك فى حدوث هذه النادرة لاستحالة التلفظ بمثل هذا القول فى حضرة تيمور الا اذا تقبلهـا من باب التفكه اعجابا منه بشخصية نصر الدين، وعلى كل حال فقد أتاح كانتيمر وديزوفون هامر وغيرهم لقصـة أوليـا شـلبى أن تنتشر وتستمر فى أوروبـا الى أن اعترف محمـد توفيق ـ كاتب تركى ـ بهذه القصـة فى كتـاباته سنة ١٨٨٣ م عن فكاهات نصر الدين فى كتابه «بر أدم» أى «هذا الرجل» ويعنى به نصر الدين خوجة ، وهى الفكاهات التى ترجمت فيما بعد الى الألمانية سنة ١٨٩٠ م ، حيث تجددت فى هذه القصة الحياة وأصبحت منذ ذلك الوقت الرأى السائد فى أوروبا •

أما المجموعة الثانيـة ، فترى أن نصر الدين قد عاش فى القـرن الثالث عشر ، وتعتمد فى رأيها على الأدلة التالية :

أولا : القصـيدة التى أوردها الشـاعر لمعى (المتوفى حوالى سـنة ١٥٣٣ م) فى ديـوان اللطائف والتى أكد فيهـا أن نصر الدين كان معاصرا لشاهيادجهزة الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى •

ثانيا : فى المخطوطات القديمة جاء ذكر الخوجة مقرونا بالسلطان علاء الدين مما جعل قوبريلى زاده ـ أستاذ الأدب التركى فى جامعة استانبول ـ يميل الى فكرة أنه كان معاصرا لعلاء الدين السلجوقى الذى عاش فى القرن الثالث عشر ، أما ش · سامى بك وكذلك ب · هورن فقد قررا أنه كان معاصرا للسلاجقة بينما يؤكد الأخير ـ هورن ـ أنه كان فى عصر علاء الدين السلجوقى ، وأما قوبريلى زاده فقد عضد وجهة نظره بأدلة جديدة نوعا ما تتلخص فى :

١ ـ أن النقش الموجود على مقبرة نصر الدين فى آق شهر يحمل تاريخ ٣٨٦ هـ ، وعلى افتراض أن الكتابة معكوسة ـ كما يقول ـ فان هذا يدل على أن ـ الخوجة قد توفى فى سنة ٦٨٣ هـ أى سنة ١٢٨٤ / ١٢٨٥ م ·

٢ ـ ذكر اسمه فى وقفتين رسميتين فى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٥٧ م) أى ما يؤكد وقوف نصر الدين خوجة شاهدا أمام القاضى ·

٣ ـ ما ذكره حسن أفندى مفتى « سيورى حصار » السابق منذ ما يزيد على خمسة وأربعين عاما فى « مجموعة المعارف » عن نصر الدين ، وقد اتفق ما قاله مع هذا الرأى ·· حيث ذكر حسن أفندى أن نصر الدين ولد فى قرية « خوتور » بجوار سيورى حصار فى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ / ١٢٠٩ م) ، وعاش فيها حيث نجح فى خلافة أبيه فى وظيفة الامامة ، ثم انتقل فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ / ١٢٣٨ م) الى مدينة « آق شهر » حيث توفى بها سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ ـ ١٢٨٥ م) ·

وعلى الرغم من أن هذه الأدلة ليست مقنعة تماما ، فانه لا يمكن اهمالها تماما · وعلى كل حال لم يكن مما يثير العجب ازاء هذا التضارب فى الروايات والآراء أن نجد بعض الباحثين أمثال رينيه باسيه ، وم · هارتمان وأ · فيسيلسكى كانوا يشكون فى تاريخ الخوجة ، وفى وجوده نفسه ، وهذه الشكوك ترتبط الى حد ما بأصول فكاهات نصر الدين ،

بل ان باسيه يرى أنه : « ليس من المستبعد أن تكون عامة الشعب فى تركيا ـ قد حرفوا اسم (جحا) الذى كان يبدو غريبا عليهم الى (خوجة) وهذا الرأى ينادى به باسيه ويصر عليه .

ومن الترجمات الضافية ـ نسبيا ـ فى هذا المقام تلك الترجمة التى كتبها حكمت شريف الطرابلسى فى مقدمة كتابه الذائع الصيت فى العالم العربى ـ حيث طبع عشرات المرات منذ مطلع هذا القرن ـ بعنوان « نوادر جحا الكبرى لنصر الدين خوجة المعروف بجحا الرومى » الذى نقله الى العربية من كتاب « لطائف نصر الدين خوجة » باللغة التركية .... وقد جاء فى هذه المقدمة أن نصر الدين قد تلقى علومه فى آق شهر وقونية ـ وولى القضاء فى بعض النواحى المتاخمة لآق شهر ، كما ولى الخطبة فى سيورى حصار ونصب مدرسا واماما فى بعض المدن . ساح فى الولايات : قونية ، وأنقرة ، وبروسيه ، وملحقاتها . وأنه كان واعظا ومرشدا صالحا يأتى بالمواعظ فى قالب النوادر ، وله جرأة على الحكام والأمراء والقضاة . وكثيرا ما كانت تستقدمه الحكومة من « آق شهر » الى العاصمة (يومئذ : قونية وكانت عاصمة السلاجقة ، وأخضعها بيازيد للأتراك العثمانيين بعد هزيمته لعلاء الدين) . وكان عفيفا زاهدا يحرث الأرض ويحتطب بيده ، كما كانت داره محطا للواردين من الغرباء والفلاحين ، ويذكر أن وساطته أنقذت بلدته « سيورى حصار » من تيمورلنك الجبار الطاغية . أما زمنه فالراجح أنه كان فى عهد السلطان أورخان وظل حتى عهد السلطان يبلدبرم بيازيد خان فى أوائل القرن السابع للهجرة ، وعاش الى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) وتوفى عن ستين عاما وضريحه فى آق شهر .. » .

★★★

والآن نلتقى مع الفلسفة الجحوية فى علاقتها بالأشكال المختلفة للسلطة السياسية .

أولا : جحا والسلطان

تعد نوادر الرمز الجحوى مع السلطان ، تجسيدا حيا وفعالا لكل ما تمور به عصور الظلم والاستبداد من بطش وقهر وكبت وخوف ...

وهى من هذا المنظور انما تعكس لنـا الرؤية القومية الرافضة لكل قوى الظلم والعدوان — تيمورلنك — كما أنهـا فى الوقت نفســه تحكى لنا المواقف المختلفة للناس من كل حاكم ظالم ، ومن كل سلطـان مستبد ، يستند فى حكمه على القوة الباطشة وحدها ··· وهى مواقف متناقضة بطبيعة الحال منها ما ينطوى على قيم وسلوكيات وأخلاقيـات سلبية · وأخرى تنطوى على قيم وسلوكيات وأخلاقيات ايجابية ·

(أ) الموقف الأول : ادانة القيم السلبية ·· جحا ·· وتيمور لنك

وفيه نرى النادرة الجحوية تعكس كل ما يشيع فى مثل هذه العصور من مواقف انهزامية وفردية ووصولية وانتهازية ·· الى غير ذلك مما تتسم به دائما تلك الطحالب البشرية التى تعيش فى كنف كل حاكم ظالم ، وهنا نرى النموذج الجحوى يسعى الى تعرية هذا النوع من البشر ، أو قل تلك الشرانق الخبيثة المحيطة بالحكام ، فيسخر منها ويكشف أساليبها واطماعها ووسائلهـا فى الغش والخداع · ويحذرها كذلك من مغبـة تعاونها مع السلطة ، لأنها آجلا أو عاجلا سينفضح أمرها ، كما نراه فى الوقت نفسه لا يعفى الناس من مسئولياتهم فيما حل به وبهم ، فيحملهم الجزء الأكبر من المسئولية حينما استسلموا للخوف واستكانوا له وتهاونوا فى الدفاع عن حقوقهم وعن الذات العـامة — الأرض والمعتقد والانسان — فوقفوا هذا الموقف السلبى اللامبالى مما حل بهم · وهو لذلك يسخر من عجز الناس وجبنهم وريائهم ونفاقهم للسلطة · وبذلك يكون قد جسد لنا فى نوادره أسوأ ما فى الجانب الانسانى لحظة استسلامه للهزيمة ·

وقد جاء جحا رمزا لهذه المواقف جميعا وشارك فى صنعها ، بل كان بطلا لها · وقد أنطقه الوجدان القومى حينئذ بما يدور فى خلده وضميره — حين عز القول — نحو حكامه ، وأغلبهم فى صورة تيمور لنك ، حتى ان احد الباحثين رأى فى جحا « صورة لفردية عصر الاستبداد والانتهازية التى تتسم بها كل العصور الظالمة ، فنجده يستخدم ذكاءه لانقاذ نفسه من براثن السلطان ، وهو بهذا السلوك المشين صورة لعصره ، صورة للأنماط الفردية والوصولية والانتهازية والأنانية والانهزامية · وهى رؤية قاصرة

ومجددة للنموذج الجحوى لم يستطع خلالها هذا الباحث أن يكشف عن القيم الايجابية التى تنطوى عليها نوادر الرمز الجحوى بعامة ۰

وتذكر كتب النوادر أن أول لقاء تم بين تيمورلنك وجحا كان حينما استولى تيمور على بلاد الأناضول وراح يحضر علماء البلدة وفضلاءها ويسألهم : أعادل أنا أم ظالم ۰۰۰ ؟ فان أجابوه : « انك عادل » ذبحهم ـ وان قالوا : «انك ظالم» قتلهم ، فضاق ذرعهم ، فجاءوا الشيخ «نصر الدين» لما اشتهر به من الأجوبة السديدة الحاضرة ـ وقالوا له : لا ينقذنا من شر هذا الظالم غيرك فافعل وأنقذ عباد الله من سيف نقمته ۰ فأجابهم : « ان التخلص من هذا الرجل ليس بالأمر الهين كما تعلمون . ولكن أرجو أن أوفق الى ما تطلبونه » ۰ وبكل حيطة جاء الى قصر تيمورلنك الذى أعلموه أنه قد حضر «من يقدر أن يجيب عن سؤالك» . فأحضروه أمامه وأورد عليه ذلك السؤال ، فأجابه الشيخ : « أنت لست ملكا عادلا ۰ ولا باغيا ظالما ۰ فالظالمون نحن ۰ وأنتم سيف العدل الذى سلطه الواحد القهار على الظالمين » ۰ فأعجب تيمور بهذا الجواب وسر من شجاعة الشيخ ، واتخذه نديما خاصا له ، ولم يعد يفارقه مدة اقامته ببلاد الروم ۰ وبذلك وبفضل حكمته وفطنته وذكائه استطاع أن ينقذ بلده ومواطنيه من بطش تيمور وبغى عساكره ۰ ويذكر الرواة هذه النادرة فى مجال فضل جحا وكيف أنقذ بلده ـ لكنه أشار هنا الى مسئولية الناس عن واقعهم وعما حل بهم من بلاء ۰۰۰ حقا لقد كان دبلوماسيا داهية فى رده على تيمور ۰ ولكن هل كانت تلك الاجابة تمثل واقع تيمور نفسه ؟ على كل حال لم يقف جحا هذا الموقف دائما ۰۰ صحيح أنه أصبح وسيطا بين قومه وتيمور ولكن الى جوار من وقف فى وساطته ۰۰ ؟ هذا هو السؤال ۰ فبعد أن تم لتيمور النصر ترك الفيلة التى كانت تتقدم جيشه تسرح فى أرض المملكة على هواها ، وشاء أن نزل على بلدة جحا فيل ضخم من هذه الفيلة ، وكأنه استطاب المرعى فطابت له الاقامة ، وأخذ يعبث فى المزارع حتى أتلفها ، وما أبقى للناس بقية من رزق ، وتجمع وجوه البلدة للتشاور فى دفع هذا الوبال ، وطلبوا الى جحا أن يتوسط لدي السلطان حتى يأمر بنقل الفيل من البلدة ۰۰۰ فأبى جحا ، ولكنهم ألحوا فى الرجاء فقال جحا :

« اذا كان لابد من هذا فلنذهب خمسة معا فنقف بين يدى السلطان صفا واحدا ، ويقول كل منا كلمة واحدة فى الرجاء الذى نتقدم به ، فيقول الأول : فيلكم يا مولانا السلطان ثم يسكت . فيتلوه الثانى : نزل ببلدتنا منذ أمد طويل ، ويرد الثالث : وقد أفسد مزارعنا وأتلف أرزاقنا ، ويقول الرابع : نرجو أن ترحمنا فتأمر بنقله من بلدنا . ثم يدعو الخامس أن يمد الله فى عمر مولانا السلطان ويديم عزه ونصره ، فنرد جميعا مؤمنين على الدعاء . وسألنى القوم عن الحكمة فى ذلك فقلت لهم اننى اعرف أن سلطانكم أحمق ، وليس هناك ما يرضى أولئك الملوك الجبارين مثل التذلل واظهار الخضوع ، فاذا ما وقفنا بين يديه جميعا ورآنا من وجوه القوم فى رعيته ، دب فى نفسه دبيب الرحمة والعطف ، ثم هو لا يستطيع أن يحاسب واحدا منا ، لأننا جميعا سنشترك فى رفع المظلمة، وبهذا ننجو من غضبه وبطشه . واستحسن القوم الفكرة ومدحونى بحصافة الرأى ورجاحة العقل ، وقصدنا من فورنا السلطان ، وبعد أن أبدينا مظاهر الخضوع والخشوع تكلم الأول فقال : فيلكم يا مولانا السلطان . قال السلطان : ما باله ... ؟ فرد الثانى ، قائلا : لقد نزل ببلدتنا منذ أمد طويل . فقال السلطان : وما فى ذاك .. ؟ وجاء دورى فى الكلام ونظرت الى السلطان فرأيت عينيه تقدحان بالشرر ووجهه يتميز من الغيظ فأسرعت قائلا : أجل يا مولانا ان فيلكم قد طال عليه الأمد فى بلدتنا وقد شرفنا بذلك وهو على الرحب والسعة فى ضيافتنا ولكنه قد اشتاق الى فيلة تؤانسه ، فنلتمس أمركم بارسال فيلة اليه ، فهدأت ثائرة السلطان فجأة وانفرجت أساريره ، ثم أمر بارسال فيلة الى الفيل ومنحنى جبة وقاووقا دلالة التكريم . وخرجت فاقبل على أصحابى يلوموننى ويقولون : لقد كنا فى مصيبة فجئتنا باثنتين . قلت : يا قوم هذا شأنكم أما شأنى فأنا أدرى به ، ومن يستطيع أيها الحمقى أن يقول للسلطان فيلكم .. ؟ وهل كان من الخير لى أن أتملق السلطان بهذه الكسوة العظيمة أو أقول الحق ويعلق رأسى على سور المدينة .. ؟ » .

وقد بين جحا طبيعة أصحاب السلطان وحاشيته ، فقال فى بيان أو تفسير هذه العلاقة بين السلطان وهذه الطبقة :

« اذا قدر الله عليك أن تكون من أصحاب السلطان فاحرص على ألا ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تحس ولا تحكم · وعليك دائما أن تكون فى مرضاة هذا السلطان بالحق والباطل - فاذا رأيته راكبا كلبا فقل له : ما أجمل هذا الأسد ! · واذا سمعته يقول سخفا فقل له : ما أروع هذه الآيات المحكمات ! · واذا وجدته يرتكب الطيش والهوس فقل : انه العدل الذى يزن الأمور بالقسطاس ··· واعلم أن شجرة النفاق انما زرعت أول ما زرعت فى ساحة الملوك والسلاطين ··· وليس أصحاب السلطان وأهل بطانته الا فروع تلك الشجرة · وانما ينال الواحد منهم من الحظوة والرضا على قدر ما يبذل من نفاق · ويقدم من ملق · هذه حقيقة أعرفها وأفهمها ولكن مصيبتى أنى كثيرا ما أنسى · فقد كنا فى يوم فى حضرة الطاغية تيمورلنك ، وكان يجلس على عرشه أشبه بالعتل أو كأنه برميل ، وأهل بطانته يجلسون من حوله وأبصارهم اليه شاخصة ، وآذانهم نحوه مرهفة ، وألسنتهم تدور بتسابيح الحمد بذاته والثناء على خصاله ، وفى مجرى الحديث سأل واحد من البطانة زميلا له : هل لك أن تفيدنا عن مذهبك ؟ فانتفض الرجل من مكانه وتوجه نحو السلطان فى ذلة وخضوع وانحناء ، ووضع يده اليسرى على صدره ورفع اصبعه مشيرا الى السلطان قائلا : السلطان تيمور مذهبى ومعتقدى · فأومأ اليه الطاغية بالرضا وهمهم المنافقون من حوله بالاستحسان والتفت الى أحدهم وقال : « أما لك أيها الشيخ أن تسأله عن نبيه ؟ وكنت قد نسيت أنى فى حضرة السلطان وأنى فى القوم المنافقين ، فصحت : مهلا يا أخى ، فانى أعرف أن الرجل الذى يكون مذهبه ومعتقده الطاغية تيمور ، لا شك فى أن نبيه السفاح جنكيز خان » · فكأنى به يقول مع القائلين : الناس على دين ملوكهم ، فشريعة الغاب هى محاباة القوى وهى آفة كل العصور · والبطش هو فى كل زمان ومكان · ولكن جحا لا يعفى الناس من مسئولية ما هم فيه ، فعندما استولى تيمور على بلاد الروم (الأناضول) وأخذ المغول مدينته ، هاجر سكان البلاد فرارا من ظلمهم والتجأوا الى القرى والصحارى واعتصموا بالجبال ، وكان جحا وامرأته وولده فيمن هرب ، وبينما شرعوا يذكرون مظالم المغول وطباعهم الوحشية ، اشترك جحا فى الحديث فأخذ يعدد ما سيصيب الظالمين من العقاب فى الآخرة ويؤيد كلامه بالآيات القرآنية

والأحاديث النبوية ، وبينما هم يتحاورون بذلك وكان يسمعهم خفية درويش مهيب الشكل ذو نظر حاد فاندفع اليهم قائلا بصوت جهورى : « كلا أيها الشيخ فان ما قرأته من الآيات والأحاديث لا ريب فيه ، ولكن سيف النقمة الالهية والعدالة الربانية لا يتسلط على من ذكرت،وانما سلطه الله على أمثالكم ممن نزعت حميتهم وضعفت همتهم وقلت غيرتهم وأصبحوا لا اتفاق بينهم ولا اتحاد » • فلما سمعوا هذا الكلام خافوا • وتعجب جحا من وجوده ثم تجرأ وسأله : من أى بلاد أنت••؟وما اسمك المبارك ؟ فصاح الدرويش مزمجرا : أنا داهية ما وراء النهر ، واسمى تيمور • وما أتم كلامه حتى طار صواب جحا وقال له (متحامقا) : « وهل يقترن باسمك خان مان •• ؟ فزأر الدرويش بغضب : أجل فالتفت جحا الى من حوله من القرويين وقال : يا أمة محمد ، هلموا فصلوا على صلاة الجنازة » • •

طبخ جحا يوما اوزة وحملها ليهديها الى تيمور لنك ، وفى الطريق تغلبت عليه شهوته فأكل منها فخذا ــ ولما رأى السلطان أنها ناقصة قال لجحا : وأين رجلها ؟ فقال جحا : ان جميع اوز المدينة برجل واحدة ــ وفى هذا تلميح الى ما كان عليه تيمور من العرج ــ واذا لم تكن تصدقنى فانظر الى الاوز الموجود على ضفة البحيرة أمامك ، وكان الاوز عندئذ واقفا فى الشمس ورافعا احدى رجليه ومخبئا رأسه فى صدره كما هى عادته ، فرأى السلطان ذلك وتظاهر بالاقتناع ، ولكنه أصدر أمره خفية الى الموسيقى السلطانية بأن تقترب من البحيرة وتضرب ضربا شديدا ، وما هى الا برهة حتى صدحت الآلات الموسيقية ودقت الطبول فجفل الاوز من هذه الضوضاء المزعجة وأخذ يركض يمينا وشمالا خائفا مذعورا ، فالتفت تيمور الى جحا وقال له : كيف تكذب على ، أما ترى الاوز يمشى على رجلين •• ؟ فقال جحا : ولكنك يا مولاى نسيت أن الرعب يأتى بالعجائب ، فلو أخافوك مثل ما أخافوه لجريت على الأربع » •

(ب) الموقف الثانى : ترسيخ القيم الايجابية

واذا كانت النوادر السابقة تدين القيم السلبية التى يتسم بها بعض الناس ، فان ثمة نوادر أخرى تزخر بالقيم الايجابية ، انه الموقف

النقيض الذى يعكس أحلام الناس وآمالهم فى الثورة والحرية والعدالة .. وفى هذا اللون من النوادر نرى النموذج الجحوى يقف الى جانب الناس ضد السلطان ... فيكشف لهم مظالمه وحماقة عقله وسفاهة رأيه وجور أحكامه فى قالب من السخرية والتندر .

قال له تيمور لنك يوما : أتستطيع أن تخبرنى كم أساوى من المال ؟ فنظر جحا اليه مترددا ثم قال : لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار . فضحك تيمور حتى استلقى على ظهره ثم قال : انك لم تبلغ فى جوابك شيئا . ان ملابسى وحدها تساوى ذلك المقدار من الدنانير . فقال جحا : لقد صدق ظنى اذن فما كنت أنظر من تقدير ثمنك الا الى هذه الملابس .

وهناك نادرة شبيهة تقول : دخل يوما هو وتيمور لنك الى الحمام ، فسأله تيمور لنك لو كنت عبدا فكم كنت أساوى ؟ فقال له : خمسون درهما . فصاح تيمور بوجهه : يا قليل الانصاف ان الفوطة التى بوسطى تساوى هذه القيمة . فأجابه جحا بسكون : وانى قطعت سعرا للفوطة أيضا .

وسأله تيمور يوما قائلا : هل تعلم يا جحا أن خلفاء بنى العباس كان لكل منهم لقب اختص به ، فمنهم الموفق بالله والمتوكل على الله والمعتصم بالله والواثق بالله وما شابه ذلك ، فلو كنت أنا واحدا منهم فماذا كان يجب أن أختار من الألقاب ؟ فأجابه جحا على الفور : يا صاحب الجلالة ، لا شك بأنك كنت تدعى بلقب « العياذ بالله » .

كان الحديث يدور فى مجلس تيمورلنك عن عذاب يوم القيامة وما يلقى فيها الكفار من شقاء وأهوال ، وكان جحا حاضرا فناداه تيمور لنك وقال له : أين يكون مقامنا فى الآخرة يا ترى .. ؟ فقال جحا : يكون مع الملوك العظماء الذين خلدوا أسماءهم فى التاريخ . فسر تيمورلنك ، وقال : مثل من من الملوك يا جحا ؟ فقال : مثل فرعون موسى والنمرود وهولاكو وجنكيز خان من أمثال جلالتكم .

وتبلغ السخرية الجحوية قمتها فى تصوير قوى البطش وآثاره المدمرة حينما خرج جحا مع تيمور فى رحلة الى الأقاليم ليطمئن على اذعان الناس لجبروته ومذلتهم لطغيانه . يحكى جحا قائلا : « ونزلنا أول يوم على قرية فنشب فيها حريق أكل دورها وشتت أهلها ، وتركها خرابا بلقعا . فقال تيمور : فلتأكلهم النار جميعا . وفى اليوم الثانى نزلنا على قرية أخرى فقيل لنا : ان دارا سقطت على سكانها فمات تحت الأنقاض كثيرون من الرجال والنساء والأطفال . فقهقه الطاغية قائلا : ولماذا يتركون الدار تسقط عليهم ؟ وفى اليوم الثالث نزلنا على قرية انحدر عليها السيل من الجبل فجرف بيوتها وأهلك أهلها . فلما علم الطاغية بذلك قال : ولماذا لم يدفعوا السيل عن أنفسهم ؟ وفى اليوم الرابع نزلنا على قرية فقيل لنا ان عجلا انطلق فنطح عددا كبيرا من الناس فمنهم من بقر بطنه ومنهم من قلع عينه . فقهقه الطاغية قائلا : ما أجدر هذا العجل الشجاع أن يكون فى الجيش ! .. وهالنى — أى جحا — ما رأيت من الشنائع والفظائع فتمثلت بين يدى الطاغية فى تضرع وابتهال وقلت : يا مولانا السلطان ، ان طالع السعد يبدو حيث سرتم ، وطائر اليمن يقر حيث حللتم ، فى كل يوم يشرق من جبينكم على هؤلاء المساكين ، وأخشى أن تمتد رحلتكم أكثر من هذا فيكون فى هذا هلاك العباد وخراب البلاد » .

ولا تنسى النادرة الجحوية أبدا أن تصور بعض الحكام فى جورهم وفى أحكامهم وطغيانهم وحيفهم عن الحق وارتشائهم وفساد حكمهم .

دخل أحد التجار مطعما فقدمت اليه دجاجة وبيضتان ، واتفق أن يدفع الحساب عند عودته من سفره ، وبعد ثلاثة أشهر رجع التاجر وتوجه الى المطعم ، فأكل دجاجة وبيضتين وطلب حسابه جميعا . فقال صاحب المطعم : ان حسابنا طويل ، ولكن يكفى أن آخذ مائتى درهم . فصاح التاجر : عجبا ! ما معنى طلبك مائتى درهم ثمنا لدجاجتين وأربع بيضات ؟ فقال صاحب المطعم : ان الدجاجة التى أكلتها منذ ثلاثة أشهر لو باضت كل يوم بيضة ووضعناها تحت دجاجة لنتج كذا دجاجة وكذا بيضة ولبعنا بمئات الدراهم . واحتدم بينهما الجدال وذهبا الى الحاكم

ـ وكان ضالعا مع صاحب المطعم ـ فسأل التاجر : هل اتفقتما على الثمن منذ ثلاثة أشهر ؟ فأجاب بالنفى • فقال الحاكم ألا يمكن أن يحصل من الدجاجة والبيضتين في هذه المدة مئـات من البيض والدجـاج ؟ فقال التاجر : طبعا هذا معقول لو كانت الدجاجة حيـة ولكنها كانت مذبوحة محمرة وكانت البيضتان مقليتين • ولكن الحاكم بدا عليـه أنه سيحكم بالدراهم المائتين • فطلب التاجر تأجيل الحكم الى الغد ، لأن عنده حجة سيقدمها • فأجابه الى ذلك • ولجأ التاجر الى جحا وقص عليه القصة وولاه الدفاع عنه • وفي الصباح حضر التاجر وقال : ان جحا سيقدم حجتى • وانتظروا جحا فأبطأ كثيرا ثم جاء فصـاح الحاكم غضـبا : لماذا تأخرت وتركتنا ننتظرك • فقال جحا فى رفق : لا تغضب يا سيدى فانى عندما تأهبت للحضور ، جاء شريكى فى الأرض التى سنزرعها قمحا وطلب البذور فانتظرت الى أن سلقت له مقدار جوالين من القمح وأعطيته اياه ليبذره فى الأرض فهذا سبب تأخرى • فصاح متهكما : ما أعجب هذا الاعتذار ! هل سمعتم أن القمح يسلق قبـل أن يبذر فينمو ؟ فقال جحا على الفور : وهل سـمع أحـد أن الدجاجة المحمرة والبيض المسلوق يتوالد ويتكاثر ، ثم يطلب لأجل ذلك من هذا التاجر مئتا درهم ؟ فبهت الحاكم وخرج التاجر منصورا •

استصحبه تيمور معـه فى أيام الربيع ليحضر تعليم الجند رمى القوس والنشاب ، وفى أثناء التدريب أراد تيمور أن يعبث به ، فأمره أن يرمى هو أيضا وأن يصيب الهدف ، والا فالويل له ، فاعتذر جحا فلم يقبل منه بل أجبره على الرمى ، فأخذ القوس ورمى الهدف أول مرة فلم يصبه فقال : هكذا يرمى رئيس الشرطة عندنا • ثم صوب مرة أخرى فلم يصبه فقال وهكذا يرمى حاكم بلدنا • ولما رأى الثالثة ـ صادف أن أصابت الهدف ، صاح قائلا فى افتخار هكذا أرمى أنا • فاعجب تيمور وأنعم عليه .

ومن هذه النوادر أيضا تلك النادرة البعيدة المغزى :

فى أيام شباب جحا أمر الحاكم بمنع حمل السلاح • وفى يوم كان جحا ذاهبا الى المدرسة وهو يحمل سكينا كبيرة فأخذوه الى الحاكم فسأله :

ألا تدرى أننى حرمت حمل الأسلحة ، فكيف تحمل هذا السلاح فى وضح النهار ٠٠ ؟ فقال جحا : انما حملته لأصلح بعض الأغلاط التى أجدها فى الكتب ٠ فقال الحاكم : ألا يمكن أن تصلح هذه الأخطاء بغير هذه السكين الكبيرة ٠ فأجاب جحا : يا سيدى انه من الأخطاء ما تكون هذه السكين صغيرة بازائه ٠

ثانيا ــ جحــا والقضــاء

تؤكد النادرة الجحوية أن تحقيق العدالة وسيادة القانون فى مجتمع ما ، تكون رهنا بطبيعة النظام الســياسى ونزاهة القائمين عليه ، ففى عصور الاستبداد تكون كلمة الحاكم المستبد هى القانون وكانت مصلحته الفردية فوق المصلحة القوميــــة ٠٠٠ وحينئذ يفتقد النــاس المقاييس والمعايير والضوابط التى تستقيم بهــا حياتهم ومجتمعهم وتصبح حياتهــم جحيما لا يطــاق ٠

وأكبر الظن أنه لا يمكن لدارس تاريخ القضاء فى المجتمع العربى أن يفصله عن تاريخه السياسى ، وذلك أن النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والقانونية هى أعضاء فى جســم السلطة وهيكلها العــــام ٠

واذا كان الوجدان الشعبى قد أعلن من خلال جحا موقفه من السلطة الســـياسية ورأيه فى حكامه ، فانه قد أعلن هذه المرة رأيه فى السلطة القضائية ورأيه فى قضاته٠٠٠٠ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة أن يتولى جحا القضاء أيضا ، أو هكذا شاء له الوجدان القومى فى ابداعه الشعبى، فأجلسه فى مجلس القضاء ليتخذ منه وســيلة يعلن بها رأيه فى ميزان العدالة وفى فساد القضاء ، وبخاصة فى تلك العهود التى كان يعيش فيها أيضا على هوى الحكام ٠ واذا كان القضاء ــ منذ أقدم العصور ــ هدفا لسهام النقد اللاذع ، فانه يعنى مجالا خصبا ــ بغير الشــك ــ للنموذج الجحوى ٠ والدارس للنوادر الجحوية الخاصة بالقضاء تهوله كثرتها ٠ وبمقدوره أن يستشف بوضوح غياب القانون ، ومن ثم مدى اضطراب

العدالة واختلال ميزانها وفساد معاييرها · انها تعكس موقف الناس من القضاء ومآخذهم عليه ، من خلال الرمز الجحوى الذى وضع فى مواقف كثيرة مختلفة لتكون رؤيته ومواقفه منها أقرب الى الواقع التجريبى · ولهذا أيضا لم يكن من قبيل الصدفة أن يجيء الرمز الجحوى فى أغلب نوادره مع القضاء — « متقاضيا » يجسد لنا مفاسد القضاء وعيوبه عن كثب وعن موقف تجربة · كما نراه كذلك « قاضيا » يعتلى منصب القضاء ليحكم بين الناس بالعدل ويفصل بين المتنازعين بالقسطاس المستقيم ، ومن ثم يحقق الوجه الآخر للصورة التى رأيناه فيها متقاضيا ، اذ نراه فى هذه المرة يحقق القيم المفقودة والمثل المنشودة فى القضاء ، فيعيد الحق الى نصابه ولتأخذ العدالة مجراها فى جو من النزاهة · ونراه كذلك مستشارا للقاضى ولكنه يقف الى جانب الحق والعدل · فهو يؤمن بأن القضاء للناس لا عليهم على حد تعبيره فى بعض نوادره · ونراه كذلك يقوم بما يشبه دور المحامى فيقف مدافعا عن أصحاب الحقوق والمظلومين وينتصر لهم · وقد نراه شاهد زور أحيانا ، ولكنه سرعان ما يعترف ولا يخرج فى أدواره الثلاثة الأخيرة عن مفهومه للقضاء فهو فى رأيه — الجمعى — قضاء للناس ··· لا على الناس · انه بذلك يحقق رغبات الناس وأحلامهم فى قضاء عادل نزيه · ويواجه جحا هذه المواقف التى شاء له الوجدان القومى أن يضعه فيها ليعلن — من خلالها — آراءه فى القضاء والقضاة ·

مفاسد القضاء

قد يكون القاضى سكيرا مرتشيا يدفعه الهوى ويعميه الطمع وحينئذ تكون الطامة الكبرى على أصحاب الحقوق ، تقول النادرة :

كان بالبلدة التى بها جحا قاض سكير خرج يوما الى المزارع وسكر فخلع جبته وعمامته وألقاهما جانبا ، وخرج جحا الى التنزه فرأى القاضى على هذه الحال فاختطف الجبة ولبسها وذهب ، ولما انتبه القاضى ولم يجد الجبة رجع وكلف الحاجب أن يحضر له السارق ، وبحث الحاجب فوجد جحا لابسا اياها ، فأخذه الى القاضى فسأله : من أين أتيت بهذه

الجبة ٠٠ ؟ فقال جحا : ذهبت أمس مع بعض أصدقائى الى المزارع فوجدت رجلا سكران ملقى على الأرض فى حالة مزرية فأخذت جبته ولبستها . ويمكننى أن أثبت ذلك بشهود واريك وأرى الناس من هو هذا السكير ٠ فقال القاضى : لا نريد معرفة هذا السفيه ، فالبس الجبة كما تشاء ولا شأن لى بصاحبها ٠

وتشيع ظاهرة الرشوة فى النوادر الجحوية للسلطة عموما ٠

قال أحد الأثرياء لجحا : اذا بصقت على وجه فلان ــ وهو عدو لى ــ فلك درهم ، فوافق جحا على ذلك وذهب الى الرجل وبصق على وجهه ، فذهب جحا الى القاضى ــ ولما سأله أجاب جحا قائلا : ان لدى « فرمان » يخول لى الحق فى ذلك ، فتعجب القاضى من ذلك وقال له : أرنى «الفرمان» . فدفع جحا الى القاضى كيسا فيه نصف المبلغ الذى أخذه من صاحبه الثرى ، وما ان أخذ القاضى الدراهم حتى ولى وجهه الى الشاكى وقال له : حقا لقد أبرز خصمك « فرمان » يخول له الحق فى أن يبصق على وجهك وعلى وجوه الناس بل وعلى وجهى كذلك ٠

ويحدث أن يكون جحا نفسه قاضيا مرتشيا للسخرية :

. كنت أجلس فى الدار فجاءنى شخص وحدثنى عن دعوى له على شخص آخر ، وبعد أن أشار وفهمت اشارته (رشوة) ، قال : يا مولانا أنت شيخنا وقاضينا ، وقد حدثتك بدعواى وانى لصاحب الحق فيها ، قلت : أجل يا أخى ٠ أنت صاحب الحق كله ٠ وكاد الرجل ينصرف من عندى حتى جاءنى خصمه فتقدم وسلم وقص على القضية مطولة مفصلة ، وفى أثناء الحديث غمزنى بحاجته غمزة فهمت ما وراءها (رشوة) ، وبعد أن أنتهى من حديثه قال : هذه يا مولانا القاضى هى دعواى وقضيتى وانى لصاحب الحق فيها ٠ قلت : أجل يا أخى انك لصاحب الحق كله ٠ وغضبت زوجتى لما رأت وسمعت ولم يعجبها ما قلت للرجلين ٠ فقالت : كيف يصح هذا يا جحا ؟ حضرتك قاض أو فاض ٠٠ ؟ ٠٠٠ كيف يكون الخصمان صاحبى حق معا فى دعوة واحدة ؟ والملعونة زوجتى تعلم علم اليقين أن الرجل الأول قد حمل الى دارنا جرة سمن ، وأن الرجل الآخر

قد جاءنا بجرة عسل • وما دام هناك سمن وعسل ، فكل الناس صاحب حق وأنف الحق راغم ، ولابد أن تتسع ذمة « الدعوى » فيصير كل المتخاصمين أصحاب حق فيها ، ولكن اللجاج غريزة فى النساء والثرثرة مأثورة عنهن ولم أشأ أن أدخل مع زوجتى فى مناقشة أو مخاصمة خشية أن يسمعنا أحد فيفتضح الأمر ، فأذعنت قائلا : أجل يا زوجتى وأنت فيما قلت صاحبة حق •

ورشوة القضاة لا تقف عند حد المال ، بل تتعدى ذلك الى اغراء الجنس تلميحا لا تصريحا :

تقدمت الى جحا امرأتان فاتنتان ، عندما كان قاضيا ، فقالت احداهما :

لقد أوصيت هذه على عمل خيوط ثخينة كشعرى فنسجت لى خيوطا رقيقة • وحسرت الحجاب عن وجه كأنه البدر وأرته شعرها اللماع كسبائك الذهب قائلة : فلترد لى دراهمى • فقال جحا : سبحان الله • والتفت الى المرأة الثانية وقال لها : ماذا تقولين أنت ؟ فقالت بصوت يرتجف غضبا : كانت مقاولتنا أن يكون كخنصرى هذا لا كساعدى • وكشفت عن ساعدها الأبيض وهو ثخين كعمود من فضة أو بللور • وقال لها : كفى كفى يا ابنتى لا تجعلى الخيط ثخينا يفجع ولا تجعليه رقيقا يقطع كقلب شيخكما جحا •

جحا قاضيا

وهناك مجموعة من النوادر تصور جحا قاضيا ذكيا لماحا واسع الحيلة فى سبيل الوصول الى تحقيق العدالة التى افتقدها الناس ، عاكسة بذلك آمال الشعب فى اصلاح ما اختل من قيم وموازين ومعايير •

دخل لص دكان جزار وطلب منه شيئا من اللحم • وبينما كان الجزار يشتغل بتقطيع اللحم فتح اللص الدرج وأخذ نقودا (من الفضة) فلمحه الجزار • فأمسك بخناقه وساقه الى جحا القاضى حيث ادعى كلاهما أن النقود له • فلما عرف جحا حكايتهما تحير فى الحكم بينهما • وجلس

يفكر ثم أمر باحضار سلطانية فيها ماء ســاخن ووضع فيها النقود فظهر على وجه الماء دهن قليل ، فعرف جحا ان النقود للجزار فسلمها اليه وأمر بحبس اللص ٠

وهذه نادرة أخرى تمثل جحا قاضيا يعرف كيف يعيـد الحق الى نصابه وتأخذ فيها العدالة مجراها الطبيعى ٠

نام رجل فى الغيط وتغطى بجبته فجـــاء لص وسرقها فاحس به الرجل فأمسك به وساقه الى جحا القاضى ، فلما وقفا أمامه ادعى كل منهما أن الجبة له ولم يستطع أحد منهما أن يأتى بشاهد أن الجبة له ، فجلس جحا يفكر فى هذه القضية العويصة ، ثم خطرت بباله فكرة رائعة فأمرهما أن يمسك كل منهما بطرف الجبـة وتركهما على هذه الحال مدة طويلة وتشاغل عنهما بالنظـر فى الأوراق وفجأة صاح فيهما : اترك الجبـة لصاحبها أيها اللص ، فتركها أحدهما ، فعرف (جحا) أنه اللص فحكم عليه بالحبس وسلم الجبة لصاحبها ٠

وقريب من هذا النادرة ما سمع منسوبا الى جحا ، من أن أمتين تنازعتا طفلا ادعته كل واحدة منهما ولدا لها بغير بينة ، ورفعتا أمرهما الى القضاء فأشكل الأمر على القاضى (جحا) ، فوعظهما وخوفهما فأقامتا على التنازع والخـلاف ٠ فقال عند تماديهما فى ذلك ائتونى بمنشـار ٠ فقالت المرأتان : ما تصنع ؟ قال : أقده نصفين ولكل واحـدة منكما نصـفه ٠ فسكتت احداهما وصرخت الأخرى قائلة : لقد سمحت به لها ٠ وبذلك عرف من هى الأم الحقيقية فأعاده اليها ٠٠٠

والحقيقة أن هذه الحادثة قد نسبت الى أكثر من شخصية ، فهى قد نسبت الى سليمان الحكيم عليه السلام ، كما نسبت أيضا الى الامام على كرم الله وجهه ، وقد تكون نسبت الى غيرهما ٠ وهى تحكى دائما للدلالة على ذكاء صاحبها وقدرته على التخلص من أعقد المواقف الانسانية ٠ ولعل فى نسبتها الى جحا دليلا على ما ترسخ فى وجدان الشعب عن جحا من حكمة وكياسـة ٠

راث كلب فى شـــارع عام بين منزلين فاختلف صاحبا المنزلين على من يزيل الروث منهما ، وتنازعا فذهبا الى القاضى، وكان جحا عنده فى

هذه اللحظة . فقص المتنازعان قصتهما وطلبا من القاضى ان يحكم بينهما . فاراد القاضى أن يعابث بجحا فقال له : افصل بينهما . فقال جحا : المسألة واضحة ، ان الروث فى شارع عام وليس على أحدكما ان يزيله وانما الروث على مولانا القاضى (يعنى ازالته فى المعنى القريب للتورية) فضحك القاضى والمتنازعان وتعاونا على ازالته ...

ثالثا : جحا والنقد الاجتماعى

اذا كانت ركائز أو محاور فلسفة النموذج الجحوى تقوم على عنصرين محوريين كبيرين هما : النقد السياسى والنقد الاجتماعى ... فان الأمر الذى ينبغى أن يشار اليه باهتمام أن نوادر السخرية والنقد الاجتماعى هى أضعاف أضعاف نوادر الرمز السياسى لجحا .

وهذه النوادر تعكس الى جانب نزوعها الى السخرية تجسيما حيا لما يريده الوجدان القومى العربى ، من خلال ابداعه الفنى الفكاهى من ترسيخ للتجربة أو الحكمة العملية ونقد الحياة الاجتماعية ، ولهذا لم تشأ الأمة العربية التى أبدعت هذا النموذج ـ كما ذكر أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس ـ أن تجعل هذا النموذج أو المثال سلبيا أو منعزلا ... وانما جعلته نموذج رجل عادى من الناس له مشاعرهم وتجاربهم ومواقفهم ، عليه أن يسعى فى سبيل العيش ويختلف الى الأسواق ويرحل الى الأمصار ويلتقى بالحكام ويعايش العامة ويتحدث اليهم ويختلف معهم على تباين طبقاتهم ومراتبهم ، وله معهم نوادره التى تجسم فلسفته الخاصة ، بل تجسم ما يريده الشعب العربى الذى تبناه فى ابداعه الشعبى على مر أجيال متعاقبة متصلة مستمرة ، وأثراه باضافاته الكثيرة من واقع تجربته ورؤيته وفلسفته ، وأوقفه من قيمه ومعاييره ومثله السلبية أو المختلفة موقف المتهكم بها الساخر منها ، حتى عد بحق ناقدا اجتماعيا للحياة العربية ، له من الشمول والمرونة والقدرة على التطور ومسايرة الزمان والمكان ما يجعله أهلا لهذه المكانة .

وذلك فى أسلوب مميز ، يجمع الفــكاهة والســخرية والحكمة فى آن واحد ، ومن ثم أصبح جحا المتحدث بلسان الشعب فى كل شأن من شئون الحياة • وكما يقول د • محمد رجب النجار فهو الواعظ ، والفقيه والفيلسوف والحكيم والساخر والضاحك وما شئت من كل ما تجيش به عواطف الشعب نحو أحداث الحياة ووقائعها ، ولهذا يتراءى لنا النموذج الجحوى فى شخصيات متباينة يمثل كل منها جانبا من جوانب الحياة المختلفة ، ورافدا من روافد التجربة الاجتماعية • فيعمل على ترســيب معتقداتها وقيمها ومثلها ومعاييرها الايجابية • ولهذا فسوف يعيش هذا المثال أو الرمز حقيقة موجودة فى نفس كل انســان ، لأنه يمثل تلك الشخصية التى تفتقدها كل أمة « استكمالا لجانب من شخصيتها وهو جانب يختفى دائما وراء أحداث الحياة وتقاليد المجتمع وتدافع الناس فى غمرة الصراع على الرغيف، ولكنه يظهر ويتجلى واضحا فى مجال التحرر من القيود والانطلاق من ربقة التقاليــد ، أى فى مجال الصراحة والبحبحة ومواجهة الأمور مكشوفة على حقائقها ، وهو جانب لا يمكن أن تحيا الأمم بدونه أبدا » •

ولسوف نجد أنفسنا فى هذا المقام ــ أمام المئات من النوادر التى تصور الحياة الاجتماعية بجوانبها المتعددة وتجاربها المختلفة •

اذاع جحا فى يــوم من الأيـام انه سيطير فى أصيل يوم الجمعة القادم من فوق مئذنة المسجد الكبير فى الكوفة . حتى اذا حان الموعد وتجمع الناس فى كل مكان وضاق بجموعهم الميدان ، أطل جحا من أعلى المئذنة ونظر اليهم ساخرا من بلاهتهم ، وجعل يمد ذراعيه ملوحا بها فى الهواء ويحرك يديه مرة بعد أخرى كأنما يتهيأ للطيران بالفعل • وطال انتظار الناس ولم يطر فصاحوا به أن ينجز ما وعد • فنظر اليهم ساخرا ثم قال : كنت أحسبنى منفردا بالغفلة والغباء ، والآن أيقنت أننى واياكم فى الحماقة سواء •بل رأيت فيكم من يفوقنى فى هذا الباب • رأيتكم تصدقون ما لا يصدقه جحــا وتنخدعون بما لا ينخــدع به • تتخيلون ما لا يمكن أن يكون أنه يكون • خبرونى أيها العقلاء ، كيف صدقتم أن انسانا مثلى ومثلكم يستطيع أن يطير بغير جناحين ؟ •

وقع أحد الناس مغشيا عليه • فظن أهله أنه مات فغسلوه وكفنوه وحملوه على النعش وساروا به ، وفى الطريق تنبه الرجل فقعد فى النعش وصاح : أنا حى لم أمت خلصنى يا جحا ، فقال جحا : عجبا أأصدقك وأكذب كل هؤلاء المشيعين •• ؟

ولم يفت النادرة الجحوية أن تسخر من هؤلاء الذين يتسمون بالمبالغة وما تسببه لأصحابها من مواقف محرجة •

جلس جماعة يتفاخرون بفروسيتهم فقال جحا : أتى يوما بحصان حرون فتقدم اليه أحد الفرسان فلم يستطع أن يقترب منه • وقفز واحد ليركبه فرفسه • وجاء آخر فلم يمكنه من الركوب • فأخذتنى الحمية وشمرت عن ساعدى وجمعت أثوابى ومسكت بعرفه وقفزت (وهنا دخل أحد معارف جحا) فأكمل جحا حديثه قائلا : ولكنى لم أستطع أن أركبه •

جلس جحا فى المقهى يبالغ فى كلامه ، ويدعى أن عنده كثيرا من الذهب والنقود ، فسمعه لص • فطمع فيه ، فلما أتى الليل ذهب اللص الى منزل جحا ليسرقه ، وفتش كل الحجرات فلم يجد شيئا يستحق السرقة • فاغتاظ غيظا شديدا ووقف يلعن جحا ويشتمه ، وأراد الخروج فوجد جحا واقفا بالقرب من الباب ، فخزى اللص ولكن جحا رحب به فسكت اللص واتجه الى الباب ليخرج فقال له جحا : اقفل الباب من فضلك لئلا يدخل اللصوص ويسرقوا ما عندنا من الذهب والنقود • فقال اللص فى غيظ شديد : الله يلعنك يا جحا والله ما طمعنى فيك الا كلامك هذا •

والغرور أيضا مرض نفسى يصيب صاحبه حين يعطى نفسه أكثر من حقها ، ويزعم أنه أقدر الناس وأذكاهم وأبعدهم نظرا •••الخ• والناس يرونه فى غروره كذابا دعيا •• ولا شك فى أن تهكمهم به نوع من القصاص منه وتأديب له وحماية للمجتمع منه ومن أشباهه •

ادعى أحد الناس أنه لا يستطيع أحد أن يخدعه أو يغشه • فذهب اليه جحا وقال له : أنت تزعم أنه لا أحد يستطيع خداعك أو غشك،

فأجاب الرجل بكل غرور : نعم · فقال جحا ولكنى قد حضرت اليك لأتحداك وأريك أنى أستطيع أن أخدعك وأظهر للناس غباوتك · فقال الرجل : لا أحد يستطيع ذلك ، واذا استطعت أنت فافعل · فقال جحا تراهننى على ذلك ؟ فقال الرجل : نعم أراهنك · فقال جحا : ان ذلك لا يكون الا فى الخلاء فتعال بنا الى هناك وأنا أريك كيف يكون الخداع · فوافقه الرجل وذهب مع جحا الى الخلاء ، وكان الهواء شديدا والسماء تكاد تمطر ، فلما بعدا عن البلدة رأى جحا من بعد رجلا يركب حمارا فقال لصاحبه : انى لا أستطيع أن أخدعك الا أمام جمع من الناس ليحكموا بيننا ، فانتظر هنا حتى أحضر النـاس حالا وسأركب الحمار خلف هـذا الرجل لأحضرهم بسرعة ، فوافقه الرجل فذهب جحا الى بيته وجلس يتدفأ وظل الرجل واقفا فى الهواء العاصف والبرد الشديد والمطر المنهمر مدة حتى مل الوقوف وأصيب بالبرد ، فلما طالت غيبة جحا وقد هجم الليل رجع المغرور الى البلدة يسب ويلعن ، وذهب الى بيت جحا يلومه على أنه تركه واقفا فى البرد والمطر والعواصف مدة طويلة فقال جحا : هذا هو الخداع يا سيدى الذكى المجرب للأمور ، اذهب لحال سبيلك واحذر أن تدعى أنه لا أحد يستطيع أن يخدعك ·

واذا كان الكرم فضيلة لها قيمتها وأثرها ، فقد كان البخل رذيلة بل نقيصة يبغضها الناس والمجتمع · وقد حفلت النوادر الجحوية بعدد كبير جدا منها ·

قال له أبـوه : هات الطعـام واقفل البـاب · فقال جحا : يا أبى ليس هذا بشرط حزم ، بل قل اقفل الباب أولا ثم أحضر الطعام ·

قال جحا لأحـد البخلاء : لم لا تضيفنى ؟ فقـال له : لأنك جيـد المضغ سريع البلع اذا أكلت لقمة هيأت أخرى · فقال جحا : يا أخى أتريد اذا أكلت فى بيتك أن أصلى ركعتين بين كل لقمتين !!

كذلك كان الشره مثارا للتهكم والفكاهة فى النادرة الجحوية :

قيل لجحا ما بلغ من طمعك ·· ؟ قال : ما رأيت عروسـا تزف الا ظننت أنها لى ، ولا رأيت جنازة تمر الا ظننت أن صاحبها أوصى لى بشيء ، ولا رأيت اثنين يتناجيان الا خيل الى أنهما يأمران لى بمعروف · ولقد كان الصبيان حولى يوما يلعبون بى فقلت لهم لأبعدهم عنى : ان فى دار فلان وليمة ، فذهبوا اليها مسرعين فلما بعدوا عنى وغابوا ظننت نفسى صادقا فتبعتهم ·

جلس يـوما مع زوجتـه فتمنى ان يهدى اليـه خروف مسلوخ ليتخـذ من الطعام لون كذا ولون كذا · فسمعته جارة له فظنت أنه أمر بعمل ما سمعته فانتظرت الى وقت الطعام · ثم جاءت فقرعت الباب وقالت شممت رائحة قدوركم فجئت لتطعمونى منها · فقال جحا لامرأته : أنت طالق ان أقمنا فى هذه الدار التى جيرانها يتشممون الأمانى ·

طبخ طعاما وقعد يأكل مع زوجته فقال : ما أطيب هـذا الطعـام لولا الزحام · فقالت زوجته أى زحام ؟ انما هو أنا وأنت · فقال : كنت أتمنى أن أكون أنا والقدر ولا غير ·

والحق أننا لو مضينا فى تتبع المثالب الاجتماعية والنفسية والخلقية للناس ··· والتى تناولتها النادرة الجحوية بسخريتها اللاذعة لطال بنا المقام · فالمكابرة والعناد والمداهنـة والرياء والجبن والنفاق والوصولية والتكاسل،والتمنى بدون عمل وأمور الشعوذة والدجل الى غير ذلك ، كانت موضـوعا خصبا للنادرة الجحوية ··· التى لم تغفل – كذلك – بعض التجارب العامة التى تصور طباع الناس السلبية التى تتنافى وقيم المجتمع ومعاييره ومثله ، فتعمل على ترسيبها فى دروس عملية · وسنذكر فيما يلى مجموعة منتقاة ، تمثل كل واحدة موقفا بذاته لكنها فى مجملها تدور حول التهكم الاجتماعى ··

كان مسافرا مع جمـاعة فنزلوا للراحـة ، ولما أرادوا استئناف السير وضع رجله اليمنى فى الركاب وقفز فجاء ركوبه مقلوبا فضحكوا منه فقال : ما لكم تضحكون ؟ ان البغلة هى التى جعلت أمامها خلفا وخلفها أماما ·

سألوه يوما : كم عمرك ... ؟ فقال : عمرى أربعون عاما . وبعد مضى عشرة أعوام سئل أيضا عن عمره . فقال : عمرى أربعون عاما . فقالوا له : اننا سألنا منذ عشر سنين فقلت : انه أربعون . والآن أيضا تقول انه أربعون ؟ فقال أنا رجل لا أغير كلامى ولا أرجع عنه . وهذا شأو الرجل الحر ، ولو سألتمونى بعد عشرين سنة فسيكون أيضا هكذا لا يتغير .

جاءه أحد أصدقائه وقال له : كنت قد وعدتنى أن تقرضنى بعض النقود فهيا أقرضنى . فقال له جحا : أنا لا أقرض دراهمى لأحد ولكنى أعطيك يا صديقى ما تشاء من وعود .

صعد المنبر يوما وقال : أيها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ؟ فقالوا : لا . قال : حيث انكم لا تعلمون ما أقول فلا فائدة من الوعظ فى الجهال ، ونزل من فوق المنبر . ثم صعد يوما آخر وقال : أيها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ؟ قالوا نعم . فقال : حيث انكم تعلمون فلا فائدة فى اعادته ثانية ، ونزل من فوق المنبر . فاتفقوا على أن يقول جماعة منهم نعم وجماعة لا ... ثم صعد مرة أخرى المنبر وقال : أيها الناس هل تعلمون ما أقول لكم ؟ فقال بعضهم نعم وقال بعضهم لا . فقال لهم : على الذين يعلمون أن يعلموا الذين لا يعلمون .. ونزل .

ادعى أنه ولى من أولياء الله ، فقالوا له : ما كرامتك ؟ فأجاب انى أعرف ما فى قلوبكم . قالوا : قل . فقال : ان فى قلوبكم كلكم انى كذاب . قالوا : صدقت .

ادعى الولاية فقالوا له : ماكرامتك .. ؟ قال : انى آمر كل شجرة فتجىء لى وتطعمنى فقالوا له : قل لهذه النخلة أن تجىء اليك فقال : تعالى أيتها النخلة . فلم تجىء . فكرر ذلك ثلاث مرات ثم قام ومشى فقالوا له : الى أين يا جحا .. ؟ قال ان الأنبياء والأولياء ليس عندهم كبر ولا غرور .. فان لم تجىء النخلة الى فأنا أذهب اليها .

باع جحا منزله واستثنى منه مسمارا فى الحائط أخرجه من البيع واشترط ألا يمنع من زيارة مسماره فى أية ساعة من الساعات لأنه عزيز عنده . فقبل المشترى هذا الشرط . وفى الصباح ساعة الافطار دخل جحا ليزور مسماره فدعاه الرجل الى الافطار . وفى الظهر ساعة الغداء أقبل جحا ليتأمل مسماره فدعاه الرجل الى الغداء . وفى الليل ساعة العشاء حضر جحا ليتفقد المسمار فدعاه الرجل الى العشاء ، وحتى فى لحظات الراحة وأوقات النوم كان جحا يأتى فجأة الى المنزل ليرى ما حدث للمسمار . وتوالت تلك الزيارات الى أن ضاق المشترى بها ذرعا ، ولكن الشرط يلزمه بأن لا يمنعه من زيارته ، فلما لم يجد حيلة تخلصه من جحا تنازل له عن المنزل جميعه ، وانتقل منه من غير أن يأخذ من ثمنه شيئا .

ومن نوادر جحا التى يلقن فيها زوجته درسا لا تنساه حيث يظهر لها أنه ليس بالساذج الغر .. نادرتان نعتبرهما من أجمل النوادر التى قيلت فى هذا المقام :

اشترى ثلاثة أرطال لحم وقال لزوجته : اطبخيها فطبختها وأكلتها مع بعض أقاربها . فجاء جحا وطلب اللحم فقالت له : ان القط أكله وأنا مشتغلة بطبخ الطعام . فأمسك بالقط ووزنه فوجده ثلاثة أرطال . فالتفت اليها وقال : يا خبيثة ان كان هذا هو القط فأين اللحم ؟ وان كان هذا هو اللحم فأين القط ؟ .

وقد يلجأ جحا الى العقاب المادى حينما يطفح به الكيل :

خلع جحا قفطانه وعلقه على المشجب فى منزله ونام وكان بالقفطان نقود ، فوضعت امرأته يدها فى الجيب وسرقت بعض النقود وجحا نائم لم يشعر بها . وفى الصباح عد جحا نقوده فوجدها ناقصة فعرف أن زوجته سرقت نقوده ، وفى اليوم التالى وضع جحا فى جيب قفطانه عقربا وخلعه وعلقه على المشجب وتظاهر بالنوم وعينه الى القفطان ، فقامت زوجته باحتراس ووضعت يدها فى جيب القفطان لتسرق النقود فلسعتها العقرب . فصرخت وبكت فقام جحا من الفراش وقال لها : أنا آسف يا زوجتى لقد نسيت اليوم ووضعت فى الجيب عقربا بدل النقود .

قيل لجحا ان امرأتك قد أضاعت عقلها ، ففكر قليلا ثم قال : أنا أعلم أن لا عقل لها فدعنى أتذكر يا ترى ما الذى أضاعته .

جحا وزوجته وابنه وحماره !!

من الدواعى الانسانية والاجتماعية عند الشعب العربى أن تكون لجحا أسرة ... تخيلها الوجدان الشعبى .. وعبر عنها ابداعه الشعبى فى النادرة الجحوية . فكان له زوجة وابن وابنة ، كما كان له أب وأم وحمارة ... واذا كان الوجدان الشعبى قد ربط جحا بهؤلاء جميعا فهو فى ذلك – كما سبق – انما يصله بأسباب الحياة ونموها من ناحية كما يمد – من ناحية أخرى – فلسفة النموذج الجحوى أجيالا متعاقبة من بعده فجحا يحاورهم بفكاهته وسخرياته وما ينطوى عليه ذلك – بطبيعة الحال – من حكمة عملية يعمل على ترسيبها ونقد اجتماعى يهدف اليه .

والابن الجحوى – كالزوجة الجحوية – يجمع بين المتناقضات ، فهو أحمق أبله ساذج تارة وماكر عنيد خبيث متحامق تارة أخرى .

وكما سبق لا يجب أن تؤخذ نوادر جحا مع ابنه مأخذ الفكاهة أو من جانبها المرح فحسب برغم طغيان هذا الجانب عليها ، أو هكذا يبدو للوهلة الأولى ، فجحا مع ابنه انما يحاول أن ينقل اليه تجربته وفلسفته فى محاورات طريفة سجلتها النوادر الآتية :

لعل نادرة « جحا وابنه وحماره » من أشهر ما أثر عن النموذج الجحوى من دروس تنشئته لابنه :

« ركب جحا مرة ومشى ابنه خلفه ومر أمام جماعة فقالوا : انظروا الى هذا الرجل الذى خلا قلبه من الشفقة يركب هو ويترك ابنه يمشى . فنزل جحا ومشى وأركب ابنه ومر على جماعة فقالوا : انظروا الى هذا الغلام المجرد من الأدب يركب الحمار ويترك أباه يمشى . فركب جحا وابنه على ظهر الحمار وسارا فمرا بجماعة فقالوا : انظروا الى هذا الرجل القاسى يركب هو وابنه ولا يرفقان بالحمار . فنزل جحا وابنه وساقا

الحمار ومشيا خلفه ، فمرا بجماعة فقالوا : انظروا الى هذين المغفلين يتعبان من المشى وأمامهما الحمار لا يركبانه · وبعد أن جاوزاهم حمل جحا هو وابنه الحمار وسارا به فمرا بجماعة فضحكوا منهما وقالوا : انظروا الى هذين المجنونين يحملان الحمار بدلا من أن يحملهما · وحينئذ أنزلاه وقال جحا لابنه : اسمع يا بنى انك لا تستطيع أن تظفر برضا الناس جميعا » ·

فكان ذلك أول درس علمه جحا لابنه : فرضاء جميع الناس حقا غاية لا تنال ·· وعلى الانسان أن يفعل ما يعلم أنه الحق والواجب ولا يبالى بسخرية الساخرين أو هزء الهازئين · هكذا يقول جحا معقبا على تلك التجربة ·

جلس جحا يوما على كرسى فى أحد المساجد ، ليعظ الناس واجتمع حوله خلق كثير وانتظروا ما يقول · فجلس ولم يفتح الله عليه بكلمة · وأصابه العى والحصر وتضايق الناس وأخيرا التفت اليهم وقال : أيها الناس تعلمون أنى غير عاجز عن الكلام · وقد أردت أن أحدثكم ولكن لم يخطر ببالى شىء · وكان ابنه جالسا بجوار الكرسى فنهض فقال : يا أبى اذا لم يخطر ببالك الكلام ، أفلم يخطر ببالك النزول عن الكرسى ؟ ·

مرت بجحا — يوما — جنازة ومعه ابنه وفى الجنازة امرأة تبكى وتقول مخاطبة زوجها الميت : الآن يذهبون بك الى بيت لا فراش فيه ولا غطاء ولا وطاء ولا خبز ولا ماء · فقال ابنه : يا أبى الى بيتنا والله يذهبون ·

بعث جحا ابنه يشترى له عنبا فأبطأ عليه حتى عيل صبره ، ثم جاءه بالعنب فضربه وقال له : أين التين ؟ فقال له الابن : لم تطلب منى تينا · فقال جحا : اذا أرسلتك فى حاجة فلابد أن تقضى حاجتين مرة واحدة · فمرض جحا فأمر ابنه أن يأتى له بطبيب ، فجاء بطبيب ومعه رجل آخر ، فسأله من هذا ؟ فقال : أما قلت لى أن أقضى حاجتين فى حاجة واحدة ؟ فجئتك بالطبيب فان شفاك كان خيرا والا فهذا الحفار يحفر لك القبر .

أما (حماة جحا) ، فهى أيضا كابنتها ذات طبع مخالف مشاكس عنيد :

ذهبت حماته تغسل ثيابها فى النهر فزلقت رجلها وغرقت ، وأسرع الناس يبحثون عنها فلم يعثروا على جثتها ، وذهبوا فأخبروا جحا فجاء الى النهر ونزل يبحث عنها فى الجهة التى ينحدر منها الماء فقالوا له : ان الجثة تتجه فى الماء نزولا لا صعودا · فهز رأسه وقال : أنتم لا تعرفون طباعها المخالفة فاتركونى فقد تعلمت طريقتها ·

وما دمنا قد تحدثنا عن أفراد الأسرة الجحوية باعتبارها نماذج مساعدة للنموذج الرئيسى لجحا ، فانه من الضرورى أن نقف هنا أيضا عند « فرد » آخر ارتبط أيضا بالنموذج الجحوى وشاركه كثيرا من نوادره ولم يكن دوره فيها بأقل من الأدوار المكملة الأخرى فى أى أدب ولا فى أية بيئة· فلم يكن يذكر جحا الا وتذكر معه ثلاث شخصيات متممة له أو ملازمة ، وهى : زوجته وابنه وحماره ·· لكل منها صفاته المميزة وخصائصه على نحو ما رأينا مع امرأته وولده ·

والحق أن حمار جحا ـ برغم ما عرف عنه من بلادة ، كان أليفا وديعا صبورا · وقد اقتناه جحا ليقضى به مصالحه وليحقق لنفسه شيئا من زينة الحياة · وجدير بالذكر أن حمار جحا كان من ناحية أخرى مشجبا يعلن بواسطته ، ويخلع عليه كثيرا من حماقات الناس وعيوبهم ··

وجد جحا فردة « حدوة » مما يستعمل فى نعال الحمير فاستبد به الفرح والسرور وقد منى نفسه بالعثور على ثلاث أخر ، وبعدها قال : الله كريم فقد هان الحصول على الحمار حينئذ ·

حينما باع خلخال زوجته وذهب يشترى به حمارا قابله رجل نحس وسأله عن سبب ذهابه الى السوق فقال لأشترى حمارا·فقال الرجل: قل ان شاء الله . لكن سماجته أغاظت جحا فقال : ولماذا تشترط على هذا الشرط والنقود فى جيبى والحمير فى السوق · ومضى جحا الى السوق فسرقت نقوده ، وفى عودته مر فى الطريق على ذلك الرجل النحس الذى ابتدره قائلا : من أين أنت قادم يا جحا ؟ فأجابه مغضبا : من السوق ان شاء الله ، وسرقت النقود ان شاء الله ، ولعن الله أباك وأمك ان شاء الله ·

جاء أحد الثقلاء يطلب الى جحـــا أن يعيره حمــاره لقضاء بعض مصالحه . وحمار جحا عزيز على نفسه ، وهو يعلم أن هذا الثقيل سينهال حتما على الحمار وصاحبه سبا ولعنا وشتما وضربا اذا ما ناء بحمله أو توقف خطوة على الطريق . فاعتذر جحا بأن أحد الأصحاب قد سبقه فاستعار الحمار لبعض مصالحه . ولم يجد الرجل مفرا من قبول العذر ، وقبيل انصرافه نهق الحمار داخل الدار ، فغضب الرجل وقال لجحا فى لهجة ساخرة : كيف تقول يا جحا ان الحمار غير موجود وهو ينهق داخل الدار ؟ فرأى جحا أن ينصف نفسه من سماجة هذا الرجل بحجة أوقع من وجهه، فقال : مهلا يا صاحبى لقد قلت قولا وقال الحمــار قولا ، فمن العيب أن تصدق الحمار وتكذب هذه اللحية المملوءة بالشيب .

وما كاد الرجل السابق ينصرف حتى جــاءه رجــل آخر يسأله أن يعيره حماره ، وتملك جحا الغيظ وخشى أن يتعلل بالحجة الســابقة خشية أن يفضحه الحمار مرة أخرى فامهل جحا الرجل قليلا ودخل الدار وخرج ثم قال له : آسف يا صديقى فقد شاورت الحمار فى الأمر ولكنه أبى أن يذهب معك وقال : انى أخدم الناس وأحمل لهم أثقالهم ثم لا أجد منهم الا الضرب واللعن . فتعجب الرجل مما يقول جحا : ثم قال : ومتى كانت الحمير تتكلم يا جحا ؟ ومتى كان لها رأى ؟ فأسرع جحا للرد : هو ما ترى وما تسمع فكم من حمير تتكلم ولها مشورة ورأى .. !

دفع جحا اللجــام ذات مرة من فك حمــاره فجمح به ولم يستطع أن يمسك زمامه ، فانطلق على غير هدى فاستسلم جحا الذى لم يكن له هم الا المحافظة على حياته من الخطر ... فرآه أحد أصحابه على هذه الحال فصاح به : الى أين يا جحا.. ؟ فقال جحا : الى حيث يريد الحمار يا سيدى مادمنا قد رضينا أن نعيش بعقل الحمير .

وهناك مقارنة طريفة بين « حمار جحا وزوجته » فى نادرة طريفة لها أكثر من مغزى :

ماتت زوجة جحا فلم يذرف عليهــا دمعة .. ثم مات حمــاره فأخذ يبكى عليه بكاء متواصلا . وأقبل الناس على جحا يسألونه وهم فى عجب

من شأنه : ما هذا يا جحا الذى أنت فيه ؟؟ ماتت زوجتك فما بكيت عليها قط ، ومات حمارك فانت فى بكاء دائم عليه • قال : وما ذنبى أيها الناس لما ماتت زوجتى أقبل هذا يقول : ان أختى يمكن أن تكون خير زوجة لك •• وأقبل ذاك يقول : ان ابنتى خير عوض عن زوجتك وانى أزفها اليك دون مقابل •• ثم مات حمارى فلم أجد أحدا من الناس يقول سأعوضك عنه بشىء • فهذه حجة الواقع يسوقها جحا من مفارقات فى طبائع الناس ، من خلال حزنه على حماره وما يجده من البون الشاسع بين أقوال الناس وتصرفاتهم •

ومن خير ما نختتم به هذه المواقف الجحوية التى تكشف طباع الناس وتقف من قيمهم ومعاييرهم موقف الناقد الاجتماعى : نادرتان تعبران عن مقولة اجتماعية ونفسية ، وهى انعدام الجانب الموضوعى فى تفكير الناس وأحكامهم حين يخضع هذا التفكير وهذه الأحكام للأهواء والمصلحة الشخصية قبل كل اعتبار ، وهى نقيصة لا شك لا تفوته على النادرة الجحوية •

أخذ من جاره « حلة » كبيرة وطبخ فيها ثم وضع داخلها « حلة » صغيرة وأعطاه اياها فقال له : ما هذا يا جحا •• ؟ قال : هى بنت « حلتك » ولدتها عندى • ثم طلبها مرة ثانية وخبأها فقال له جاره : أين « الحلة » ؟ قال : ماتت وهى تلد • فقال له : هل تموت « الحلة » ؟ فقال جحا : وهل تلد « الحلة » الذى يأخذ المكسب يتحمل الخسارة يا صديقى •

اتفق أصدقاء جحا على أنه لو استطاع أن يقضى ليلة فى العراء فى احدى ليالى الشتاء ، فانهم يقيمون له مأدبة •• على ألا يتدفأ بنار ، فان لم يستطع لزمه أن يقيم لهم مأدبة ، فوافق جحا وسهر الليلة فى العراء وهو ينقل بعض الأحجار من موضع الى موضع ليدفىء نفسه،وفى الصباح أقبل عليه أصدقاؤه وسألوه : كيف استطعت ان تتحمل البرد ؟ فقال مازحا كعادته : انى رأيت شعاعا من الضوء على بعد ميل فاستدفأت به • فصاحوا جميعا بخبث فى نفس واحد : لقد نقضت الشرط يا جحا ووجب عليك أن تقيم المأدبة•وعبثا حاول أن يقنعهم فلم يصدقوه ، واتفقوا على أن تقام

بعد ثلاثة أيام . وفى اليوم المحدد حضروا وانتظروا الغداء . ومضى الظهر وجاء العصر ولم يقدم لهم الطعام فقالوا له : لماذا تأخرت بالغداء ؟ فقال تعالوا لأريكم أنه لم ينضج بعد . فقاموا معه الى ساحة البيت ، فرأوه قد علق قدرا فى أعلى النخلة ووضع على الأرض مصباحا صغيرا . فصاحوا به : هل يعقل أن يغلى هذا القدر بهذا المصباح الصغير من هذه المسافة بينهما .. ؟ فقال جحا لهم : ما أسرع نسيانكم ، منذ ثلاثة أيام زعمتم أنى تدفأت بشعاع على مسافة ميل ، واليوم تنكرون أن يغلى القدر على مسافة أذرع من شعاع المصباح ! .

ومجمل القول ، ان جحا لا يذكر فى أى أدب ولا فى أية بيئة اسلامية (عربية ، فارسية ، تركية) الا وتذكر معه ثلاث شخصيات رئيسية متممة لشخصيته الفنية وهى زوجته وولده وحماره ، فلم ينفرد بها النموذج العربى .. وكل من هذه الشخصيات الثلاث نمط أو نموذج فنى متميز بكثير من الخصائص والمفارقات ، بحيث تعد (شخصيات نمطية جاهزة) عرف كيف يستفيد منها بعض أدبائنا — بالفعل — فى أعمالهم الفنية المعاصرة .

وجدير بالذكر ان أغلب هذا النوع من النوادر الاجتماعية لا يزال يتردد أكثر من نوادره السياسية بصورة لافتة للنظر ، اذ لا تزال الألسنة تتناقلها وتتمثلها ، وخصوصا تلك التى تدور حول العلاقات الزوجية غير المتكافئة وسلوك الأزواج وزوجة الأب ومناكفات الضرة ، فى صورة « حواديت » أكثر الحديث فيها يدور « مكشوفا » ، اذ يختلط الأمر كثيرا بين جحا وبين أبى نواس الشاعر الاباحى المعروف ، وكذلك نوادر النموذج الجحوى مع حماره مما تشيع بكثير أيضا فى الريف وتكشف عن جوانب الغفلة فى الناس بوجه خاص . كما يؤكد أيضا اكبار الناس هناك لهذا الحيوان الوثيق الصلة بمصالحهم وحياتهم .

★★★

وهكذا نجد الشخصية الجحوية — فى التراث الثقافى الاسلامى كله — مرنة تستطيع التكيف مع كل المواقف والمفاجآت ، فجحا أقرب الى القاضى العادل الذكى مرة ، ومرة أخرى تجده متهما ذكيا بارعا فى الافلات

من التهمة ، وأحيـانا نجده أبله يثير الضـحك والرثاء أو نجده متحامقا خبيثا .. وهذا كله يمكنه من نقد الأوضـاع الاجتماعية والسياسـية السائدة فى مجتمعه ...

فلقد كان جحا من أدباء الفكاهة المنوعين ، فقد استخدم النادرة فى النقد والهجوم والحكمة والقصة : فكل نادرة من جحا تعتبر قصة فى ثلاثة أو أربعة سطور منها الحوار والبناء والفكرة والهدف .

وليس غريبا أن يجتمع الكبار والصغار حول شخصية جحا ، المثقفون والبسطاء ، الجادون والمرحون ، حيث تمتع شخصيته كل هذه النوعيات من البشر بتراثها وخصوبتها واستعدادها الدائم لوضع الابتسامة على شفاه الآخـرين .

بل ان نوادر جحا وشخصيته وحياته قد الهمت بالخيال القصصى العديد من الأدباء والمفكرين فى كل بلاد العـالم ، وأصبح جحا مضربا للأمثال فى كل المواقف : للخير والاصـلاح والحكمة .. وأصـبح مادة الاضحاك للتسرية عن النفوس .

بيرينيس

جاك راسين

١٦٧٠م

راسين (١٦٣٩ ــ ١٦٩٩)

« جاك راسين » شاعر مسرحي فرنسي يعتبر أحد أعظم المسرحيين الكلاسيكيين في تاريخ الأدب العالمي كله .

كان يصغر منافسه العظيم كورني (١) بنيف وثلاثين عاما . ولد في بلد قريب من « سواسون » . وماتت أمه ثم مات أبوه وهو لم يزل في طفولته ، فكفله جداه وربياه تربية كاملة حتى أتم دراسته . ولبث بضع سنوات وهو في حيرة : أى طريق يختار في حياته . أما ذووه فقد أرادوا له وظيفة دينية تدر عليه كسبا عظيما . وأما هو فكان بطبعه نفورا من مثل هذا ، وأخيرا شاء له الحظ الباسم أن يشفى الملك من مرض ألم به ، فكتب شاعرنا قصيدة في ذلك صادفت اعجابا ، فأجرى عليه راتبا يكفيه . وكان له اذ ذاك خمسة وعشرون عاما من عمره . وفى السنة نفسها أخرج مسرحية « مأساة طيبة » ، ثم لبث بعدها ثلاثة عشر عاما يخرج المسرحية تلو المسرحية . وكان « راسين » يحظى عند الملك وتابعه بمكانة ممتازة . أما عند المختصين بالنقد الأدبي فكان هو وكورني يتنافسان في الزعامة ، ففريق يؤثر هذا وفريق يفضل ذاك ، ومن بين مآسيه « الاسكندر الأكبر » و « أندروماك » التى ارتجت لها باريس ، كما ارتجت منذ احدى وثلاثين سنة لمسرحية كورني « السيد » ، فقد ظهرت في هذه المسرحية خصائص راسين ودلائل نبوغه ، وأعقب هذه المأساة ملهاة « المترافعون » التى سخر فيها بالقانون سخرية لاذعة . ثم أخرج بعد هذه الملهاة ست مآس ، هي : « برتانكيس » و « بيرينيس » و « بايزيد » و « متريدت » و « أفجينيا »

و « فيدر » .. وفشلت هذه الأخيرة حينا فاضطربت لهذا الفشل نفسه الحساسة التى لم تكن تحتمل النقد ، فنفض يديه من الأدب المسرحى ، وتزوج وعاش عيشـــا هادئا دام عشرين عاما ، ولم يكتب بعـد ذاك الا مسرحيتين تصطبغان بصبغة دينية ، كتبهما بدعوة من « مدام مانتنون » لتمثلهما الطالبات فى معهدها ، وهما « استير » و « آتالى » .

كان « راسين » من أولئك الشعراء الذى وهبهم الله قدرة الابتكار فى الموضوعات ، لكنه وهبهم قدرة أخرى فى ســعة وافراط ونعنى بها قدرة النسج على منوال موجود والكتابة على غرار مثل ونماذج سبقت الى الوجود ، ويحضرنـا من هذا القرن من الشعراء « فيرجيـل » فى الأدب الرومانى القديم ، و « بوب » فى الأدب الانجليزى فى مستهل القـــرن الثامن عشر . ولهذه الطائفة من الشعراء قدرة عجيبة على تناول النماذج الأدبية بالتعديل والتبديل بحيث تلائم ملكاتهـــم ، وكثيرا ما يسمون بما ينتجونه عن النموذج المحتذى. فأمثال هؤلاء الشعراء يستحيل وجودهم بغير سلف يضرب لهم المثال ، ثم يكاد وجودهم يستحيل كذلك بغير ناقد معاصر يأخذ بأيديهم ويهديهم سواء السبيل . وكان راسين محظوظا فى السلف الذى يحتذيه ، كما كان محظوظا فى الناقد الذى يهديه ، أما سلفه الذى شق له الطريق وظل يعبده له ويمهده ثلاثين عاما فهو « كورنى » ، وأما ناقده المرشد الهادى فهو « بوالو » الذى وهب القـدرة على الهداية والارشـــاد .

لهذا جاء « راسين » فى فن المأساة الاتباعية ماهرا بارعا صناعا ، وكانت دقة الصناعة أروع ما فيه ، فالقواعد الصـــارمة التى ضجر بها كورنى وأشقته بعبثهـــا لاءمت « راسين » وطابقت فنه وميوله ، فقد التزمها وراعى أصولها ، لا كما يلتزم الانسان قانونا مفروضا عليه من قوة خارجة عنه ، بل كما يطيع الفنان رغبة فطرية وميلا طبيعيا يصدر عن النفس فى غير حرج ولا ضيق ، فلست ترى فى مسرحياته تفصيلات معقدة

وتشعبات مركبة لمجرى الحوادث ، لأن المثل الأعلى الذى كان يرمى اليه ووضعه نصب عينيه هو تركيز الانتباه والمجهود فى موضوع بسيط لا تتشعب منه الفروع • وعنده أن كثرة الحوادث فى مسرحية ما — تلك الكثرة التى يبتكرها الكاتب المسرحى ليظفر بانتباه النظارة — ليست دليلا على خصب الخيال بمقدار ما هى برهان على نضوب العبقرية وافلاسها ،. فالشاعر مستطيع — فى رأى راسين — أن يمسك من النظارة انتباههم ، ويسترعى التفاتهم بحيث لا يفتر ولا يزول خلال فصول المسرحية الخمسة « بحوادث بسيطة تؤيدها العواطف الحادة والمشــاعر الجميلة والتعبير الرشيق » • وبناء على رأيه هذا فى المسرحية ، تراه يختار لروايته أزمة نفسية واحدة تكون عواطف الأشخاص عنــدها فى قمة الحدة ، وتكفى لديها الحادثة اليسيرة لتستتبع الكارثة• ولئن كانت مسرحيات « كورنى » تعالج الصراع النفسى الذى تنشب دوافعه فى طوية الشخص ودخيلتــه دون صراع الشخص مع الحوادث الخارجيــة المحيطـة به ، فقـد كان « راسين » فى هذا الاتجـاه أبعد مدى ، فالحوادث الخارجيــة عنــده لا قيمة لها فى ذاتها ، وكل قيمتها أنهـا سبب أو نتيجة لما تضطرب به نفوس أشخاصه من العواطف المصطرعة • ثم يختلف راسين عن سلفه كورنى فى أنه جعل الحب دافعـا رئيسيا فى سلوك أشخاصه ولم ينظر اليه نظرته الى الحافز الثانوى التافه كما فعل كورنى ، ولكنه بالطبع لم يقصر الحوافز على الحب ، بل أفسح المجال هنا وهنالك لغيره من الدوافع كالولاء والطموح ، على أنها هى العوامل الثانوية ، الى جانب الحب • ففى كل مسرحية من مسرحياته مشكلة غرامية ، وتكاد مشكلاته الغرامية تتخذ صورة واحدة ، فشخص يحب شخصا لا يبادله الحب لأنه يحب ثالثا وما يتبع ذلك الموقف العاطفى المعقد هو موضـــوع المسرحية ، لكن هذه المشكلة الواحدة التى لا تتغير فى جوهرها تتخذ فى المسرحيات المختلفة صورا متباينة بتفصيلاتها • وقد كان طبيعيا مع هذا الاختلاف بين راسين وكورنى ، فى نظرتهما الى الحب ، أن يكون راسين أنجح من سلفه فى تصوير النساء ، بل لم ينجح راسين فى تصويره الرجال بقدر ما وفق وأجاد فى تصوير النســاء •

وظاهرة أخرى نلاحظها فى أدب راسين وهى أنه يميل الى تصوير الواقع ، وهنا قد يختلط الأمر على القارىء ، اذ يراه فى مسرحياته يرسم عالما أبعد ما يكون عن هذا العالم الذى نعيش فيه ، لكن النظرة الفاحصة سرعان ما ترد الأمر الى الصواب ، فلقد كان (كورنى) ينزع بطبعه الى اختيار الشواذ ، ثم يحيطهم بالمواقف الشاذة ، فتكون العواطف الناشئة فى نفوسهم عن تلك المواقف شاذة أيضا. أما راسين فيختار من الأشخاص والمواقف والعواطف ما يطابق الطبيعة البشرية ، ولا عبرة بعد ذلك بأى الأشخاص والمواقف يختار . انه لا يميل الى المبالغة والتهويل اللذين نلمسهما فى كورنى ، لأن المبالغة من خصائص الأدب الابتداعى ، وراسين اتباعى صميم ، فلا مبالغة ولا اسراف فى تصوير الناس ووصف ما تجيش به صدورهم ، قد يختار راسين موقفا من عهد غابر وأشخاصا انقضى زمانهم ، لكن ليتخذ منهم وسيلة يبرز بها الطبيعة البشرية ، كما نعهدها بقوتها وضعفها فى الحياة الواقعة التى تحيط بنا .

ننتقل الآن الى مسرحية راسين « بيرينيس » فنرى الأمر كالنقيض مع نقيضه ، فالمأساة كلها تقع فى غرفة واحدة صغيرة ، وحوادث المسرحية تتطلب لحدوثها فى عالم الواقع زمنا لا يكاد يزيد على زمن تمثيلها (ساعتين ونصف الساعة) وأشخاص الرواية عددهم ثلاثة ، وموضوع المسرحية نقطة بسيطة لا تعقيد فيها ولا تشعب،فعجيب أن يؤلف راسين من هذه المواد القليلة مأساة ، وأعجب من ذلك أن يبلغ فيها غاية التوفيق، فاهتمام النظارة بالمسرحية لا يفتر ، والموقف البسيط يبدأ عرضه وتطوره ثم يبلغ ختامه فى سرعة شديدة ودقة فنية بارعة : فالكاتب لا يحذف من الموقف عنصرا واحدا من عناصره الرئيسية ولا يضيف اليه عنصرا أو تعقيدا فى مجرى الحوادث ، وكل اعتماده فى التأثير على النظارة انما ينحصر فى طريقة علاجه لعدد قليل من المشاعر الانسانية يتفاعل بعضها مع بعض ، ولا تكاد تحس فى الرواية أثرا للعالم الخارجى الواقع . وكل ما يقدمه اليك راسين من حوادث العالم الخارجى أنه يشعرك – بفنه الرائع العجيب – أن وراء الأزمة النفسية الهادئة التى وقعت فى تلك الغرفة الصغيرة مؤثرات فى العالم الخارجى تلعب دورها وتفعل فعلها . فالقوة

التى فصلت بين الحبيبين أمر من أولى الأمر وواجب للدولة يجب اداؤه ، فاذا ما جاءت الساعة الفاصلة رأيت المحب (تيتوس) يتردد قليلا ثم يختار لنفسه أداء واجبه مؤثرا ذلك على بقائه الى جانب حبيبته . وما الحافز له فى اختيــاره الا كلمة واحدة ينطــق بها هى « روما » ، فبهذه الكلمة الواحدة يستغنى عن الخروج بك من الغرفة الضيقة الى العالم الفسيح الذى يجول بك شيكسبير فى رحابه .

بيرينيس .. بين الحقيقة والخيال !

وبين الشعراء والمؤرخين خلاف فى سرد حوادث القصة ، فالأولون يستهلون الوقائع من شــــاعريتهم ، بينما يلجأ الآخرون الى التـــاريخ يستقصون حقائقه ووقائعه ، بعيدا عن المؤثرات الشاعرية والانفعالات العاطفية .. وسنبدأ بتقديم عرض للقصة كما صورها الخيال الشاعرى ثم نعقب عليه بموجز لحياة بيرينيس الواقعية كما سجلها التاريخ .

الفصل الأول : ملكة الشرق

غــادرت بيرينيس ملــكها فى فلســطين لتعيش الى جــانب حبيبها ومعبودها « تيتوس » فى روما .. وكان تيتوس وليا لعهد الامبراطورية الرومانية ـ بعد أن خلف أبوه الامبراطور « فسباسيان » سلفه الطاغية « نيرون » على عرش الامبراطورية . وكان الابن بحكم ولايته للعهد حرا مطلق التصرف ، يفعل ما يشتهى دون رقيب أو حسيب من القانون .. فقد كانت روما لا تفرض رقابة قاسية الا على شخص الامبراطور الذى كان « مفروضا » أنها تلزمه باحترام القانون وعدم الخروج عليه .. وماذا كان قانون روما ؟ وأين كانت « قدسيته » يوم عبث به نيرون ومرغه فى الوحل .. لكأن العبث كان جائزا فى « روح » القانون أما نصوصه فواجبة الاحترام والتقديس .. !!

وعليه ، فقد ظل تيتوس ينعم ويرتع فى حب بيرينيس ويصب منه ما شاء .. فهو لم يزل وليا للعهد .. هكذا يقول القانون .

وفجأة تغيرت الظروف : فقد مات الامبراطور فسباسيان خليفة نيرون ووالد تيتوس .. واذا بولى العهد يصبح امبراطورا فيقيد ذلك حريته ويحد منها ، بل ويعصف بها .. فلقد خرجت التقاليد من مكامنها وكشر القانون عن أنيابه ، ان سيد روما لا يستطيع أن يكون سيدا على قلبه .. حتى لو أراد أن يتزوج « شرعيا » من محبوبته .. لأن القانون الرومانى يحرم على الجالس على عرش الرومان أن يتزوج من أجنبية .. وأية أجنبية ؟ أجنبية سيئة السيرة جاءت من الشرق لتجلس على عرش الرومان .

بل ان روما تطالب بأن ترحل هذه « الأجنبية » ، وتغادر البلاد فى الحال ، فماذا يفعل تيتوس العاشق الولهان ؟ لقد تركت بيرينيس ملك الشرق كله وضحت بتاجها لتعيش الى جواره وتنعم بحبه ! .. وهو يحبها حبا جارفا ، برغم فارق السن الكبير بينهما — اذ كانت هى قد جاوزت الأربعين من عمرها وهو لم يزل فتى يافعا عارم الفتوة والشباب ..

نعم على بيرينيس أن تغادر روما وفى الحال !

كيف ينقل الامبراطور الشاب هذا الخبر المشئوم اليها ؟ لقد تذرع بادىء الأمر بذريعة الاعتكاف .. فظل ثمانية أيام منقطعا عنها لا يراها .. قضاها فى حداد مر ومأتم مقيم .

ولكن متى كان انقطاع حبيب عن حبيبته ثمانية أيام أو ثمانية شهور يعنى فصم عرى الحب بينهما ؟ .. ليت ملكة الشرق تفهم فتوفر عليه الكثير من الألم الذى سيعانيه عندما يرى نفسه مضطرا لأن يكشف لها بنفسه النقاب عن الحقيقة المفجعة..ولكنها لا تفهم..وليس من الميسور عليها أن تستنتج أمرا هو أبعد الأمور احتمالا .. انها عمياء ..صماء ..لأنها تحب ... والرجل حتى لو كان امبراطورا يحس بضعفه فى غمرة الآلام ، وهو يستشعر حاجة ملحة لأن يسند فى الشدائد رأسه التى تحمل التاج ، الى كتف امرأة ! ولعل هذه هى أعلى مراتب الشرف التى ترفع الانسانية المرأة اليها ، عندما تجد القوة المهزومة والشجاعة المغلوبة ملاذها ومعقلها فى المخلوقة « الضعيفة » التى خلقت لنحميها نحن الرجال

الأقوياء ، لا لنلتجيء اليها كي تحمينا هي !٠٠ والتى خلقت لندفع عنها نحن الرجال الأقوياء عوادى الزمن ، وليس لتدفع هي عنا غوائل الأيام ! وان تيتوس لمكتئب حزين ٠٠ فما لهذه المرأة تعمى عن اكتئابه ولا تفطن الى حزنه ؟ ٠٠ وهذا الاعتكاف الذى يعتصم به ألا يشككها فى الأمر ؟ ٠٠ أم لعله يخلو بنفسه بعيدا عنها ليبكى أباه ؟ ٠٠ ان كل شىء يجوز وكل احتمال ممكن الا أن يكون تيتوس قد فكر فى التفريط فيها ٠ ان الحب يبعث على الثقة ، وان ثقتها فى « تيتوس » ليس لها حد ٠٠ انه فى خلوته لا شك دائم التفكير فيها ، والدليل على ذلك أنه — بوصفه امبراطورا — أمر بتغيير معالم ملكها فى الشرق وتوسيعه ٠٠ ولو فكرت المسكينة ، لأدركت أن توسيع رقعة ملكها فى الشرق كان من جانب الامبراطور بمثابة تعويض لها عما ستفقده قريبا ، وان مثله فى ذلك مثل العاشق الذى يغرق معشوقته بالهدايا الثمينة قبل أن يقطع صلته بها ٠ ولكن مبدأ « التعويضات » لا وجود له فى دنيا الحب الصاخب العنيف ٠٠

ترى كيف علمت ملكة الشرق بالخبر المفجع ؟ ٠ كان الملك « انتيوكوس » يحب بيرينيس حبا شديدا ظل مكبوتا فى صدره خمس سنوات لم يجرؤ أثناءها على البوح لها بكلمة عنه ٠٠ وكيف يجرؤ كائن من كان على الدنو من معشوقة « تيتوس » التى تحبه وتعبده دون سواه ؟ غير أن ملكة الشرق لم تكن غافلة عن حب « انتيوكوس » الصامت ، فقد كانت امرأة مرهفة الحس واسعة الادراك كاملة النضوج ٠٠ ولكن حبها لتيتوس كان من القوة بحيث لم يدع لها مجالا حتى لمجرد الاصغاء الى صوت آخر غير صوته ٠٠ فما الذى جد فجعل « انتيوكوس » يميط اللثام ويجرؤ على مطارحتها الهوى فى غير خوف ولا تردد ولا حياء ؟

ويحك أيتها التعسة ٠ ألا تفهمين ؟ وكيف السبيل الى ايضاح الأمر لك ؟ وهل تعمى بصائر المحبين وتصم آذانهم ، فلا يرون الا الحب ، ولا ينصتون الا الى أنغامه ٠٠ وما عداه فهو هراء وكذب وخيالات وأوهام ؟ ٠٠ ان « انتيوكوس » يعلم بالخبر ، ويعلم صرامة القانون الرومانى الذى يحتم على الامبراطور أمورا ليس عنها محيد ٠٠ ومنها

بل على رأسها أن يهجر بيرينيس الى غير رجعة ... واذن فالفرصة مواتية للعاشق القديم الجديد .. فما عادت هناك عقبات تعترض سبيله .. وعليه فها هو يبوح لها لأول مرة بحبه فى غير خفاء أو التواء .

أما هى فقد أفسحت له من صدرها وتركته يهرف بما يريد أن يقول . ماذا يضيرها أن تسمعه أو تسمع سواه ؟ فاذا كان يسعده أن يقول لها انه يحبها فليسعد .. ولكن هيهات أن ينال من شامخ حبها شىء يقوله أو يأتيه هذا المخلوق أو غيره من خلق الله أجمعين . انها تحب تيتوس ولقد هممت عدة مرات بأن توقف محدثها عند حده .. ولكنها خشيت أن تؤلمه .. انها امرأة سعيدة فى غرامها واثقة مطمئنة فى حبها .. والسعادة اذا وزعت على الآخرين تدفق ينبوعها وفاض ، واذا حبست عن الناس جف معينها وغاض ! .

يا للمسكينة ! . انها ترثى لحال « انتيوكوس » وهى لا تعلم أنه هو الذى يرثى لحالها .. لأنه يراها أحق امرأة بالرثاء على وجه الأرض .

ولكن صمت « تيتوس » قد طال .. وانزواءه أصبح مبعث قلق فى نفسها ، وفى نفس وصيفتها والأمينة على سرها « فينيس » .

لقد ارتفع راسين الى مرتبة الاعجاز فى هذا الفصل ، الذى يرينا فيه الحب بأوهامه وخيالاته فى صورة رائعة ليس لها مثيل .. يرينا بيرينيس فى صورة المرأة التى يعميها الحب عن رؤية أى شىء ، فلا تريد أن تصدق الا الأمور التى تؤكد وجود حبها وبقاءه واستمراره .. ومن ورائها الحقيقة البشعة الكالحة تتعقبها وتلاحقها فى كل مكان ، وهى لا تراها بل تفر منها .. وكأنها طريدة تلوذ بغابة تتساقط أوراقها بينما يترصدها الصائد ليرديها عما قليل برصاصة فى ظهرها فتخر صريعة مضرجة بدمائها ، ثم تلفظ أنفاسها وهى ما تزال .. لا تدرى .. !

اللقاء المحتوم !

فاذا كان الفصل الثانى ، ظهر « تيتوس » على مسرح الحوادث .. ونراه يستوضح صفيه والأمين على سره « بولان » رأى روما فى زواجه

المستحيل من بيرينيس كأنه يجهل روما وقانونها ، ولكنه كان فى حاجة الى توكيد جديد ، ففى التوكيد راحة تبرر مسلكه الغشوم أمام قلبه وضميره ٠

انه ما يزال يجفل من مواجهة ملكة الشرق بالحقيقة المروعة ، مع أنها امرأة لا حول لها ولا طول ٠٠ ألا ما أعظم سطوة الحب وما أشد بأسه !!٠٠ ونسمع تيتوس يردد مكتئبا : « اننى أجد منها الجمال والاباء والفضيلة كاملة ٠٠ وأنا أراها كل يوم بلا استثناء منذ خمس سنوات كاملات ٠٠ ومع ذلك فاننى فى كل يوم ألقاها ، يخيل الى أننى أراها لأول مرة » ٠

٠٠ ويمعن تيتوس فى الفرار منها ٠٠ حتى اذا عيل صبرها أرسلت فى طلبه ٠٠ فجاء اليها ٠

وها هما الآن معا وجها لوجه ٠٠ صامتان لبرهة قصيرة قطعتها بيرينيس بعتاب رقيق وجهته الى حبيبها ، لأنه أجزل لها المنح والعطايا ، بينما هو يعلم أنها لا تطمع فى شىء من متاع هذه الدنيا ، ولا تصبو الا الى حبه كاملا دائما الى الأبد ٠ انها تريده أن يمنحها قلبه وحبه ٠٠ وأن يلقاها كل يوم لأن لقاءه يساوى عندها ملكا يضم أركان الفضاء الأربعة ٠٠ وتطور العتاب الى ضراعة ملتهبة فقالت له : « أنت تعرف جيدا أننى سأموت فى اليوم الذى يحول فيه بينى وبينك حائل أو يقف بيننا انسان » ٠

٠٠ وهنا هم تيتوس بمقاطعتها اذ لم يعد فى مقدوره أن يسمع منها أكثر مما سمع ! ان أحشاءه لتتمزق وانه ليحس بقلبه وقد أطبق عليه الألم بفكيه حتى ليكاد يخمد أنفاسه ٠٠ هم بمقاطعتها ٠٠ وهم بالكلام ٠٠ ولكن الكلمات جفت فى حلقه ٠ أتراه قادرا على أن يوقع فى مواجهتها الحكم باعدامها ؟ انه ليرتجف كلما تصور شناعة ما هو مقدم عليه ٠٠ انه باطاعته روما سيسحق قلبه ، ولكن سيوقف دقات قلب المرأة التى ملكت عليه شغاف هذا القلب ٠٠ وكيف يجرؤ على أن يغمد فى هذا الصدر الجميل هذا النصل المسموم ؟ ٠٠ أيقتلها ويتركها مضرجة بدمائها ويفر كالجبان ٠٠ لا انه لا يستطيع ! انه لا يستطيع !

لقد خانته شجاعته ٠٠ وخذلته قواه ٠٠ ففر من وجهها دون أن ينطق ببنت شفة ٠

والآن ، ها هى تتخبط فى دياجير الظلام من جديد : لماذا هرب منها الامبراطور ؟ أهو غاضب منها لأمر ما ؟ أهو حانق عليها لوزر ارتكبته ؟ انها لتدرك الآن طرفا من الحقيقة وتعرف لماذا هو غاضب محنق ، انها قد أفسحت صدرها لأنتيوكوس منذ أيام ليبثها هواه ٠٠ لاشك أن هذا هو سبب غضب الامبراطور ٠٠٠ وانها لتعترف بأنها قد اقترفت بفعلتها اثما كبيرا ٠٠ ولكن ما أسعدها بما اقترفت من اثم ! ٠ ان حبيبها « تيتوس » يغار من « أنتيوكوس » ، انه يغار ، فهو اذن عاشق ولهان ٠٠ فما أسعدها بغيرته ٠٠ وغضبه وثورته ! ٠

وتسدل الستار على الفصل الثانى ٠

ما بين الامبراطورية والحب

الواجب ٠٠ فوق الحب !!٠

كيف أتم راسين الفصول الثلاثة الأخرى ؟

ان تدرج الحوادث وتسلسلها أصبح الآن سهلا ، فبعد فترة التخيل جاءت فترة الشك ٠٠ وكان يتعين على بيرينيس أن تعرف الحقيقة ٠٠ وحين ترفع الستار عن الفصل الثالث ، يرينا راسين كيف قابلت ملكة فلسطين الصدمة وكيف تلقت الطعنة النجلاء !٠٠ لم يكن فى وسع الامبراطور أن يأتى عملا يخل بالشرف الامبراطورى ٠٠ فلم يخطر له على بال أن يتنزل عن ملكه ويترك عرشه من أجل المرأة التى يحب ٠٠ ان شرفه الامبراطورى يأبى عليه الهرب من تبعات الملك لأى سبب من الأسباب ٠٠ فلم تكن هناك اذن معركة محتدمة بين الامبراطورية والحب ٠٠ ولم يكن هناك صراع قائم بين الواجب والقلب ٠٠ فقد كان القرار الحاسم متخذا من أول الأمر ، وهو أن الامبراطورية والواجب والقانون مفضلة على كل

ما عداها من اعتبارات ... وانما معركة الصدام كانت محتدمة حول أمر آخر هو : كيف يتم رحيل بيرينيس ؟ .

هنا يتأرجح التاج على رأس الامبراطور حتى ليكاد يهوى على الأرض، اذ يظهر أمام الحب رجلا حائرا مضعضع العزيمة لا يقوى على مواجهة هذه العاطفة .. بل هذه العاصفة ! .. كيف ترحل بيرينيس دون أن يورده هذا موارد التهلكة ؟ انه لايبدو هنا ملكا بل رجلا مسكينا وضع القدر في يده مطرقة فجعل يدق بها قلبه حتى حطمه .. وانه ليرتعد فرقا عندما يتصور الألم الذى سيحل بغيره من جراء فعلته ، فهو لذلك يريد أن تلفظ فريسته أنفاسها الأخيرة بعيدا عنه .. فلا يرى مصرعها بعينيه ولا يسمع حشرجتها الذبيحة بأذنيه !

انه الجبن الذى يستحوذ على الرجل اذا ما اضطر الى الانفصال عن المرأة التى يحب .. فلتمت بيرينيس ما دام لا يسمع آهاتها وأناتها .. فلو طرقت سمعه هذه الآهات والأنات فقد يخر صريعا !.

اذن ماذا يصنع ؟

كان نذلا فيما صنع .. اذ كلف بهذه المهمة آخر شخص فى الوجود كان يجب أن يكلف بها وهو « انتيوكوس » ... فقد كان يعلم أن هذا الرجل يحب بيرينيس ، وأنه طارحها الهوى وصارحها بغرامه .. فخيل اليه أنه سيكون أرق من سواه حنوا عليها ، ورعاية لها لأنه يحبها .. فهو سيتجنب ايلامهـا ، ويسهر على راحتها .. واذن فليقم « انتيوكوس » بابلاغها القرار المشئوم وليصطحبها بعدئذ الى ملكها فى الشرق بعد أن تخلع عن عرش حبها فى الغرب !

أما «انتيوكوس » فقد قبل المهمة التى كلف بها عن طيب خاطر .. وانه ليصعب علينا أن نميز أى الرجلين أكثر ضعة من الآخر ؟.. وما أحقر الرجال وأضأل أقدارهم أمام امرأة محطمة !! .

وأبلغ « انتيوكوس » الأمر الى « بيرينيس » ..

واذ أفاقت المرأة من الغاشية ، أصرت ألا تنصاع لأمر صادر اليها « نقلا » عن الامبراطور .. انها لن تنفذه الا اذا سمعته من فمه مباشرة ، وبغير وسيط ، انها لن تغادر روما الا اذا أمرها هو نفسه أن تغادرها .. فليخرج « تيتوس » من مخبئــه ، وليقــل لها ما يريــد .. فان الحب لا يعرف الخوف ولا الكذب ولا النفاق !

المحنــــة الرهيبـــــة !

فاذا كان الفصل الرابع ، نرى بيرينيس متهدمة متهاوية متهالكة بعد أن عرفت مصيرها المشئوم .. المحتوم .. لقد علم تيتوس باصرارها على لقائه ومواجهته فأجابها الى ما تطلب .. وكان وهو فى طريقه اليها يتمتم بالعبارة الآتية : « لقد طعنت قلبا أعبده ويعبدنى » .

ماذا لو أبقى عليها ... ولكن كيف السبيل الى خرق القانون ؟ .. لم يبق الا أن يلف حبل المشنقة على عنقه أو عنق الملكة ! .

وها هى بيرينيس معه الآن وجها لوجه .. يالهول الموقف ! . ماذا تراه مستطيعا أن يقول ، انه لا يلبث أن يضرع اليها بأن تساعده فى مهمته الشاقة وتشــد من أزره فى محنته القاســية .. ويذكرهـا بأنها « ملكة » فواجبها يحتم عليها أن تتصرف التصرف اللائق بالملكات .. وعندئذ توجه اليه الملكة عتابا رقيقا خليقا بالملكات اللواتى عرفن كيف يجلسن وقورات على عرش الحب .. وها هو يحاول الدفــاع وتلمس المعاذير ، ولكن ما جدوى كل هذا ؟ لقد قضى الأمر ، ونفذ سهم القدر المسموم الى صميم الأحشاء .

وقالت بيرينيس انها ستطيع أمر مولاها .. وستنفذه .

ولم يسجل التاريخ لحظة وداع رهيبة كتلك اللحظة التى ودع فيها هذان الحبيبان أحدهما الآخر .. لقد كانت نفسا انشقت نصفين ... أنصت الى هذه العبارات التى فاهت بها بيرينيس وهى تودع تيتوس :

« اننى لا أستطيع الاصغاء الى شىء بعد الآن ٠٠ فوداعا الى الأبد ٠٠ آه يا مولاى ! لعلك تقدر فى عقلك مقدار ما فى هذه الكلمة من قسوة وبشاعة عند الذى يحب ٠٠ ترى الى أى غور سوف نغوص فى الألم معا بعد شهر أو بعد عام من هذا الفراق ؟! لتفصلنى عنك البحار الشاسعة والمحيطات يا مولاى ، فاننى سأظل برغم ذلك مقيمة على حبك ٠٠ واننى لأسائل نفسى ما معنى شروق الشمس وغروبها وابتداء اليوم وانتهائه ، اذا لم ير فيه تيتوس حبيبته بيرينيس ٠٠ وترى فيه بيرينيس حبيبها تيتوس ؟! » ٠

وما كادت لحظة الوداع تدنو ، حتى خطر للامبراطور خاطر جديد : أيبق القانون محترما مصونا من كل عبث ٠٠ انه لا يفكر فى الانتقاص من هيبته ٠٠ والآن ماذا لو ترك القانون مهيبا مقدسا فى روما وتبع بيرينيس الى حيث هى ذاهبة ؟ ان القانون يجبرها هى على الرحيل ولكن لا يجبره هو على البقاء !!

٠٠ لكنه ما كاد يشرع فى تنفيذ فكرته ، حتى أصدر اليه مجلس الشيوخ الرومانى أمرا بألا يغادر بلاده ٠٠ انه ليس ملك نفسه بل ملك بلاده وشعبه ٠٠ وعليه فالقانون يأمره بألا يحب ولا يشعر ولا يتألم ٠٠ ولا يغادر بلاده بل يبقى فيها جسدا بلا روح وجثة هامدة على عرش من ذهب وماس !

وهنا يتدخل « أنتيوكوس » منافقا مداهنا كعادته ، وقد كادت الشفقة على الحبيبين تقتله حسرة وألما ، يتدخل ليقنع الامبراطور بأن يرافق الملكة ويسهر على راحتها ٠٠ ولكن تيتوس يعود فيرفض ويصمم على البقاء فى عاصمة ملكه ٠٠

وكان يمكن أن تسدل الستار على المأساة عند هذا الحد ، ولكن راسين أراد أن تستمر القصة ليظهر الملكة فى قمة مجدها كانسانة كاملة ارتفعت الى الذروة التى لم ترتفع اليها امرأة من قبل ٠٠ فقد سارعت الى تنفيذ الأمر الصادر اليها بالرحيل قبل أن ينطق به الامبراطور ٠٠ انها

لا تريد ان ينزل قدره فى قلبها بخروج هذه الكلمة من فمه ٠٠ بل تريد أن تبقى صورته محفورة فى نفسها معصومة من هذه الوصمة ٠٠ وهكذا اتخذت أهبتها للرحيل دون ابطاء ، ولو لتعيش بعد ذلك ساعة واحدة ٠٠ نعم لتذهب الى حيث تلفظ أنفاسها فى مكان آخر وتحت سماء أخرى ٠

وهنا يتدخل الامبراطور للمرة الأخيرة ٠٠ ولكن لا ليأمرها بالذهاب بل ليأمرها صراحة بالبقاء !

ولكن على أى شرط ، وعلى أى أســاس ، مادام لا يستطيع الزواج منها ، وما دام لا يستطيع التنازل عن العرش ليتبعها الى حيث هى ذاهبة ، فلماذا لا يلجأ الى آخر سلاح فى يده ؟ ان فى يده سلاحا لا تقدر روما أن تنتزعه منه ٠٠ انه سيف بتار فى امكانه أن يستله متى شاء : فليقضيا نحبهما منتحرين معا ٠٠ واذا كان قد عجز عن ملازمتها فى الحياة فليلازمها فى الموت !

قلب المرأة

ولكن « انتيوكوس » يتدخـل فى هذه اللحظـة المقـدسة ويشوه بحضـوره هذه اللوحة الخالدة التى رسمتها ريشـة القـدر فبلغت غاية الاعجاز والابداع فى التصوير ٠٠ ان هذه اللحظة كان يجب أن تكون وقفا عليهما معا دون دخيل بينهما ٠٠ حتى يقرا مصيرهما على ضوء اللهب المنبثـق من قلبيهما المحترقين ٠٠ ولكن « انتيوكوس » يظهر ليمنـع الامبراطور من الانتحار ٠

وهنا ينقلب موقف بيرينيس انقلابا عجيبـا ويتغير تغيرا يخطف الأبصار ٠٠ لقد كانت منذ برهة على أهبة الرحيل كسيرة القلب محطمة الفؤاد ، لأن تيتوس لم يعد يحبها ٠٠ فلم يكن رحيلها مصدر ألمها الذى استبد بها ، بـل كان يقينها من أن هذا الرحيـــل مبعثه أن تيتوس لم يعد يحبها ٠ أما الآن فها هو الامبراطور يقدم لها الدليل الذى لا يقبل الدحض على حبه لها : انه يعرض عليها أن يتبعها الى الموت ٠٠٠ الى هذا

الحد يحبها حبيبها ؟ ٠٠ ان الحياة لم تعد اذن بلا طعم وبلا قيمة كما كانت تراها منذ برهة ، ان لها الآن طعما ولها الآن قدرا ٠٠ فما دامت لم تفقد حبه فلتتحمل بصبر ألم فراقه وسائر آلام الحياة ٠٠ ان حبه يعينها على الصبر ويمنحها قوة على احتمال حزنها ٠٠ ويمد قلبها الجائع بفتات من القوت يساعده على استئناف دقاته ونبضاته ٠ ان الألم أصبح الآن مناصفة بين قلبين ، ولم يعد ألما ينوء بعبئه الثقيل قلب واحد بغير شريك ٠ وحتى على البعد وعندما تنقطع كل الصلات المادية بين قلبين حبيبين ، فانهما يظلان متصلين بالأنفاس والنبضات ٠٠ فلا الزمن ولا بعد الشقة بقادرين على أن يفصما عرى حب يربط روحين ٠٠ والموت في جبروته اذا أنشب فيهما أظفاره فستظل روحاهما متعانقتين في حياة الخلود ! ٠

وتسدل الستار على الفصل الأخير في الرواية ، وبيرينيس تخاطب الامبراطور قبيل رحيلها النهائي بهذه العبارات الأخاذة الخالدة :

« لقد أحببت يا مولاى ٠٠ لقد أحببت ٠ وأردت أن أكون محبوبة أيضا ٠٠ واننى لأعترف بأننى كنت شديدة الجزع الليلة ، لانى ظننت أن حبنا قد انقضى وذهب الى غير رجعة ٠٠ أما الآن فاننى سعيدة بأن أتبين خطئى فيما ذهبت اليه ٠٠ سعيدة بأن أعلم أنك ستقيم على حبى وان فصلتنا البحار والمحيطات ٠٠٠ ولسوف أعيش يا مولاى مطيعة أوامرك على البعد كما اطعتها دائما على القرب ٠٠ أما أنت ٠٠ فاحكم ، واجلس على عرشك ٠٠ وأما أنا ٠٠ فلن أراك بعد الآن ٠٠ » ٠

الحياة تتغلب على الحب !!

وهكذا كانت « بيرينيس » قصة نابضة بالحياة لأنها صيغت من الحق الأبلج الناصع الذى لا زيف فيه ٠٠ ان النزعة الانسانية فيها تتغلب على كل نزعة أخرى ، ولولا ذلك لما تغلبت الحياة فى ختامها على الحب ٠٠٠ فهى ترجمة صادقة للعاطفة الانسانية فى أنبل صورها وأروعها ٠٠ بل هى القصيدة الشعرية الغالية على كل قلب ذاق طعم الحب ورشف من حلاوته أو تجرع من علقمه ٠٠ فخرج من تجاربه بهذه الحقيقة الخالدة : وهى

أنه مهما عصفت بالقلب أنواء الحب واستبدت به أوجاعه وتباريحه ٠٠ فان هذه العواصف تساعد دقاته على أن تتجاوب قوية فى النفس ٠٠ ولا توقف نبضاته بل تدفعها فتية جياشة بالحياة ٠

بيرينيس بين الخيال الشعرى والواقعية التاريخية

والى هنا قصة راسين ٠٠ ولكن المؤرخين يخالفونه فى وقائعها ٠٠ كما يخالفونه فى شخصية بيرينيس التى مجدها ورفعها الى الذروة ٠٠٠ بل انهم يخالفونه حتى فيما صور به شخصية « تيتوس » فهم يصفونه بأنه كان ذا نزوات جامحة عاصفة مفاجئة ٠٠ وأنه كان كفؤا لأن يرتكب أعظم الحماقات فى احدى نزواته تلك ٠٠ وان اصداره الأمر الى بيرينيس بالرحيل كان نتيجة لاحدى تلك النزوات ٠٠٠ ويضيف المؤرخون أن تيتوس فى بداية عهده بالملك تحدى معارضيه وتحدى القانون ٠٠ ولم يحفل بشىء من تقاليد روما وأوضاعها ٠ فجعل بيرينيس تشاركه حياته الرسمية علنا كما كانت امبراطورة متوجة ٠٠٠ وأنه كان يتمتع بسلطات مطلقة تدانى السلطات التى كان يتمتع بها الطاغية نيرون ٠ فلا يعقل والحالة هذه أن يكون تطليقه — أو طرده — لبيرينيس ناتجا عن خوف أو مراعاة لشعور الرأى العام ٠ وان تكن معاشرته لها قد ضاعفت من شوكة التيارات المعارضة له وزادتها حدة وعنفا ، لاسيما وقد كان ماضى بيرينيس موصوما بوصمة الدنس والعار : وصمة معاشرتها « لأخيها » معاشرة الأزواج ، على أن العجيب فى الأمر حقا أن تيتوس بانفصاله عنها طلق حياة الفسق والفجور ٠٠ وثاب الى رشده فلاذ بالاستقامة والخلق الحميد ! ٠

وعندما أصرت هى على مقابلة الامبراطور لتسمع من فمه الحكم عليها بالرحيل ، يقول المؤرخون انه رفض مقابلتها وكان عنيفا مع رسولها فلم يزد على أن كلفه بابلاغها أمره اليها بالرحيل فى الحال ٠

أما ماذا جرى لها بعد أن غادرت روما ، فقد تساوى التاريخ والرواة والشعراء جميعا فى جهل مصيرها الأخير ٠٠ اذ لم يتحدث عنها أحد بعد

ذلك واكتنفها الغموض المطبق . غير أن ذلك لم يمنع الشعراء والرواة من أن يصوغوا عنها منذ ذلك التاريخ قصائد وقصصا من نسج خيالاتهم ، ويجعلوا منها « أسطورة » من أساطير الرومان يؤلفون فيها مسرحياتهم عن الحب المنهزم .. الغشوم .. الذى سيظل لغز الانسانية الغامض المحير الى يوم النشور .

بيرينيس كما رواها التاريخ

ولما كان الحديث عن بيرينيس والخوض فى تاريخها والتعليق على حياتها لم يتجاوز ذلك المحيط الفرنسى الى ما عداه الا فى المناسبات النادرة وفى أضيق الحدود .. فقد رأيت أن أستقى لك من صفحات التاريخ ـ ومما رواه عنها المؤرخ اللاتينى المعاصر لها «تاسيت» ـ حقيقة سيرة بيرينيس دون خيال أو تنميق :

ولدت بيرينيس فى فلسطين فى العام الثامن والعشرين بعد الميلاد ، أى فى فجر المسيحية . فهى بذلك قد نشأت فى ملتقى عالمين وحضارتين متباينتين .. كما اختلط فى دمها الشرق والغرب : الشرق الذى انتمت اليه أمها « سيبروس » والغرب الذى انحدر منه أبوها « أجريبا » .. فجاءت بذلك مزيجا من الكبرياء والنهم للملذات .. والتهالك على الاستمتاع بكل ما فى الحياة من فرص للمتعة واشباع الشهوات .

وكانت على جانب كبير من الدهاء والذكاء والمرونة وسعة الحيلة .. وكان أجدادها لأبيها يعتبرون أمراء وأسياد وحكام « شعب الله » فى عهود الوثنية .. وكانوا ذوى بأس وثروة يستمدون سلطانهم من امبراطور روما مباشرة ويعيشون فى بذخ واسراف كانا مضرب الأمثال فى التاريخ .

وحرص أجريبا على تزويد ابنتيه « بيرينيس » و « دروزيلا » بالثقافة الرومانية .. وعاشت بيرينيس فترة من الزمن فى « طبرية » فى بيت « هيروديا » زوجة عمها هيرودس ـ التى حرضت ابنتها « سالومى » ـ وكانت ابنتها من زوج سابق ـ على اغراء زوجها الجديد هيرودس بقطع رأس النبى « يوحنا المعمدان » وتقديمه اليها على طبق .

.. ثم انتقلت بيرينيس من أرض الجليل المشرقة الى الاسكندرية ، حيث قضت فترة أخرى بصحبة أبيها قبل أن يبحر الى روما بناء على طلب الامبراطور تيبريوس الذى لم يكن على وفاق معه ..

ثم مات الامبراطور تيبريوس وجاء المخبول « كاليجولا » فعين أجريبا على احدى الولايات الخاضعة له . ثم اغتيل كاليجولا ليخلفه الامبراطور « كلوديوس » ، الذى اختار أجريبا ملكا لولاية جودى — كما كان يطلق يومئذ على تلك البقعة من فلسطين — وذلك مكافأة له على خدماته التى أداها لروما ..

وبحكم منصبه الجديد ، انتقل أجريبا بأسرته الى عاصمة ملكه (القدس) ، وهناك انصرف همه الى أن يزوج ابنتيه «بيرينيس» و «دروزيللا» فى سن مبكرة ، على أن يكون زواجهما ذا « صبغة سياسية » ، بحيث يفيد منه ويستغله فى الوصول الى تحقيق مآربه وأحلامه العريضة . كما لم يغفل الأب اعتبار « الناحية المالية » ، فكان أن تزوجت بيرينيس من أحد يهود الاسكندرية الأثرياء ويدعى « مارك » .. لكن هذا الزواج لم يدم طويلا لوفاة « مارك » بعد الزواج بوقت قصير ..

فماذا يفعل الأب ؟ اختار شقيقه « هيرودس » ليزوجه من ابنته الأرملة (بيرينيس) — أى انه زوج الابنة من عمها — وكان هيرودس فى الخمسين من عمره ، فى حين لم يكن عمر الأميرة بيرينيس يوم زواجها الثانى قد جاوز الثلاثة عشر عاما ! .

ابنة ملك .. وزوجة ملك

وكان القدر يدخر « للصبية » مجدا عريضا .. بل عرشا .. فقد كانت هدية العرس التى أهداها الامبراطور الرومانى الى هيرودس : مملكة «كاليكيا» — احدى مقاطعات فلسطين أيضا — فولاه عليها سنة ٤١ ميلادية . وهكذا توجت بيرينيس « ملكة » وهى فى سن الثالثة عشرة !

وعاشت الملكة الصغيرة مع زوجها الكهل متسلطة عليه مسيطرة على شؤون المملكة .. ورزقت من هيرودس ولدين هما « بيرينيسيانه »

و « هيركان » . ولم تمض على زواجها ثلاث سنوات حتى مات أبوها « الملك أجريبا » ، وكانت تقيم فى بيته فى ذلك الحين فنشبت عند وفاته اضطرابات دموية فى أنحاء المملكة التى كان يحكمها بالحديد والنار ، والتى كانت تتنازعها الفرقة والأحقاد الدينية .. فهاجم الجنود السامريون قصر الملك وعاثوا فيه نهبا وسلبا ، وكادوا يعتدون على « بيرينيس » لولا أن لاذت بالفرار الى مملكتها ، واذ ذاك أخذوا تمثالها فوضعوه فى أماكن ذات سمعة مريبة وراحوا ينهالون عليه بأفحش الاهانات والألفاظ .

وبعد أربعة أعوام مات هيرودس فغدت « بيرينيس » أرملة للمرة الثانية وهى بعد فى التاسعة عشرة ... وهنا قرر امبراطور روما ـ وكان « نيرون » ـ أن يئول ملك مملكة « كاليكيا » الى ابن أجريبا الأكبر ، أى شقيق بيرينيس فتوج باسم « أجريبا الثانى » .

وكان أجريبا الثانى يعيش فى روما منذ ثمانى سنوات لاتمام علومه ودراساته وليتمرس بمعيشة البلاط وحياة الملوك والأمراء .. فغادرها الى مقر ملكه ، أفتن ما يكون شبابا وجمالا .. فقد كان فى الحادية والعشرين ـ الى جانب روحه العسكرية العالية وبسالته فى الجندية ، وألفته حياة القصور بما تنطوى عليه من ترف وتلف ... وما كاد يستقر به المقام فى عاصمة ملكه حتى راح يقدح زناد فكره : كيف ينبغى أن يكون مسلكه مع الداهية الفاتنة : شقيقته « بيرينيس » ؟..ان هذه الساحرة ليست بالمرأة التى يسهل اغفال وجودها واهمال شخصيتها ... وعليه ، فقد انتهى أخوها الملك الشاب الى التحالف معها كى تعينه بواسع خبرتها فى ادارة دفة الملك .

تعشق اخاها !

وكانت بيرينيس فاتنة بارعة الجمال ، يفتك حسنها بالقلوب ويأسر الألباب .. يضاف الى فتنتها ثقافة واسعة والمام شامل بأفانين السياسة وأحابيل السياسيين .. فزاد ذلك من تعلق أخيها بها ... وظلت أواصر المحبة والاخاء تزداد بينهما توثقا وتنزلق بهما رويدا رويدا .. فاذا بالعلاقات بين الأخ وأخته تتحول الى حب حرام !

واذا كانت تقاليدنا الحاضرة وقوانيننا تستبشع هذا النوع من العلاقات ، الا أننا لو رجعنا الى الوراء الى ما قبل ألفى عام لرأينا مقاييس ذلك العصر لا تنظر الى هذه العلاقات نظرة الاستبشاع التى ننظرها اليوم ، أولم يكن المصريون القدماء يبيحون للملك أن يتزوج من أخته حفظا للدم الملكى من أن يختلط بدم أجنبى ؟

على أن هذا لا ينفى أن اليهودية كانت فى العصر الذى نحن بصدده تعتبر زواج الأخ من أخته جريمة منكرة لا يصبر عليها ولا يطيقونها بحال ... لكن الأب الذى رضى لنفسه أن يزوج ابنته التى فى الثالثة عشرة من عمها الذى فى الخمسين طمعا فى أن يراها « ملكة » .. لا يبعد عن ابنته أن تعشق أخاها !

على أن علاقة بيرينيس الآثمة بشقيقها لم تلبث أن أثارت ثائرة الكثيرين عليها .. فلم تر بدا كى تهدىء من تلك الثائرة من أن تعمد الى التعمية وذر الرماد فى العيون ، فعقدت زواجا صوريا لها على ملك ولاية مجاورة يدعى « بوليمان » .. على أن العقد لم يكد يعقد حتى دخل الزوج فى « منطقة الظل » وبات كما مهملا ، ونسيا منسيا .. ثم لم تلبث بيرينيس أن تحللت من هذا الزواج وهجرت بوليمان ــ دون مبالاة ــ وقفلت راجعة الى القدس لاسيما أن الموقف كان يزداد كل يوم سوءا بسبب ازدياد المقاومة الشعبية لجيش الاحتلال الرومانى الذى كان يجثم على البلاد كالكابوس .. ولم تلبث أن اندلعت ثورة دامية أدت الى ذبح قوات الحاميات الرومانية وأسر جانب كبير من جيش أجريبا المغلوب على أمره ..

واذا كانت هذه الأحداث قد عنت بالنسبة لبيرينيس وشقيقها ــ أو عشيقها ــ فشلا سياسيا أو هزيمة شخصية ، فانها كانت تعنى بالنسبة لروما كارثة خطيرة تهدد بافلات الشرق كله من قبضتها ... ومن هنا اضطر الطاغية « نيرون » الى أن ينصب على رأس جيش الشرق قائدا قديما محنكا هو « فسبسيان » الذى أرسل يطلب الى ابنه « تيتوس » أن يحضر الفيلق الخامس عشر من مصر ويخف معه للقائه فى أرض فلسطين ..

وفى الوقت نفسه جرد أجريبا وأخته – من ناحيتهما – جيشا لمعاونة فسبسيان وجيشه على قمع تمرد الثوار اليهود ..

والتقى الجيشـان الصديقـان ..

بدايـة المأسـاة !

وفى ذلك اليوم من عام ٦٧ ، وأمام مائة ألف مقاتل احتشدوا فى سهول فلسطين ، كتب القدر فى لوحته بداية مأساة غرامية من أعنف مآسى التاريخ .. فقد التقى « تيتوس » .. و « بيرينيس » .

كان كلاهما آية من آيات الفتنـة والوسامة فى جنسـه : هى فى نضوج الثامنة والثلاثين أكمل ما تكون حسنا واغراء .. وهو فى ربيع السادسة والعشرين بارع الفتوة ، اجتمعت له وسامة المحيا وجلال الطلعة ونضارة الشباب وفحولة الجسم ، وحدة الذاكرة ، ووفرة الثقافة ، واتقان الخطابة ، والبراعة فى الموسيقى وهواية شتى الفنـون .. فضـلا عن شجاعته كقائد حربى مغوار « يعبده » جنوده ويقسمون بحياته .. والتقت العيون .. وخفق القلبان من أول نظرة .

ولم تمض أسابيع حتى استرد جيش الشرق منطقة الجليل وفرغ من تأديب العصاة ، فقبل القائد وابنه دعوة الشقيقين لقضاء عشرين يوما فى ضيافتهما كانت عبارة عن مهرجان متصل من المآدب وحفلات التكريم الباذخة .. وسكر العاشقان بخمرة الحب فى جو ساحر كان كل ما فيه يؤذن للهوى والمتعـة !

وحين آن موعد عودة « تيتوس » الى روما .. صحبته بيرينيس .. ثم مات نيرون فخلفه القائد الظافر فسبسيان ، ثم مات هذا فجلس ابنه « تيتوس » على العرش ..

وحرمته الدولة من حق الزواج من « أجنبية » .

ثم كان ما قرأته فى مأساة « راسين » ..

بول وفرجيني

برناردين دي سان بيير

١٧٨٧م

جمــال الطبيعة والفضيلة

يقول برناردين دى سان بيير فى مقدمة الطبعتين الأولى والثانية من روايته : « أردت من هذا الكتاب ان أجمع بين جمال الطبيعة فى المناطق الحارة وجمال الحياة الخلقية والروحية لمجتمع صغير يعيش فى كنفها . كما أردت ايضاح حقيقة جوهرية وهى أن سعادتنا على هذه الأرض تتمثل فى عنصرى الطبيعة والفضيلة » .

ويقول أيضا فى المقدمة نفسها : « عندما انتهيت منذ سنوات من كتابة عناصر هذه الرواية العاطفية البريئة ، قرأتها على احدى سيدات المجتمع ، ثم أعدت قراءتها على عدد من أفاضل الرجال ممن يعيشون فى عزلة عن المجتمع حتى أعرف مبلغ تأثيرها فى قراء تختلف طباعهــم وميولهم .. وكم كان سرورى اذ رأيت الدموع تنحدر من عيونهم جميعا ! » .

ويلخص سان بيير فى هاتين الكلمتين ما قصد اليه فى روايته من حث على حياة الطبيعة والفضيلة واثارة لمشــاعر القراء ودمــوعهم . وبذلك يســـتجيب لحاجة كانت تختلج فى قــلوب النــاس فى تلك الفترة من القرن الثامن عشر ، وهى الهروب من المجتمع الحضرى وما فيه من تكلف وقيود ، والتخلص من الفلسفة وجمودها والتحرر من العقل واستدلالاته الجافة ، والارتماء بين أحضان الطبيعة والاستجابة لنداء القلب واستثارة العاطفة واستدرار الدموع .

وكان من الغريب أن يكتب ســان بيير مثل هذه القصة الانسانية الرقيقة ، وهو الذى أمضى حياته فى اضطراب دائم وقلق مستمر ، متنقلا

من بلد الى آخر سعيا وراء المادة ، متطلعا الى المناصب والألقاب ، شاكيا من سوء حالته ، دائم التحدث عن نفسه فى غرور أحيانا وادعاء ٠

فقد ولد جاك هنرى برناردين دى ســان بيير بمدينة هافر ، فى ١٩ من شهر يناير عام ١٧٣٧ من والدين متوسطى الحال ، برغم ما كانا يدعيان من انتساب الى احدى الأسر النبيلة ٠ كان أبوه مراقبا للملاحة فى ميناء هافر وكانت أمه تحنو عليه بصورة بالغة ٠ وربما كان تدليل أمه سببا فى شدة حساسيته وحدة مزاجه وسرعة تقلبه ٠

كانت دراسته عادية بدأها فى بيته ثم ألحقته أسرته بمدرسة صغيرة يديرها أحد القساوسـة بمدينة كان ٠ وفى عام ١٧٤٩ قام برحلة الى المارتينيك على ظهر سفينة تجارية يمتلكها عمه ، وعاد معها وقد زاد حسه ارهافا وخياله اتساعا ٠ وأرسله أبوه بعد ذلك الى مدينة روان حيث أتم دراسته ونال الجائزة الأولى فى الرياضيات ٠ كان ذلك فى عام ١٧٥٧ ٠

ومر صاحبنـا بعد ذلك بمغامرات كثيرة استمرت اثنى عشرا عاما حاول فيها أن يستقر على وضـع معين أو يلتحق بعمل ثابت فى فرنسا أو خارجها ٠ ويكتنف هذه الفترة من حياته شيء من الغموض ، ويحلو لسان بيير أن يزيد هذا الغموض بما رواه هو عن نفسه فى مذكراته ٠

ومن رواياته التى لم تثبت صحتها أنه منح فى عام ١٧٥٩ رتبة فى سلاح الهندسة نتيجة التباس فى الأسماء بينه وبين أحد المرشحين للوظيفة. واشترك بهذه الصـفة في حمـلة « هيس » عام ١٧٦٠ تحت قيـادة الكونت سان جرمان ، ولكنه ما لبث أن فصل من الخدمة لسوء تصرفاته ٠ ورجع الى هافر حيث وجد أباه وقد تزوج للمرة الثانية بعد وفاة أم جاك ٠ ولم تحسن زوجة أبيه استقباله فعاد الى الجيش واشترك فى حملة مالطة عام ١٧٦١ كمشرف هندسى على المواقع والاستحكامات ، ويفصل مرة أخرى لسببين أولهما أنه لا يحمل مؤهلا رسميا وثانيهما كثرة منازعاته ٠

ويقصد الى باريس وينتحل لقب شفالييه ، ويكسب عيشه من اعطاء دروس فى الرياضيات ٠ ثم يفكر فى مشروع كبير يستطيع أن يجتذب به

اهتمام الحكومة الروسية وهو انشاء مزرعة اشتراكية عند بحيرة « آرال »، وما ان اختمر المشروع فى ذهنه حتى شد رحاله الى موسكو وليس معه الا قليل من المال · وفى طريقه يمر بأمستردام ، حيث يتعرف الى صحفى فرنسى · ويحاول الصحفى أن يحمله على التخلف فى أمستردام ، ويعرض عليه الزواج من شقيقته وكذلك وظيفة يتكسب بها عيشه ، ولكن سان بيير يرفض ويواصل طريقه وينزل بمدينة لوبيك ويحصل على مساعدة مالية من الشفالييه شازو ، ثم يقصد الى مدينة كرونستدات ومنها يصل الى بترسبورج وبعدها الى موسكو حيث يجد من ماريشال موينخ كل عناية ورعاية ، ويهتم بأمره الجنرال بوســكيه ومســيو دى فيلبوا الفرنسيان ، ويحصلان له على رتبة صف ضابط فى سلاح الهندسة الروسى ويتخلى عن فكرة مزرعة آرال · ويرسل فى مهمة الى فنلندا حيث تتــاح له فرصة لدراسة طبيعة هذه البلاد · وعند عودته الى موسكو يجد أن الذين كانوا شملوه برعايتهم أصبحوا من المغضــوب عليهم ، فيستقيل ويرحــل الى بولندا · يصل الى وارسو فى بداية عام ١٧٦٤ ويقيم فيها خمسة عشر شهرا يعمل لحساب المقيم الفرنسى مسيو دى هينان ، ويتبادل الغرام مع احدى الأميرات ولكنه لا يلبث أن يغادر بولنـــدا بعد أن ضاق ذرعا بها وبروســـيا ·

ويقضى ســـان بيير شهرين بمدينة درسدن ثم يرحل الى برلين · ويعرض عليه الملك فريدريك رتبة فى سلاح الهندسة ويرفض سان بيير · وتنعقد بينه وبين أحد مستشارى الملك صداقة متينة ، وعندما تبلغ هذه الصداقة حد الرغبة فى تزويج سان بيير بابنة المستشار يرحل صاحبنا راجعا الى باريس !

ويموت والد سان بيير عام ١٧٦٦ ويترك لابنه مبلغا ضئيلا من المال، ولكن البارون دى بروتوى يأخذه فى رعايته ويشجعه على تدوين مذكراته وتسجيل رحلاته · ويلتمس سان بيير رتبة فى احدى فرق المستعمرات فيجاب الى طلبــه ويلحق بجيش الملك فى جزيرة « ايل دى فرانس » (عام١٧٦٨) وهى جزيرة تقع شرقى مدغشقر ، وكان المنتظر أن يستقر هذه المرة بعد أن وفق الى الوظيفة الدائمة التى كان يحلم بها،ولكن شيئا من هذا

لم يحدث ، فقد صدم فى أول مرة بعاصفة شديدة كادت تطيح بسفينته عند رأس « فنستير » أعقبتها عاصفة أشد وانكى بالقرب من مدغشقر • ثم ثم وجد أن العمل الذى سيضطلع به وهو الاشراف على ترميم حصن ولى العهد فى مدغشقر لايتفق ومزاجه فتخلى عنه وقصد الى جزيرة « ايل دى فرانس » حيث اضطر الى قبول وظيفة مدنية عادية أقل بكثير مما كان يتطلع اليه • ودفعته روح المغامرة الى أن يقترح على رؤسائه التصريح له بالقيام برحلة استكشافية حول الجزيرة الصغيرة ، وأجيب فعلا الى طلبه • وشرع فى رحلته ولكنه عاد منها ساخطا بعد أن أثار عليه السلطات التى اتهمته بسوء معاملة الزنوج •

واعترى سان بيير شعور الألم والمرارة من كل هذه الاحداث ، وانتابه مرض عصبى فطلب اجازة للاستشفاء والنقاهة يمضيها فى فرنسا بعد أن فشل فى الزواج من احدى بنات الأثرياء من المستعمرين • وسافر الى باريس فى أواخر ديسمبر ١٧٧٠ ، ولكنه أخفق وزاد الطين بلة ان دب الخلاف بينه وبين البارون « دى بروتوى » الذى ضاق ذرعا به وبشكاواه • وضاقت سبل الحياة فى وجهه فكانت اللحظة الحاسمة حين قرر أن يعتمد على مجهوده الشخصى ، وأن « يزرع حديقته بنفسه » فيستخدم قلمه فى كسب عيشه •

الاحساس بالطبيعة وحب الفضيلة

وللمرة الأولى يكتشف سان بيير طريقه الحقيقى وموهبته الصحيحة• فاتصل بالأدباء من شعراء وكتاب وفلاسفة لا سيما جان جاك روسو ، وكان عام ١٧٧٢ بداية معرفته به ، وصار يجتمع معهم فى صالون مدموازيل دى لسبيناس الذى كان يمثل الاتجاه الجديد فى الفكر والأدب • ومهد له ذلك سبيل ابراز مواهبه واحياء قدراته كأديب فنان ومفكر مبدع •

ففى أوائل عام ١٧٧٣ ، ظهر كتابه « رحلة ضابط من جيش الملك الى ايل دى فرانس من البوربون الى رأس الرجاء الصالح » فى جزءين • وقد

استطاع بمساعدة الكاتب دالمبير ان يجد ناشرا للكتاب · وكان الكتاب جديدا فى أسلوبه ومضمونه ، اذ لم يكن مجـرد سرد لوقائع وتسجيل لأسماء البلاد والامصار ، بل كان وصفا دقيقا لمشاهد الطبيعة وانطباعها فى النفس · وبالرغم من أن أسلوب سان بيير لم يكن قد استكمل بعد قوته وبراعته ، فقد بدا رائعا ممتازا بالقياس بمن سبقوه ·

وصادف الكتاب نجاحا كبيرا لاســيما لدى القارئات ، ولمع اسم سان بيير فجأة وقفز الى مصاف أسـتاذه روسو صاحب مدرسة « الطبيعة الخارجية » · وكان الأدب من قبل يهتم « بالطبيعة الداخلية » ـ أى النفس البشرية ـ وأصبح الأستاذ الأول فى وصف هذه الطبيعة ، كما سـيكون فيما بعد القصصى الاول فى تصوير الحياة البدائية وما فيها من طهر النفس ونقاء الضمير ، والداعى الأول بين الأدباء الى الايمان بالله والتمسك بأهداب الدين والفضيلة ، والمدافع الأول عن العناية الالهيه التى حددت لكل شىء فى الكون غاية يقصد اليها ·

وشرع يعد كتابا جديدا بعنوان : « اركاديا »(١) وهو عبارة عن ملحمة تبطت من عزيمة ســان بيير وجعلته يكتفى ببعض فصول من الكتاب ، الحياة الهمجية ، ثم الحياة الطبيعية ، ثم عصر الفســاد · ولكن الملاحظات والتحفظات التى أبداها أستاذه روسو برغم موافقته على الموضوع عامة ، تبطت من عزيمة ســان بيير وجعلتـه يكتفى ببعض فصـول من الكتاب ، ليبدأ فى اعداد مؤلف آخر ضـخم على نسق كتـاب فرنسيس بيكون « تاريـخ الطبيعة » · ولكن ســان بيير عـرف كيف يحـدد بحذق وحكمة أبعاد هذا المؤلف الجديد الذى أطلق عليه اسـم (دراسـات فى الطبيعة) والذى ظهـر فى ديسمبر عـام ١٧٨٤ فى ثلاثة أجزاء · ومادة الكتـاب تهـدف فى مجموعها الى البرهان على وجـود الله خالق الكون بما فى هذا الكون من جمال وروعة ·

وليس هذا النـوع من البراهين جـديدا على الفـكر الفلسـفى ولكن الجديد الذى جـاء به ســان بيير هو الاحســاس بهذا الجمـال وتلك الروعة ، والأسـلوب الوصـفى الذى صـور به الطبيعة وعبر به عن انطباعاته · ويرى بعض النقاد أن ســان بيير تفوق على أستاذه روسو بسحر ريشته ودقة حسه وفيض مفرداته ، حتى قيل انه

صاحب أول قاموس للألفاظ التصويرية والمشاهد الطبيعية ٠٠ وهو بهذا الاتجاه يسبق الحركة الرومانسية ٠

وبقــدر ما قوبل بالصــــد والاســتنكار فى بداية حيــاته ، قوبل بالاستحسان والاعجاب عقب ظهور كتابه ، وانهالت عليه المنح من كل جــانب ٠

بول وفرجينى ٠٠ واحلام سان بيير الفلسفية ٠٠

فى تلك الفترة الهادئة من حياته عاودت سان بيير أحلامه الفلسفية فى صورة مجتمع صغير يعيش على الفطرة والطبيعة وجبلت نفوس أهله على الخير والفضيلة ، فكتب رواية بسيطة فى هذا المعنى أراد أن يلحقها بأول كتاب نشره : « رحلة الى ايل دى فرانس » ٠ وكان سان بيير حريصا كل الحرص ألا يصدر روايته هذه الا وهو مطمئن الى نجاحها ، لاسيما أنه لم يكن يبغى اجتذاب القراء كما فعل فى كتبه السابقة بوصف المشاهد الطبيعية فحسب ، بل أراد أن يفرغ فيها فلسفته حتى لايشذ عن سائر كتاب عصره ، الذين لم يخل كتاب لهم من الخواطر الفلسفية ٠ ولذلك مهد لظهور قصته بقراءتها فى بعض الأوساط الأدبية ٠ وقوبلت بالاستحسان الا فى صالون مدام « نيكر » — زوجة وزير المالية — وكادت جميع السيدات الموجودات يبكين تأثرا بالقصة لولا ابتسامة ساخرة على شفتى الوزير وانتقادة مريرة على لسان صاحبــة الصالون ٠ ولكن ســان بيير اطمأن الى حكم أصدقائه المخلصين وصمم على نشر الرواية ، غير أنه عدل عن الحاقها « بالرحلة الى جزيرة ايل دى فرانس » وفضل لها مكانا يليق بها ٠ وبعد أن هذبها وأعاد تهذيبها أكثر من مرة نشرها فى كتابه « دراسات فى الطبيعة » ٠ وظهرت قصة « بول وفرجينى » عام ١٧٨٧ ملحقة بالمجلد الرابع من هذا السفر الضــــخم ٠

وحظيت الرواية البسيطة باقبال منقطع النظير وتهافت عليها القراء لا سيما القارئات من جميع الأوساط ، وترجمت الى عديد من اللغات ٠

ولم يكتف أصحاب دور النشر باعادة طبعها طبق الأصل ، بل يقال ان ٣٠٠ طبعة منها ظهرت بدون حق النشر .

وفى مقدمة طبعة عام ١٨٠٦ الفاخرة يتحدث سان بيير عما لقيته روايته من نجاح فيقول : « ان فى هذه الرواية ترفيها عن دراساتى فى الطبيعة وتطبيقا لنواميس الطبيعة على الحياة السعيدة التى نعمت بها أسرتان فقيرتان . ولقد جاوز النجاح الذى صادفته كل أمل، فنسج الكتاب روايات على منوالها ، واستوحى الشعراء قصائدهم منها ، وحظى المسرح بتمثيليات شبيهة بها، وأطلق عدد كبير من الأمهات اسمى بول وفرجينى على مواليدهن ، وذاعت شهرة هذه الرواية العاطفية فى أوروبا كلها . وترجمت مرتين الى اللغة الانجليزية ومرة الى كل من الايطالية والالمانية والبولندية والهولندية . وجاءنى وعد بترجمتها الى الروسية والاسبانية . لقد أصبحت الرواية تدرس فى مدارس انجلترا . وأنا أعترف بأن نجاحها بهذه الصورة الاجتماعية يرجع الفضل فيه الى المرأة ، لأنها تملك شتى الوسائل التى توجه بها الرجل نحو الأخذ بقوانين الطبيعة . ودليل ذلك أن أغلب الترجمات تمت على يد السيدات أو الآنسات . وكم سرنى أن أرى «ولدى» اللذين تبنيتهما يرفلان فى ثياب غير التى عرفتهما بها !.. ولا ريب فى أن « ولدى » مدينان للجنس الناعم بالشهرة التى تمتد الى الأجيال القادمة . فقد نظمت القصائد تشدو بمولدهما وترثى لموتهما بمهدهما ، وتتغنى بمهدهما ولحدهما كما يتغنى الشعراء بالآثار القديمة .. » .

وبعد « بول وفرجينى » أصدر سان بيير عام ١٧٨٩ كتابه « أحلام العزلة،ملحق بدراسات فى الطبيعة » ثم قصة « الكوخ الهندى » عام ١٧٩١ والكتابان يترجمان أفكار الكاتب وخواطره الفلسفية ، ويمثلان اتجاهه فى وصف الطبيعة بوصفه فنانا وفيلسوفا .

ومن مؤلفاته الأخيرة : « دعوة الى الاتفاق بمناسبة عيد الائتلاف » (١٧٩٢) ـ مقالات فى الطبيعة والأخلاق (١٧٩٨) ـ « رحلة الى سيلزيا » (١٨٠٧) ـ مسرحية « موت سقراط » (١٨٠٨) ـ « مقالة عن الصحافة » (١٨٠٨) ـ « مقالة عن جان جاك روسو » ـ قصص من الرحلات .

وقبيل عام ١٨٠٦ فكر سان بيير في اصدار روايته «بول وفرجيني» في طبعة فاخرة مزدانة بالصور من رسم مجموعة من كبار فناني العصر ، ولكن المال كان يعوزه فشرع في جمع الاكتتابات ، وكان يعتمد في تشجيع الاكتتاب وتيسيره على قارئاته اللائي أحسن استقبال روايته عند أول صدورها . وهو ينوه بذلك في مقدمة الطبعة الفاخرة فيقول : « ان اقبال السيدات والآنسات على روايتي ، هو الذي جعلني أفكر في أن أضفي عليها كل مفاتن الطباعة الفرنسية والتصوير الفرنسي لتكون جديرة بالجنس الناعم الذي رحب بظهورها » .

يتناول سان بيير في مقدمته للرواية مسألة الشكل والمضمون بمناسبة ما وجه اليه من نقد بسبب اقحام نفسه في الموضوعات العلمية في كتابه « دراسات في الطبيعة » فيقول : « يذكر رئيس تحرير « ديبا » انني لا أصلح الا كاتبا وانني من كبار كتاب العصر . وهذا أجمل تقريظ يحظى به أحد .. فالشكل هو كل شيء أما المضمون فبعض الشيء . والمضمون لا يهم الا نفرا قليلا من المتخصصين،أما الشكل فيهم الجمهور كله ، وهو الذي يقرر الشهرة والمجد.وكان الرومان لا يعجبون بشيشرون الا لأسلوبه ولا يأبهون بغير ذلك في خطبه » . وينتقل بعد ذلك الى أبواب الأدب فيفضل الرواية عليها جميعا يقول : « ان الروايات أمتع الكتب عند القراء وأكثرها انتشارا وأجلها فائدة .. الرواية هي آلهة الأدب في أوروبا » .

أما عن المجد الأدبي فيقول سان بيير في نفس المقدمة : « لا ريب أن المجد الأدبي هو الوحيد الذي يخلد بل به تخلد الأمجاد الأخرى .. ولكن للأسف لايكاد كتاب يظهر حتى يتناوله الصحفيون بالنقد فيصفق الجمهور أو يصفر صدى لما تقوله الصحف.واذا صادف النجاح كتابا من الكتب سطا عليه الطفيليون من الناشرين أو الأدباء ، فزيفوا أو اقتبسوا أو نشروا بغير اذن..وماذا في وسع الكاتب أن يصنع؟أيكف عن الكتابة ؟ بل يكتب لا لشيء الا لوجه الحقيقة . فكما أن الضوء ينمي قدرات الجسد كذلك الحقيقة تنمي ملكات النفس والوجدان » .

كل هذه الخواطر أوردها سان بيير في مقدمة طبعته الأخيرة لبول وفرجيني ليخلص منها الى هذا القول : « ان روايتي العاطفية البسيطة

ستكون مصـدر شهرة لا تقل عن الشهرة التى كسبها هوميروس وراء الالياذة والأوديسة • ومن يدرى ؟ لعلى بفضل أصدقائى وأعدائى ، خاصة ممن يظهرون الاشفاق بى والرثاء لحالى أحظى بعد موتى بتمجيد يعوض ما تعرضت له حياتى من هجوم بسبب كتاباتى السابقة التى لم أكن أبغى من ورائها الا البحث عن الحقيقة » •

* * *

تبدأ رواية « بول وفرجينى » بعرض رائع لمسرح الأحـداث التى تدور فيها • فيصف لنا الكاتب الجانب الشرقى للجبـل القائم فى الجزء الخلفى من جزيرة « ايل دى فرانس » (٢) حيث الهدوء الشامل والصخور الوعرة والأشجار الباسقة المتنوعة والسماء ذات الألوان المتعددة • ويقف الكاتب فى تجواله عند بقـايا كوخين حقيرين عفى عليهما الزمان ويلتقى هنـاك بشيخ أثقلته السنون والهموم فيسأله عن مصـدر هذين الكوخين فيقول الشيخ : « انها قصة مؤثرة حقا ولكن الناس اعتادوا أن يستمعوا فقط لقصص العظماء والملوك » • فيعترض الكاتب قائلا : « ان الانسان مهما انحدرت أخلاقه وأعمته التقاليـد ، تستهويه أحاديث السعادة اذا كان مصدرها الطبيعة والفضيلة » ويبدأ الشيخ فى روايته •

فى عام ١٧٢٦ جـاء الى الجزيرة المسيو دى لاتـور ومعه زوجته هيلين ، وكانا قد عقدا زواجهما بفرنسا برغم معارضة أسرتها الغنية فى هذا الزواج غير المتكافىء • وهاجر الزوجان على أمـل أن يجدا فى الجزيرة ما يساعدهما على المعيشـة الكريمـة الميسرة ، ولكن المرض يفاجىء مسيو دى لاتـور الذى يقضى نحبـه تاركا هيلين وقد حملت منـه ومعها خادمتها مارى من سكان الجزيرة ، وتهرب هيلين من المدينة وتلجأ الى هذا المكان المنعزل عند سفح الجبـل ، وانهـا « لعزيزة عند البشر جميعا أن يسعى الأشخاص ذوو الحساسية الشديدة والقلوب الحزينـة الى الأماكن المنفـردة كأنمـا الصـخور الجرداء ستحميهم من البؤس والطبيعة الهادئة تنسيهم الآلام » •

وتتقابل هيلين مع سيدة أخرى « مرجريت » ليست أحسن حظا منها جاءت هى الأخرى الى الجزيرة تخفى عارها ، بعد أن اغراها بالزواج فتى

من أسرة نبيلة فى مقاطعة بريتانيا بفرنسا ، وهى الفتاة الريفية البسيطة فصدقته وأسلمت اليه نفسها ثم تركها فهاجرت الى ايل دى فرانس ، واستقرت فى هذه البقعة البعيدة عن المدينة ومعها خادم من زنوج الجزيرة يدعى دومنج . وأقامت هناك تزرع الأرض وتأكل من ثمارها وقد وضعت طفلا أسمته « بول » وكان العناية الالهية أرادت أن تواسى كلا من هاتين السيدتين التعيستين فألفت بينهما ، وتقول مرجريت لهيلين : « أراد الله أن ينهى آلامى فأرسلك الى وملأ قلبك بالعطف على » . وهكذا يعمر الايمان بالله قلب هاتين الصديقتين بعد أن ندمت كل منهما على خطيئتها وأسلمت أمرها الى الحياة الجديدة ، حياة الفطرة والطبيعة ، وتتقاسمان المكان وتبنيان كوخين بمساعدة خادميهما والشيخ (الراوى) الذى أصبح بالمصادفة صديق الأسرتين ، والذى يترجم فى الحقيقة عن مشاعر سان بيير وأفكاره .

قانون الطبيعة والفضيلة

وتضع هيلين مولودة هى « فرجينى » وتقول عنها : « ان فضيلتها ستكون مصدر سعادتها كما كانت خطيئتى مصدر شقائى » ، ويتزوج الخادم دومينج من الخادمة مارى وتشترك الأسرتان فى زراعة الأرض واقتسام المحاصيل وبيع الفائض منها فى المدينة ، وتربى مارى عنزتين وبعض الدجاج ، ويحرس الحظيرة كلب اسمه ديديل أى « أمين » . وبهذه الصورة يكتمل المجتمع البسيط الذى أراد له سان بيير أن يعيش بعيدا عن الحضارة ، يرتزق من موارد الطبيعة ويعمل حسب قانونها الذى هو قانون الفضيلة والخير ، ويقول سان بيير : « ان واجبات الطبيعة — أى الأشغال التى تفرضها المعيشة الطبيعية — كانت تزيد سعادة هذا المجتمع الصغير » .

امتزاج قلبين

ويشب الطفلان بول وفرجينى وهما يتناديان بأخى وأختى ، ولا يفرقان بين هيلين ومرجريت فكل منهما أم للطفلين ، وما أجمل الصورة التى

يصورها سان بيير لهذا الامتزاج بين هذين القلبين الطاهرين حين يقول : « لم يكن ثمة أغـرب من تعلق كل من الطفلين بالآخـر • فاذا شـكا بول وأحضر له فرجينى يبتسم ويهدأ • واذا أحست فرجينى بأى ألم لا يكشف عن هذا الألم الا بكاء بول ، وكأن الطفلة الطيبة تحاول اخفاء ألمها حتى لا يبكى أخوها من أجلها » • وما أبدع هذه الصورة البريئة اذ يقول الشيخ: « ما جئت مرة الى هنا الا رأيتهما عاريين كعادة الأطفال فى هذه البلاد ، وهما يدرجان متعانقين ، وما كان الليل نفسه بقادر على التفريق بينهما ، وكان لهما مهد واحد ينامان فيه وخداهمـا ملتصقان وصدراهما متقاربان ويد كل منهما ملتفة حول عنق صاحبه وقد توسد ذراعه » • ويصف الشيخ هذه الوحدة الروحية بين بول وفرجينى عندما تجاوزا سن الطفولة الأولى فيقول : « كنت منحدرا ذات يـوم من قمة الجبـل ، فرأيت فرجينى مقبلة نحو المنزل من أقصى الحديقة وقد رفعت ازارها وأسبلته على رأسها تتقى به المطر ، وظننت لأول وهلة أنها بمفردها فما ان دنوت منها لأساعدها على السير ، حتى رأيتهـا ممسكة بذراع بول يضمهما ازار واحد وهما يتضاحكان مغتبطين بهذه المظلة الواحدة التى ابتكراها لتحميهما من المطر ، ولقـد ذكرنى منظـر رأسيهما الجميلين تحت هذا الازار المنتفخ بطفلى « ليدا وجوبتر وقد حوتهما قوقعة واحدة » » •

ويمضى الطفلان فى حياتهما الطبيعية البسيطة لايتعلمان من محيطهما الا تبادل الخدمات والتعاون ، ولا يقرآن ولا يكتبان ولا يعبآن بأحداث الماضى ولا يتجاوز اهتمامهما حـدود الجبال المحدقة بهما يظنان أن العالم ينتهى حيث تنتهى جزيرتهما ، لا يعرفان الخير المطلق أو الفضيلة المطلقة ، ولكنهما لا يفعلان الا الخير ولا يسلكان الا سبيل الفضيلة ، لا يتصـوران الجمال الا فيما يريانه بالفعل جميلا • لم تكن بهما حاجة لمعرفة أن السرقة حرام فقد كان كل شىء مشتركا بين الجميع ، ولم يرهبهما أحـد بقوله ان الله ينزل أشد العقاب بالأبناء الجاحدين فقد خفق قلبهما بحب الأهل نتيجة حب الأهل لهما ، ولم يتعلما من الدين الا ما جعل الدين محببا اليهما • واذا كانا لايطيلان الصلاة فى الكنيسة فهما أينما وجـدا سواء فى المنزل

أم فى الحقل أم فى الغابة يرفعـــان الى السماء أذرع الابتهـــال والبراءة ويقسمان لله قلبا عامرا بحب الوالدين .

ويصف لنا الكاتب الحياة اليوميــة فى هذا المجتمع الطبيعى وكيف ينصرف بول بالفطرة الى الأعمال الخشنة فى الحقول والغابات وكيف تعنى فرجينى بشئون المنزل . وتجرى الأيام وتبلغ فرجينى الثانية عشرة من عمرها وتبدأ هيلين ــ مدام دى لاتور ــ تفكر فى مستقبل ابنتها وهى تراها تنمو وتنضج كالثمرة اليانعـــة ، وهنا يدخل عنصر جديد فى الرواية هو عنصر القلق ، ويشعر القارىء أن ثمـة حادثا لابـد أن يقع ويظل يرتقبه بشغف . ويقحم الكاتب علينا شخصية تفسد هذا الجو الروحى الجميل ، شخصية عمة مدام دى لاتور التى تقيم بباريس وهى عانس على جانب كبير من الثراء ، ولكنها غليظة القلب شامخة الأنف تسيطر عليها النعرة الطبقية، وهى لذلك تكره ابنة أخيها وترفض مساعدتها ولا تفتأ تذكرها بخطئها وتندد ببؤسها وتعاستها ، وتدعى أن الله هو الذى أراد لها هذا الشقاء . وتواسيها مرجريت قائلة : « وما حاجتنـــا الى أقاربك ؟ ان الله لم يتركنا وليس لنا أب غيره » . وترد عليها هيلين بقولها : « لم يأتنا الشقاء الا من الخارج أما السعادة فهى فينا وبين أيدينا » .

وكانت الرسالة التى وصلت مدام دى لاتور من عمتها أول اتصال لأفراد هذا المجتمع بالعالم الخارجى ، وأول تجربة لبول وفرجينى لمعرفة أن هناك نفوسا لا تحب الخير . أما التجربة الثانية فهى التى مرت بها فرجينى عندما حاولت أن تعيد زنجية هاربة الى سيدها ، وتطلب منه الرحمة بها والصفح عنها ، فقابلها صاحب الأرض هى وبول بنظرات قرأت فيها الغدر والقسوة فادركت أنه ليس من السهل أن يأتى الخير دائما .

ولا يفتأ سان بيير المؤلف يمجد المرأة فى روايته ، فهو دائما يضع على لسان مرجريت وفرجينى كلمات الرحمة والحنان والتشجيع والايمـــان والحكمة . تقول فرجينى لبول عندما يضـــلان الطريق ويتلهفان الى جرعة من الماء : « ان الله لابد مشفق بنا فهو يستجيب لنداء العصافير وهى تسعى

لرزقها » . وما ان تنتهى فرجينى من كلامها حتى يسمعا خرير ماء فيهرعا الى نبع قريب ويرتويا منه ، واذ تنهار قوى بول ويأخذ فى البكاء بعد أن بحث عن طريق يوصلهما الى الكوخ فلا يجدان تقول له فرجينى : « لنضرع الى الله فلابد أن يستجيب لصلاتنا » وما أن تفرغ من كلامهما حتى يبلغ سمعهما نباح كلبهما « فيديل » .

ولا ينسى سان بيير وهو يروى القصة على لسان الشيخ أنه من كتاب القرن الثامن عشر وأن الرواية فى ذلك العصر لم تكن هدفا فى ذاتها ، بل وسيلة للتعبير عن الأفكار الفلسفية أو الخواطر العلمية أو الاتجاهات الفكرية بصفة عامة ، لذلك نجد الرواية تتخللها باستمرار تعليقات من هذا النوع اعتبرها بعض النقاد حشوا كلاميا واعتبرها بعضهم أمرا طبيعيا بالنسبة لكاتب فى ذلك العصر .

ونجد سان بيير فى بعض فصول الرواية يبرع فى وصف النباتات فى تلك المناطق الحارة وطرائق الزراعة فيها ومواسمها وأنواع المحاصيل ، مستغلا فى وصفه هذا معلوماته الخاصة التى حصل عليها فى رحلاته العديدة والتى أودعها قبل ذلك فصول كتابه « دراسات فى الطبيعة » .

ثم نجد الشيخ لا يمر بأثر من الآثار القديمة الا وقف عنده واصفا شعوره . ويقول الشيخ : « مهما كان سرورى عظيما كلما وقع نظرى أثناء رحلاتى على تمثال قديم أو أثر من الآثار فهو لا يعدل اغتباطى بقراءة النقوش المخطوطة على هذه الآثار . حينئذ يخيل لى أن صوتا بشريا ينبعث من الحجر آتيا من أعماق الزمن مخاطبا الانسان وسط البيد ليذكره بأنه ليس وحده فى هذا الوجود ، وأن آخرين مثله عاشوا فى هذه الأماكن بمشاعرهم وأفكارهم وآلامهم . واذا كان هذا النقش من آثار أمة اختفت من الوجود انتقل بأرواحنا على أجنحة اللا نهاية ، وبعث فينا الاحساس بالخلود لأنه يمثل فكرة أو صورة تغلبت على الفناء وبقيت حية ناطقة من وراء الاطلال » .

ويصور لنا سان بيير هذه السعادة التى كان يحلم بها الفلاسفة بالنسبة لسكان البيئة الطبيعية والتى تملأ الآن قلوب أفراد مجتمعنا

الصغير • تقوم هذه السعادة أولا على العمل الاجتهادى ، فنرى بول ودومنج يحولان بجهودهما هذه البقعة القفراء الى جنة فيحاء • وتكون السعادة أيضا فى السلوك وفقا لأحكام الضمير فنرى السيدتين وولديهما لايقصدان الى المدينة الا لمواساة المرضى ومد يد المساعدة للمحتاجين •

وأصحابنا يعيشون فى سعادة لأنهم لايعرفون الحسد والطمع والاغتياب والنميمة ، بل يعتمدون على مجهودهم وعلى العناية الالهية ويسرون بقراءة التوراة والانجيل والاستماع الى قصص البائسين والمشردين وينشدون أحيانا الأناشيد ، ويرقص بول وفرجينى على أنغام الطبول أو يقومان بتمثيل فصول من التوراة بالاشتراك مع خادميهما •

كان الصبيان يعتمدان فى كل شىء على الطبيعة • يعرفان الوقت باتجاه ظل الشجرة ويقيسان سنوات عمرهما بطول النخلة التى زرعت عند مولدهما « لا يعرفان من أحداث التاريخ الا حياة أهلهما ولا من الزمان الا حياة الأشجار التى زرعاها ، ومن الفلسفة الا بذل الخير للجميع والاستسلام لارادة الله » • لا هم يشغلهما ولا شهوة جسد تفسد عليهما قلبيهما ، ولا نزوة تعكر عليهما صفو حياتهما ، بل حب طاهر وتقوى خالصة ومناجاة روحية كأنها ترانيم الملائكة • يقول بول : « عندما أشعر بالكد والتعب تنسيني رؤيتك كل آلامى ، واذا وقع نظرى عليك وأنا على قمة الجبل وأنت فى الوادى يخيل الى أنك برعم من وردة حمراء تطل من البساتين • ومهما غبت عن ناظرى بين الخمائل فلا أحتاج الى رؤيتك لأعرف مكانك • ان شيئا ينطلق منك لا أعرف كنهه أستنشقه فى الهواء الذى يتهادى حولك والمسه فى الخضرة التى تجلسين عليها • ان زرقة السماء أقل جمالا من زرقة عينيك •• اذا لمسك طرف اصبعى رجفت كل أوصالى •• » وترد عليه فرجينى قائلة : « يا أخى ان أشعة شمس الصباح فوق هذه الصخور لا تبعث فى نفسى من السرور قدر ما يبعث فيها وجودك بجانبى •• انك تسألنى عن مصدر حبك لى فاعلم أن كل كائنين ينشآن معا يتآلفان ويتحابان • انظر الى طيورنا فقد شبت فى عش واحد وحبها المتبادل لايقل عن حبنا ، اننى أرفع دعائى الى

الله أن يحفظ كل فرد فى أسرتنا ، ولكنى اذا ذكرت اسمك بالذات زاد دعائى حرارة وقوة » .

وتنتقل فرجينى من مرحلة الطفولة الى سن المراهقة ويطرأ على حالتها العامة تغير واضح . ويصور سان بيير هذه الفترة من تطور أحاسيس فرجينى ومشاعرها تصويرا بارعا،لأن الفتاة تختلف عن سائر بنات جنسها: نشأت بين أحضان الطبيعة ولم تنصت الا لصوت الفضيلة ، لم تقرأ قصص الغرام ولم تختلط بفتيات من سنها يفسدن عليها تفكيرها ، ولم تتصل ببول حتى الساعة الا اتصال الأخت بأخيها . ومع هذا « أخذت فرجينى منذ مدة تحس بألم لا عهد لها به ، وقد شحب وجهها ووهن جسمها واستحالت زرقة عينيها وتسربت اليها خطوط داكنة وغام صفاء جبينها وتوارت الابتسامة من ثغرها فتراها مرة مرحة وهى لا تدرى سببا لمرحها ، ومرة مكتئبة وهى لاتعرف سببا لحزنها ، هجرت العابها البريئة وطرحت أشغالها اليدوية السهلة المسلية وتجنبت الناس حتى أسرتها الحبيبة ، ولجأت الى الخلوات تبحث عن الراحة والاستقرار ، فلا تجد راحة هناك أو استقرارا حتى اذا وقع نظرها على بول فى بعض غدواتها أو روحاتها طارت اليه فرحا وسرورا ، ولكنها لاتكاد تدنو منه حتى تجمد فى مكانها وتزحف الحمرة الى خديها ولم تجسر عيناها أن تستقرا فى عينيه .. فاذا حاول أن يضمها الى صدره تملصت من بين يديه وركضت نحو أمها هاربة مضطربة » .

«... كانت تنهض من فراشها ليلا وتجلس مطرقة، ثم تعود فتستلقى ولكنها لا تجد الى النوم أو الراحة سبيلا، فتخرج فى ضوء القمر وتتجه نحو الغدير ثم تنزل الى الماء .. فتتذكر أيام كانت تستحم فى نفس هذا المكان مع بول. . وترى ظل النخلتين المزروعتين عند مولدهما ينعكس على ذراعيها العاريتين وفوق صدرها وتفكر فى صداقة بول التى هى أزكى من أريج الأزهار وأنقى من مياه النبع وأقوى من سعفات النخل الملتصقة ، ثم تتنهد وتعود فتفكر فى الليل ووحشته فتحس بلهيب يتأجج فى صدرها فترتدى ثيابها وتهرع الى أمها تلوذ بحنانها وتأخذ بيدها وتظل تضغط عليها بشدة ، وتود أكثر من مرة أن تنطق باسم بول ولكن لسانها يحتبس فى

فمها فتلقى رأسها على صدر أمها وتبلله بالدموع ، وتحاول الأم أن تهدىء من روعها فتقول لها : « اضرعى الى الله فهو مالك الصحة والحياة واعلمى أننا لم نخلق فى هذا العالم الا كى نمارس الفضيلة » .

رسالة .. وقلق ..

وتفكر هيلين ومرجريت جديا فى زواج ولديهما ولكن صغر سنهما يجعلهما تترددان ، ويتدخل القـدر ليبرهن على أن العناية الالهية التى دبرت شئون الكون ووضعت كل شىء فى مكانه لا تسمح أن يمس نظامها بغير جزاء . فهاتان الأسرتان السعيدتان تدينان بالسعادة لحياة البداوة والطبيعة ، حياة القناعة والرضى،حياة البساطة والمحبة.وقد رتبتا أمورهما على هذا الوضع ، وعاشتا حتى الآن فى نعيم لا يشوبه قلق اليوم أو هم الغد . الى أن وصلت مدام دى لاتور رسالة ثانية من عمتها المقيمة بباريس تدعوها الى العودة الى فرنسا أو ترسل اليها ابنتها فرجينى لتهيىء لها مستقبلا أفضل وتيسر لها الزواج من رجل ثرى يليق بأسرتها وتكتب لها كل ثروتهـا .

وقعت هذه الرسـالة من نفوس الجميع موقع الكارثة ، وحاولت مدام دى لاتور أن تطمئن صاحبتها الى أنها لن تستجيب لرغبة عمتها ، ولكن حاكم الجزيرة الذى وصلته أوامر من السلطات الفرنسـية أخذ يضغط عليها . وتخضع مدام دى لاتور وتسعى لاقناع فرجينى فتفضى اليها ابنتها بما تشعر به نحو بول وفى ظنها أن أمها لا تعرف عن سرها شيئا . ويقول سان بيير فى ذلك : « تظن الفتاة العاشقة أن سرها لا يعرفه أحد فهى تحجب عينيها بنفس الخمار الذى تحجب به قلبهـا ، فاذا ما أزاحت طرف هذا الخمـار ، انطلقت الشـكوى تعبر عن آلامهـا الدفينـة وكشف القلب عن مكنون سره محطما سياج الخفر والحياء .. لقد اطمأنت فرجينى الى عطف أمها فأطلعتها على ما كان يحتدم فى وجدانها من معارك لا يعلم غير الله عنها شيئا » .

وتقنع فرجينى ويتقرر موعد السفر ويجن جنون بول وتصرح له أمه للمرة الأولى بأن أسرته لا تتكافأ مع أسرة فرجينى ، وأنها حملت به سفاحا أى أنه لا أب له • ولا يدرك بول معنى هذا الكلام ، فكل ما ينغص عليه عيشه أنه وفرجينى سيفترقان ، ويجتمع بول وفرجينى ذات ليلة قبل الرحيل وتجرى بينهما مناجاة من أروع ما كتب من الشعر المنثور ، تترجم عن الحب العذرى فى أجمل صوره وأبدع ألوانه • وتنتاب بول نوبات من الحزن تقترب من الجنون فيصيح بأم فرجينى : « أيتها الأم القاسية المجردة من كل عاطفة ، عسى هذه البحار التى تعرضين ابنتك لأهوالها لا تعيدها لك بعد اليوم • ليت هذه الأمواج تحمل اليك جثتينا وتقذف بهما فوق صخور الشاطىء فتنزل فى نفسك بعد موت ولديك حزنا مقيما ولوعة دائمة • ! »•

وتسافر فرجينى بغير وداع حبيبها ، ويبقى بول وحده يطوف بكل موقع كان عزيزا على فرجينى يخاطب الأغنـــام والطيور وكلبـــه فيديل ويتسلق الصخرة التى تشرف على الأفق البعيد حتى تتوارى السفينة التى رحلت بفرجينى ، واذا جلس الى المائدة تحدث الى شبح محبوبته وقدم لها الطعام كما اعتاد أن يفعل • ويظل هكذا يهذى فاذا رجع الى صوابه أخذ فى البكاء حتى تخنقه العبرات •

وتمر الأيام ويحاول الشيخ أن ينسى بول أحزانه فيشجعه على الدرس ويقبل بول على التعليم بشغف لمعرفة أخلاق الذين تعيش فرجينى معهم • وهنا يصف لنا الكاتب كيف يكون الحب مصدر الاجتهاد والعـــلم والفن والابداع • ويسترسل فى انتقاد المجتمع الحضرى وانتقاد ما يدرس للطلبة من جغرافية سياسية وتاريخ سياسى مفضلا لهم قراءة القصص ، لأنها تهتم بمصالح الناس ومشاعرهم ، ولا سيما اذا كانت تدور حول الفضـــيلة وليست من نوع القصص العابثة المعاصرة •

ويعتاد بول الخروج مع الشيخ فيجلسان فى ظـــل شجرة كانت فرجينى قد زرعتها ، وينتهز الكاتب فرصة هذه الفترة الراكدة فى سير الرواية فيعرض على لسان الشيخ بعض جوانب فلسفته فيتحدث عن الوحدة

والعزلة حيث يقول : « اذا كانت الزوجة الصالحة أعلى مراتب السعادة ، فالعزلة والوحدة أقل درجات التعاســـة • العزلة هى المرفأ الأمين لكل هارب من ظلم الناس • ولهذا يكثر الرهبان والنساك فى البلاد التى يسام الشعب فيها الذل والعذاب ، والوحدة ترد للانسان بعض سعادته الطبيعية لأنها تبعد عنه شرور المجتمع • فى مجتمعاتنـا الموزعة الى مذاهب وشـيع تعيش النفس فى اضطراب دائم بينما لا تعير هذه الأوهام بالا فى حالة العزلة والانفراد ، بل تســترد كيانها وتشعر بوجودها وتحس بالخلق والخالق • تساعد العزلة على تكامل الجسد والوجدان ويكون المعمرون دائما من فئة المنعزلين • والعزلة ضرورية كذلك لسعادة الناس فى المجتمعات المتحضرة ، لأنها السبيل الوحيدة لاستمرار المتعة الوجدانية • واستقرار السلوك الفردى فى الحياة هو الفـرار بالنفس وتطهيرها من رواســـبها فتتركز فيها آراؤنا ولاتنفذ اليها آراء الغير • وليس معنى هذا أن يعيش الانسان دائما بمفرده ، فالحاجة المشتركة تربطه بسائر البشر يكرس لهم نشاطه ويعمل من أجلهم ، كما أنه يكرس للطبيعة كل حاســـة من حواسه ، لأن العناية الالهية أعطتنا أقداما لنسير بها على وجه الأرض ورئتين لنستنشق بهما الهواء وعينين لنرى بهما الضوء ، أما القلب فقد اختص الله به نفســـه » •

ويتحدث عن الطبيعة والحياة الطبيعية فيقول :

« بعد أن ابتعدت عن طريق النـــاس ابتعدوا عن طريقى ، لم أعد أكرههم بل صرت أرثى لحالهم •• ولم أجد استجابة الا من ذوى القلوب النقية الطاهرة ، ان الطبيعة تفتح للجميع صدرها وتدعوهم اليها جميعا ، ولكن كل فرد يحـاول أن يفسر هذه الدعوة حسب هواه ، وقد اســتجاب كثير من التعساء الذين دعوتهم الى ممارسة الحياة الطبيعية ، ولكنهـــم لم يقبلوا عليها رغبة فى ترك حياة الحضر ، بل أيضا طمعا فى الثروة والجاه ، فاذا علموا أننى أدعوهم لأصرفهم عن الثروة والجاه ، ارتدوا ورمونى بالتعاســة والبحث عن الشقاء وأخذوا على ميلى للعزلة ، وادعـوا أنهم وحدهم يخدمون الانسانية » •

ويذكر فنـاء الإنســان فيقول : « ان الأشــياء التى نراها كل يوم لاتبعث فينا الشعور بسرعة الحياة . لانها تنمو وتكبر معنـــا فلا نحس بشــــيخوختها ، أما الأشياء التى تقع عليها العين فجأة بعد فراق طويل . فتنبهنا الى السرعة التى يجرى بها تيار الحياة » .

وينتقد المجتمع الحضرى والفرنسى بالذات ، حيث يشترى كل شيء بالمال حتى الوظائف والألقاب . فالاحترام الذى كان فى الماضى نصيب أهل الفضيلة صار الآن قاصرا على ذوى المال ، ولايصل الى الثراء الا من باع ضميره . أما قول الحق فلا يجلب سوى العداوة . والانسان سعيد الحظ هو الذى توجده العنـــاية الالهية فى بيئة بدائية لا كذب فيها ولا رياء ولا تملق ، بل بذل وتضحية فى سبيل الغير ارضاء لوجه الله . وهذه هى الفضيلة بعينها .

ويمر عامان ونصف العام ، ولم يصل من فرجينى غير رسالة واحدة تبدى فيها أستياءها من الحيـــاة الاجتماعية التى تحملها عمة أمهـــا على ممارستها ، وتتحسر على الأيام الماضية وتؤمل أهلها فى قرب عودتها الى الجزيرة . ويمضى بول يعد الأيام يتسلق الصخور يرقب منهـــا السفن القادمة معللا النفس بأن السفينة التى ستأتى بفرجينى لابد أن تطالعه يوما من الأفق البعيد . ويتصور كيف سيلقاها وكيف سيقيمان معا فى عش واحد يبنيه بيده . وفجأة تعاوده الأحزان والهموم وتســـاوره الظنون والشكوك ، فيتهم فرجينى بالتنكر له والتخلى عنه ، ويستولى عليه اليأس ويكره العمل وينفر ممن حوله ، ويتمنى لو أن حربا اندلعت ليلقى نفسه فى أتونها . ويقول له الشيخ : « ان الشـــجاعة التى تدفعنا الى الاقدام على الموت هى لحظة واحدة ، والحافز عليها يكون عادة اعجاب الناس بنا ، ولكن هناك شجاعة أندر وأعظم تجعلنا نحتمل كل يوم محن الحيـــاة فى استخفاء وتواضع : هى الصبر ، ولا يعتمد الصبر على رأى الآخرين فينا أو على أهوائنا بل على ارادة الله » .

وفى صبيحة يوم تظهر فى الأفق سفينة ويخرج رائد الميناء لاستقبالها بعرض البحر ويعود منها محملا برسائل ، من بينها رسالة من فرجينى تنبىء

فيها أمها أنها قادمة من فرنسا على ظهر هذه السفينة نفسها ، وتعم الفرحة جميع أصدقائها بهذه المفاجأة السعيدة ، فقد عاد اليهم ملاكهم المحبـــوب فرجينى · ويخرج بول لاستقبال السفينة وهو لايتمالك نفسه من فرط السعادة · وينتظر هو والشيخ عند الشاطىء ولكن الأخبار تترى بأن السفينة لن تتمكن من دخول الميناء لشدة النوء وأنها مهددة بالغرق ، ولا تمضى لحظات على هذه الأنباء حتى تهب عاصفة شديدة وترتطم السفينة باحدى الصخور الضخمة المتناثرة خارج المرفأ ·· واذ يرى بـــول هذا المشهد يقفز الى البحر ويسبح محاولا الوصول الى السفينة ، وتبدو فرجينى على ظهر المركب وتلمح صديقها وهو يصارع الأمواج وقد ألقى جميع البحارة أنفسهم فى الماء وأخذوا يسبحون نحو الشاطىء ولم يبق غير بحار واحد راح يتوسل الى فرجينى أن تخلع ثيابها ليتمكن من حملهـــا على ظهره والسباحة بها ، ويأبى الحياء على فرجينى أن تنزع أية قطعة من ملابسها وتؤثر أن يبتلعها الموج من أن يخدش حيـــاؤها ، ويحمل الموج فرجينى جثة هامدة الى الشاطىء · ويأمر حاكم الجزيرة أن يشيع جثمانها الطاهر فى احتفال مهيب اشترك فيه كل سكان الجزيرة ممن عرفوا أفضالها ، وكانت الفتيـــات يجهشن بالبكاء وهن يلمسن نعشـــــــها تبركا بهـــا وتقديسا لهـــا ·

ولم يعش بول طويلا بعد موت فرجينى ، فكان يقضى سحابة نهاره هائما متنقلا بين الآثار التى خلفتها فرجينى ساهما أحيـــانا ، وأحيـــانا باكيا أ ومصليا أو مناجيا أخته ومحبوبته · ويحاول الشيخ عبثا أن يلقى شيئا من البلســـم على هذا القلب الجريح قائلا : « ان الندم لايجدى ·· والموت أمر محتوم ، فما يتخلل حياة المرء من أمان وآمال ومشروعات أشبه ببرج مرتفع فى قمته الموت ·· ومن حظ فرجينى أنها فارقت الحياة قبل أهلها جميعا ، لأن رؤية الموت أشد ايلاما من الموت نفسه : ان الموت من حسنات الله على البشر ، انه الليل الذى يريح من هم النهار ، ففى سبات الموت تهدأ الآلام وتسكن الأمراض وتتبدد المخاوف . والله يمنح الفضيلة قوة لاحتمال محن الحيـــاة ، وهذا برهان على أن الفضيلة وحـــدها تجــد السعادة فى هذه المحن · فاذا أراد الله لها الخلود عرضـــها لمحنة الموت واختبر شـــجاعتها ، وعندئذ تصبح هذه الشجاعة مضرب المثل وتثير ذكرى

آلامهما دموع الأجيال بعدها ! ٠٠ الله موجود يابني والطبيعة كلها تسبح بوجوده ، وشرور الناس هي التي تدفعهم الى انكار عدالته لأنهم يخافونها ٠ ان الاحساس بوجود الله كامن في وجدانك ، وأعماله تتجلى أمام ناظريك ٠ أتظن أن الذي دبر السعادة للناس على الأرض بحكمة لاتعرفها عاجز عن توفيرها للراحلين عنا بحكمة أخرى لاتعرفها ؟ لو أتيح لنا أن نفكر ونحن بعد لم نخرج من العدم هل كنا نتصور وجودنا على صـــورته الحاضرة ؟ والآن ونحن في هذا الوجــود المضطرب المظــلم ، هل نستطيع أن نتنبــأ بما سنئول اليه بعد الموت ؟ هل كان الله بحاجة الى هذا العالم المحدود ليستخدمه مسرحا لعقله الالهي ؟ ألم يكن في مقــدوره بذر الحيــاة في غير حقول الموت ؟ ٠٠٠ » ٠

وينتهي حديث الشيخ ويشعر بــول بقوة الفضــيلة وبمــا في الموت من عزاء عن هذه الدنيــا الزائلة ٠ وبما في الآخـرة من ســعادة تنتظر أبناء الفضيلة ٠ فيطلب الموت ويشتهيه لينعم مع فرجيني بحياة هنيئة خالدة ٠ وتشاء الصدف أن تشاهد كل من مرجريت وهيلين رؤيــا واحدة في نفس الليلة تظهر لهما فيها فرجيني وهي تدعوهم جميعا اليها،ويتحقق الحلم ويلحق بول بحبيبته ولم يكن قد مضى على موتهــا غير شهرين ، وتلحق به أمه بعد ثمانية أيام وتموت مدام دي لاتور بعد شهر،ولا يعيش الخادمان طويلا بعد هذه الأحداث ٠ وهكذا يخلو المربع من سكانه جميعا حتى من الكلب فيديل الذي نفق حزنا على أصــحابه ويدفن الجميع في نفس المكان الذي عاشوا فيه ، وفي بطن الأرض الطيبة التي أفاضت عليهم بخيراتها في هذا « الوادي السعيد » تحت ظل شجرة الخيزران ٠

وتنتهي رواية الشيخ بهذه الكلمات المؤثرة :

« أيها الأصدقاء الأحباء ، ان هذه الغابات التي أظلتكم أشجارها وهذه الغدران التي جرت من أجلكم مياهها وهذه التلال التي ترقدون عند سفحها لاتزال تندب فراقكم ، ولم يقو أحد بعدكم على زراعة هذه الأرض المهجورة أو رفع جدران هذه الأكواخ المتساقطة ٠ لقــد فرت عنزاتكم الى البرية وجفت كرومكم وهربت طيوركم ، ولم يعد يسمع في قاع الوادي غير الحدأة

والغربان فوق الصـــخور ، أما أنا فمنذ افتقدتكم أعيش كالصديق الذى فقد كل أصدقائه ، والوالد الذى ثكل جميع أبنائه أو المسافر الذى ضل طريقه وبقى هائما على وجه الأرض وحيدا وفريدا » .

ويبتعد الشيخ وقد خلا الوادى الا منه،ويقول الكاتب : « لقد جرت دموعى أكثر من مرة وأنا أستمع لروايته » .

« انها قصة حلم من الحب الجميل ، الحب الطاهر النقى الذى تود الانسانية أن تشهد مثله من وقت لآخـــر لتستريح من عنـــاء الحقيقة القاسية ، قصة حب ساذج انتزعت من تاريخ القلب البشرى وبقيت مبللة بالدموع مثيرة للدموع . ان هذه الأحداث البسيطة التى تحكى مولد طفلين وحبهما العذرى ثم فراقهما القاسى ، ثم الأمل فى العودة ينهيه الموت ، وهذان القبران المنطويان على قلب واحد تحت ظلال أشجار الموز ، كل هذا يثير مشاعر الجميع من أثرياء وفقراء ، فلماذا يبحث الشعراء عن الالهام بعيدا ؟ ان عبقرية الشاعر كامنة فى قلبه ، ويكفى أن تهتز هذه القيثـــارة الالهية عفوا ببعض النغم البسيط لتعزف وتبكى جيلا كاملا » .

تلك هى رواية : « بول وفرجينى » التى أبكت جيلا بأسره وألهمت أكثر من كاتب وشاعر وكانت مشعلا من المشاعل الرائدة للحركة الأدبية .

نقد العقل العملي والنظري

كانـــط

١٧٨٨م

« كانط » فيلسوف من كبار فلاسفة الانسانية ، وهو مبدع ما يسمى « بالمثالية النقدية » ، التى مهدت السبيل الى انتصارات الفلسفة الألمانية الكلاسيكية ، وواضع مشروع يرمى الى استتباب السلام الدائم بين أمم الأرض قاطبة دون تفريق .

استهل كانط عصرا جديدا فى الفكر الفلسفى . ومؤلفاته الكبرى أشبه بمعالم الطريق فى تاريخ الفلسفة الحديثة . انه أحد أولئك العباقرة من أفذاذ الانسانية المفكرة ، الذين استطاعوا بحياتهم ومؤلفاتهم أن يخلقوا فى الحياة العقلية داخل بلادهم وخارجها أثرا باقيا عند أهل عصرهم وعند الخلف من بعدهم . لقد وصفه أحد الكتاب بأنه « مفكر هز العالم بفكره أشد مما هزه معاصره فردريك الأكبر ، على الرغم من جيوشه ومدافعه » . وما من أحد ممن يأخذون أمور الفكر والحياة مأخذ الجد يستطيع اليوم أن يفكر أو ان يعمل من دون أن يضع موضع الاعتبار نظريات كانط وآراءه . وقد كانت تلك الآراء ولاشك من أكبر الوقائع فى تاريخ العصر الحديث ، انها فيما يرى كونوفيشر ، تمثل ثورة شبيهة بالثورة التى أحدثها سقراط حين صرف الانسان عن دراسة الكون الى دراسة نفسه . والحق أنها تحدد مهمة الفيلسوف تحديدا دقيقا بحيث لا يعنيه أن يستكشف مبادىء الوجود ولا أن يحصل لنفسه نظرة عن العالم ، بقدر ما يعنيه أن يبحث فى قوة العقل ليتبين اختصاصه وحدوده ومداه ، ويتلمس شروط المعرفة الانسانية ويبحث عن قيمة أفكارنا وأحكامنا .

حياته من أجل الفكر

بيد أن حياة « كانط » الخاصة تكاد أن تضمر أمام عظمة عمله ، وان كانت تقدم لنا صورة مشرقة لسلوك المعلم فى خواطره وتوجيهاته .

ولد « كانط » فى ٢٢ من أبريل سنة ١٧٢٤ بقرية « كونيجسبرج » وكان أجداده لأمه وابيه من المزارعين والسقاة والحرفيين فى بروسيا الشرقية ، وفى كورلاند ، وبعضهم فى لتوانيا ، وكان والداه يعيشان عيشة متواضعة أقرب الى المسغبة • وهو مع هذا يفخر بهما فيذكر أنهما وان كانا لم يخلفا له ثروة فانهما لم يتركا وراءهما دينا • وقد استطاعا أن يهيئا له تعليما نموذجيا مرتكزا على القناعة والاستقامة •

وبفضل « فرانز ألبرت شولتز » ـ وكان واعظا وأستاذا لأصول الدين ، تربطه بأبويه رابطة صداقة ـ ألحق « كانط » وهو لما يزل فى الثامنة بمعهد فريدريك ، وهو مدرسة ثانوية تصطبغ الدراسة فيها بالصبغة الدينية التى لاتخلو من تزمت • وفى سنة ١٧٤٠ بدأ « كانط » دراساته فى اللاهوت والفلسفة والرياضيات فى جامعة « كونيجسبرج » مسقط رأسه • وكان أستاذه فى الفلسفة هو الأستاذ « مارتن كنوتزن » الذى سيثنى عليه « كانط » فيما بعد ثناء عاطرا لحرصه على الا يجعل من تلاميذه ببغاوات تردد ما تلقته دون فهم ، بل شخصيات مفكرة يتوخى كل منهم ممارسة التأمل والادلاء بالرأى بعد النظر والتدبر • وعقب وفاة أبيه سنة ١٧٤٦ قطع كانط دراسته التى استمرت زهاء سبع سنوات • ولحاجته الى المال اشتغل لسنوات عديدة معلما خاصا • وفى تلك الحقبة من حياته انصرف الى استكمال ثقافته العامة مستفيدا من خبرات السنين وأحداثها مستخلصا منها القدرة على فهم الحياة ومواجهتها • وفى سنة ١٧٥٥ حصل على درجة الماجستير • وفى نفس السنة غدا مؤهلا للتدريس فى التعليم العالى بدراسته عن « توضيح جديد للمبادىء الأولى للمعرفة الميتافيزيقية » ، وأصبح بذلك أستاذا بجامعة «كونيجسبرج» ، وتجلت براعته كمحاضر وسعة اطلاعه وعمق فكره ، فى ذلك النشاط الواسع الذى مارسه فى التعليم وتناول فيه فروعا متعددة من المعرفة : فى الرياضيات والفيزياء ـ وكان أول من درسها فى جامعة ألمانية ـ والأنثروبولوجيا • غير أن ما يسترعى الانتباه أن « كانط » فى هذا النشاط الموسوعى فى دروسه لم يعلن فلسفته الخاصة •

حيـــاة كانط

التامل الخصب .. الوضوح فى الفهم .. السلامة فى التفكير !!

ويذكر الكاتب « راينهولد ثونز » ، وكان من المتابعين لدروسه ، أنه كان يؤثر البساطة فى التفكير وفى السلوك ، وكان يمتعض من التزمت فى العقيدة ويمج الاستبداد بالرأى ، يختص تلاميذه بالحدب والرعاية ، ويحوطهم بعطف الأب مشجعا لهم على النقد والتحليل وعلى اتبـــاع نظام صارم فى الدراسة .

وما إن عين أستاذا للمنطق والميتافيزيقا فى جامعة « كونيجسبرج » سنة ١٧٧٠ وهو فى السادسة والأربعين ، حتى فاض انتاجه فى محاضراته وكتبه ، وتحددت معالم فلسفته . وقد ظل يشتغل بالتدريس فى الجامعة الى أن آثر الاعتزال سنة ١٧٩٦ ، ومات سنة ١٨٠٤ ، وقد ترك لنا انتاجا فكريا ثمينا يغطى نصف قرن من ١٧٤٩ الى ١٧٩٩ .

وحيـــاة « كانط » ذاتهـا بالنسـبة لانتاجه ليس فيها كما ألمحنا ما يثير . هى حياة شغلها التأمل الخصب لمفكر انصب اهتمامه الأكبر على التدريس ، ولكننا برغم هذا نجد من التجنى على صاحبها القول بأنه عاش فى عزلة عن الدنيا وعزوف عن شواغلها وغيبة عن أحداثها . فلقد كانت الحياة فى نظر « كانط » واجبا ساميا ينهض بأدائه على الوجه الذى يرضى الضمير ، وكانت محاضراته الجامعية تجمع الى جانب الدراسة الخالصة ، التوجيه الأخلاقى السديد . من ذلك ما أثر عنه فى أحاديثه الى طلابه قوله : « ان الأستاذ الجامعى فى حرج شديد ، فهو يود من صميم قلبه أن يلم طلابه بألوان متعددة من المعارف ، بيد أنه يخشى من أن يستغرقوا فى حشـــد لاينتهى من المعلومات ، وأن يتعجلوا الحكم على الأشـــياء ، فتخرج منهم جماعة من أنصاف المثقفين تضيق نظرتهم ويختنق أفقهم ، فتعمى بصيرتهم ويكون الخطر منهم أفدح من ذلك الخطر الذى نخشـــــاه من الأميين والجهلة » .

فهنا دعوة الى الوضوح فى الفهم والسلامة فى التفكير ، لا على اساس حشد المعلومات ، وانما على دعامة منهج واضح يعول فيه على النظرة العقلية النقية التى لاتشوبها شائبة من انفعال أو رغبة شخصية أو نزوة عارضة ٠ وعلى ذلك نراه يذكر فى بعض احاديثه : ينبغى للأستاذ الجامعى الا يعلم طلابه الأفكار ، بل أن يعلمهم كيف يفكرون ، وألا يملى عليهم الآراء ، بل أن يعنى بتوجيههم لكى يصلوا الى بلورة الآراء السديدة بأنفسهم ، وهنا يطيب نفسا ويهدأ بالا الى أن هؤلاء الطلاب سينضمون لا محالة الى صفوة المفكرين الذين لا يعملون لنهضة أوطانهم فقط ، بل يعملون أيضا لنهضة الانسانية جمعاء ٠

ومن أحاديثه كذلك ما ينصب على النهج الذى ينبغى اتباعه فى تدريس الفلسفة على سبيل التخصص ، فنراه يقول : « ينبغى علينا حين نتصدى لدراسة فيلسوف ما ، ألا نتخذه مثلا ، وألا نتبع آراءه مهما يكن فيها من سحر وطلاوة ، وانما لنا أن نقف منه موقف حياد ، وأن نتغلغل فى أعماق أفكاره ثم نحكم بعد هذا على هذه الأفكار » ٠

الفلسفة والعلوم الطبيعية

وتكوين « كانط » الفكرى تكوين غنى ، فمنذ العام السادس عشر من عمره درس فلسفة « فولف » فى سنته الأولى بجامعة « كونيجسبرج » ٠ ومن عجب أنه سجل اسمه للتخصص فى دراسة أصول الدين ، وكان يندر أن يتابع محاضرة واحدة فى هذه الدراسات ، بل كان شغفه منصبا على الفلســـفة والعلوم الطبيعية ، وقد هيأ له اشتغاله بالتدريس كمعلم خاص أن يختلط بأسر عديدة من الأسر الألمانية الكبيرة ، ومكنه ذلك من الاتصال بكثير من الشخصيات المعاصرة له ٠

وقد نمى هذا الاختـــلاط بالناس فهمــه للطبيعة البشرية ، وعمق خبراته بالعلاقات الانسانية ، فاذا أضفنا الى ذلك حرصه منذ شبابه الباكر على جمع المعارف وتصنيف المعلومات التى تثرى ثقافتـــه وتغذى عقله ، للاحظنا أنه حين راح يمارس عمله أستاذا فى الجامعـــة تجلت فيـــه خصال

الكاتب الى جانب صفات المحاضر . فليس غريبا بعد هذا أن يجذب « كانط » الى محاضراته العديد من عشاق المعرفة .

وقد استهل « كانط » دعوته فى الفلسفة بضرورة النظر الى التجربة نظرة فاحصة قبل التطلع الى التأمل الخالص ، وضرورة الف الانسان للنظر الفلسفى قبل عكوفه على دراسة المذاهب المختلفة ، وكانت وقفة « كانط » من الفلسفات السابقة عليه وقفة تنذر بالقطيعة وتؤذن بنظرته النقدية الجديدة .

وقد اقتنع « كانط » بأنه لا سبيل الى تقديم الدراسات الفلسفية الا بالتحليل . وقد بسط خواطره فى هذا الصدد فيما كتب من رسائل ومقالات بين عامى ١٧٦٢ ـ ١٧٦٣ . وفى تلك الفترة يظهر نفوذ كل من الفيلسوف الاسكتلندى « هيوم » والمفكر الفرنسى « روسو » على الفيلسوف الألمانى . ولاشك ان اهتمام « كانط » بالتحليل كدعامة لكل فكر فلسفى مرجعه ما طالعه من نقد لعلاقة العلية عند « هيوم » . حتى انه يذكر أن هذا الفيلسوف قد أيقظه من سباته ، ومشكلة العلية التى أثارها « هيوم » تتمثل فى تعذر الوصول الى الروابط الضرورية التى يلزم أن تربط بين العلة والمعلول ، ما دام ليس فى الامكان أن يكون المعلول متضمنا فى العلة بحيث نستطيع أن نصل اليه بمجرد تحليلها .

وكان « هيوم » حريصا على ابراز مكانة الاعتقاد ، وهو الذى ينبع فى الأساس من حيث يصدر الاحساس . هذا وكان « روسو » يشيد بيقظة الضمير ويتوق الى ارساء العلاقة الانسانية على أساس الحرية والاخاء والمساواة . وكان من آثر ذلك أن انصب اهتمام « كانط » على ما عسى أن يكون من قيم أصيلة عزيزة الجانب لا يتوافر للسلوك الأخلاقى الأساس السليم الا بها وينبنى على هذا أنه اذا كان لابد للمعلم من أسس راسخة فى المجال الطبيعى المادى ، فلابد للأخلاق من أسس مماثلة فى المجال الانسانى . ويخلص « كانط » من هذا الى أنه اذا كان على العقل أن يشرع للتجربة المادية ويضع أصولها ، فعليه أيضا النهوض بمهمة لاتقل خطرا وهى أن يرسى للتجربة الأخلاقية أصولها ويحدد لها غاياتها .

ان ما طالعه « كانط » « لهيوم » و « روسو » قد أثر فيه تأثيرا عميقـا ، وأدار فى رأسه مشكلات أصيلة تعـد بحق الخامة الجوهرية لفلسفته • واذا كان « هيوم » قد وقف عند حد تفسير الضرورة فى العلية بعادة فى الذهن يثبتها الاعتقاد ، واذا كان « روسو » قد اكتفى بالدعوة العاطفية ، فان « كانط » بروحه المشرعة قد وضع بالعقـل كل شىء فى موضعه •• ولذلك كانت ثقافة « كانط » الواســـعة واحاطته بالمذاهب السابقة على اختلافها وتنوعها ، بمثابة الحافز الأساسى الذى حفزه الى تقديم فلسفة متكاملة على أساس التحليل والنقد •

لذلك نجد أنه فى ســنة ١٧٧٠ حين صار أستاذا للفلسفة بجامعة « كونيجسبرج » ، نشر فى نفس العـام رسالة باللغة اللاتينية بعنوان : « صورة العالم الحسى والعالم العقلى ومبادئهما » • وفى هذه الرســالة ظهـرت لأول مرة بعض الأفكار الأساسية فى فلسفته • فاذا لاحظنا أن « كانط » قد ذكر فى بعض كتاباته وأحاديثـــه أن سنة ١٧٦٩ تعد سنة حاسمة فى تفكيره ، لتبينا أن هذه الرسالة تعتبر بحق أول اعلان للفلسفة الكانطية • ويقول « كانط » نفسه عنها انها سنة الالهام والضوء الغامر • ويمكننـا أن نصوغ القـاعدة الأساسية التى خطرت له آنذاك على النحو التالى : ان الصور والمبادىء التى تعد الشروط الضرورية لكى يمكن لشىء أن يكون موضـوعا لمعرفتنا ، يجب أن تكون صورا ومبادىء صالحة لكل تجربة . وطبق « كانط » هذه القـاعدة على الزمان والمكان من حيث اعتبارهما صورتين لاحساسنا ، أى من حيث كونهما الاطار العقلى الضرورى الذى بدونه لايمكن للاحســاس أن يكون احساسا • وتعد هذه الفكرة ايذانا بالثورة الكانطية فى الفلسفة المناظرة للثـورة الكوبرنيقية فى الفلك : فالأشياء تدور حول الذات العارفة دوران الكواكـب حـول الشمس •

العقل •• المشرع الأول

لاشك أن « كانط » كان بسبيل انضـاج مذهبه الفلسفى وكان متأنيا فى ذلك غاية التأنى ، ولهذا اســتغرق أحد عشر عاما فى تطبيقات

هذه الفكرة الأولى . فبعد أن كان يتحدث عن الاحساس نراه يتحدث عن الظاهرة ، وبعد أن كان ينظـر الى الظاهرة راح يتطلع الى ما يحكمهـا . لقـد اتضح لكانط أنه اذا كانت هنـاك شروط لابد من توافرها لكى تتم الظواهر على النحو الذى نشـاهدها عليه ، فان هذه الشروط لايمكن أن تستخلص من واقع هذه الظواهر ، بل هى مستمدة من العقـل البحت ، واذا كانت هذه الشروط لازمة لزوما تاما لكى تتم الظواهر ، ومادامت هذه الشروط عقلية فان العقل لازم لزوما تاما للتجربة . وليس فى وسعنا على هذا ونحن بصـــدد البحث فى امكان العلم أن نتوه فى زحمة هذه الظواهر ، بينما نترك المشرع الأول لها الذى يضع شروطها وهو العقل . وعلى ذلك فالطريق الى تعمق الظواهر لا يكون باستعراضها وتسـجيل صفاتها ، وانما يكون أولا وبالذات باحصـــاء شروطها أى بالنظر فى العقل .

ان المهمة الأساسية للفلسفة هى التحليل والنقد لا تبديد الجهد فى تحليل الظواهر ذاتها ، بل بنقد العقل . وتجلت هذه الفكرة متبلورة فى عمدة كتبه « نقد العقل الخالص النظرى » الذى صدر سنة ١٧٨١ . ويعتبر هذا السفر القيم برغم وعورة أسلوبه بحثا تحليليا دقيقا لأصول المعرفة وغاياتها . وقد قيل بحق ان كل من يبحث فى نظرية المعرفة يبدأ بكتاب « لوك » : « مبحث فى الفهم الانسانى » (١) ، ثم لا يلبث أن يتجه الى كتاب « : « نقـــد العقـــل الخالص النظرى » ، حيث تنفتح أمامه آفاق لم يكن فى وسع الفيلسوف الانجليزى أن يوجهه اليها،وان فى هذا الكتاب بحثا جادا عميقا عن الشروط الضرورية اللازمة لكل معـــــرفة صحيحة ، فضلا عن تحديد لإمكانات العقل وتوضيح لمعالم النطاق الذى يتعين عليه الالتزام به . فالكتاب من ثم دليـــل على قدرة العقل الفذة فى ميدانه ، وعلى عجزه الذى لا مناص منه فى غير ميدانه . وليس معنى هذا أن « كانط » قد استطاع فى هذا الكتاب أن يجد حلا نهائيا لمشكلة المعرفة ، فان هذه المشكلة يثير حلها ذاته مشكلات أخرى .

وما كاد « كانط » يحس بما فى كتابه من مشقة واستعصاء ، حتى أخرج بعد عامين كتابا جمع فيه باختصار وفى وضوح الأفكار الأساسية

وهو : « التمهيدات الى كل ميتافيزيقا نبغى أن تكون علما » وقد صدر سنة ١٧٨٣ . ولم يكد « كانط » ينتهى من عرض أسس فلسفته النظرية ، حتى دفع الى الناس بكتابه : « نقد العقل الخالص العملى » الذى صدر سنة ١٧٨٨ . وقد بسط فيه تصوراته الأخلاقية .

أسس الأخلاق عند كانط

لقد تخلى « كانط » من البداية عن ذلك المنهج النفسانى الذى كان متبعا فى كثير من المذاهب الأخلاقية ، وبخاصة عند فلاسفة الحس الأخلاقى الاسكتلنديين : « هاتشسون » و « شافتسبرى » و « هيوم » . فلقد ارتأى «كانط » أن ميدان الأخلاق لايمكن أن يكون ميدانا لتحليل العواطف البشرية ، والا كانت المبادىء الأخلاقية مبادىء متنازعا عليها ، متجاذبة بين أطراف الانفعالات ، خاضعة للميول والرغبات .. وانما للأخلاق كما للمعرفة أسس ميتافيزيقية راسخة . ومعنى هذا أن للأخلاق أصولا عامة شاملة صادقة فى كل زمان ومكان تهيمن على العمل الأخلاقى وتصبغه بصبغة الدوام والرسوخ والاستقرار . وعلى هذا فمهمة « كانط » فى كتابه «نقد العقل النظرى» توازى مهمته فى كتابه «نقد العقل الخالص النظرى». فكما أنه يحلل فى أحدهما أصول المعرفة البشرية ويردها الى قواعد عقلية ثابتة ، فهو فى الآخر يحلل الأصول الأخلاقية ويردها الى قواعدها العقلية الثابتة . وكذلك كان شأنه فى كتاب : « أسس ميتافيزيقا الأخلاق » الذى صدر سنة ١٧٨٥ قبل « نقد العقل العملى » بثلاث سنوات . وكما يمكننا أن نقول ان كتاب « التمهيدات الى كل ميتافيزيقا مستقبلة .. » هو بمثابة ملخص ل « نقد العقل النظرى » فبوسعنا القول ان كتاب « أسس ميتافيزيقيا الأخلاق » يعتبر موجزا عاما لكتاب « نقد العقل العملى » مع فارق واضح وهو أن « التمهيدات » صدر بعد « نقد العقل النظرى » بغير تبسيطه وتخفيف وطأته على الأفهام ، بينما « أسس ميتافيزيقا الأخلاق » صدر قبل « نقد العقل العملى » لتهيئة الأذهان له واعدادها لحسن قبوله . ويمضى « كانط » فى مهمته فيصدر له كتاب « نقد ملكة الحكم » سنة ١٧٩٠ وفيه دراسة فاحصة لمشكلات

الجمال يحسم فيهـا بالطريقة التى حسـم بها فى مشكلات المعرفة والأخلاق ٠

وفى فلسفة « كانط » خيط يصل بين جوانبها المختلفة ، كما يصل الخيط بين حبات العقد ٠ وقد بينا من قبل أن الخطأ الظن بأن « كانط » كان بمعزل عن الحياة الانسانية العامة ، وان بدت حياته الخاصة منحصرة فى دائرة صارمة من العكوف على البحث واعداد المحاضرات والتاليف ٠ فلم يكن يفوته وهو يعيش فى بروسيا الشرقية،أن يلحظ بعين الاهتمام كل ما يدور حوله فى عالم الطبيعة وعالم الانسان ٠ ولئن لم ينجذب نحـو الترحال كما انجذب « روسو » ، فان هوايتـه الأثيرة عنده كانت مطالعة قصص الرحلات والكتب التى تتناول ظواهر البيئة الجغرافية ومعالم البيئة العمرانية ٠ وكان يرى أن مطالعته لهذه الكتب تفيده فائدة جمة فى مهمته التربوية والعلمية التى ينهض بها فى الجامعة ٠ لقد كان يتتبع بشغف تقلبات الأحداث السياسـية تتبعه لتطورات العلوم الطبيعية ٠ وكانت تلهب خياله ثورة أمريكا الشمالية والثورة الفرنسية حيث كان يرى فى مثل تلك الثورات ، ايذانا بأن الانسانية انما تخطو خطوات الى الأمام نحو التفاهم الكامل بين الناس ، بارساء القيم الأخلاقية النقية المنبثقة من الارادة الخيرة ٠ وكثيرا ما كان يدير المناقشات مع طلابه وأصدقائه فى غير أوقات الدرس حول أحدث المكتشفات فى ميدان العلم ، وحول أهم المشكلات فى مجال السياسة ٠ ولا ريب أن مؤلفاته الزاخرة بالتصورات الجديدة قد حبته بالشهرة والمجد ، حتى ان حشودا من المثقفين وطلاب المعرفة كانوا يفدون الى « كوينجسبرج » لرؤيته واستشارته فى مشكلات متنوعة ٠

فلسفة كانـط

وربما كانت أفضل طريقة نتناول بها لب مذهب كانط الفلسفي — وان لم تكن هى الطريقة الوحيـدة — هى أن نتنـاوله عن طريق تصنيفه المزدوج للأحـكام ، ففى رأيه أن كل حـكم (١) اما أن يكون تحليليـا أو تركيبيا ، (٢) واما أن يكون « قبليا » أو « بعديا » ٠ والحكم يكون

تحليليا اذا نتج عن سلبه استحالة منطقية مثل « الوالد ذكر » و « الشيء الأخضر ملون » فهذه أحكام تحليلية لأننا اذا قلنا : « الوالد ليس ذكرا » و « الشيء الأخضر ليس ملونا » كان كل حكم من هذين الحكمين محالا من الوجهة المنطقية .

وتتضح حقيقة كل حكم من الأحكام التحليلية من مجـــرد تحليل الحدود التى يتألف منها . والحـكم الذى « لا يكون » تحليليـا يكون تركيبيا ، والأحكام التركيبية هى جميع الأحكام التى تطلق على وقائع التجربة وخاصة تلك التى تقرر قوانين تجريبية عن الطبيعة مثل « النحاس موصل للكهرباء » وهذه الأحكام ـ سواء أكانت صادقة أم كاذبة ـ يمكن بغير شك انكارها دون الوقوع فى تناقض . ويكون الحكم « قبليا » اذا كان « مستقلا عن كل خبرة بل مستقلا عن انطباعات الحواس جميعا » ، وهكذا تكون عبارة «للانسان روح خالدة» ـ التى لا يمكن تأييدها أو تكذيبها عن طريق الخبرة ـ حكما «قبليا» . هذا ان كانت ذات معنى . وجميع الأحكام التحليلية « قبلية » ، ويمكن اظهار صدقها بل وضرورتها المنطقية دون الالتجاء الى التجربة أو الملاحظة ، وذلك بمجرد تحليل حدودها .

فاذا جمعنا هذين التصنيفين ولاحظنا أن كل الأحكام التحليلية لابد أن تكون « قبلية » أيضا ، رأينا أن هناك فئات ثلاثا من الأحكام تمنع كل منها الأخريين ولكنها معا تكون جامعة . وهذه الفئات هى : (١) التحليلية (والقبلية) ، (٢) التركيبية البعدية ، (٣) التركيبية القبلية . وجدير بالذكر هنا أن ليبنتز يعتبر الأحكام فى نظره يمكن أن تحلل حدودها من الوجهة النظرية ، حتى يتضح أن الرابطة بينها ضرورية من الوجهة المنطقية . ويذهب هيوم وأتباعه المحدثون الى أن الأحكام جميعا اما أن تكون تحليلية (بالتالى قبلية) أو تركيبية بعدية ولا وجود لأحكام تركيبية قبليـــة .

أما كانط فيعتقد غير ذلك ، اذ يعثر على أحكام تركيبية قبلية (١) فى الرياضيات والعلم فى عصره (٢) فى الأخلاق . ومن أمثلة ذلك،هذا الحكم : « لكل حادثة سبب » اذ يمكن انكاره دون الوقوع فى استحالة منطقية ، ومع ذلك فان عموميته الكاملة شيء لايمكن تأييده أو تكذيبه بالخبرة الحسية (فاذا لم نعرف سببا لحادثة ما ، فاننا نستطيع دائما أن نمضى فى البحث

عنه ، لكننا لو اعتقدنا من ناحية أخرى أن لكل الحوادث المعروفة أسبابا فقد تكون هنـــاك حوادث أخرى بغير أسباب • والحق أن الشكل السائد لميكانيكا الكم فى يومنا هذا قد وفق فى رفض مبدأ السببية) •

وجود الأحكام التركيبية القبلية يفرض اذن واجبين فلسفيين : الاول هو عرض هذه الأحكام عرضا واضحا وتاماً أن أمكن ذلك • والثـانى هو البرهنة لا على أن هذه الأحكام تصدر فى سياق أى بحث نظرى وكذلك حيثما ألقيت واجبات أخلاقية على عاتق شخص ما فحسب ، بل البرهنة كذلك على أن للانسان مبرراته حين يصدر تلك الأحكام • ويصوغ كانط هذه المشكلة بان يســـال : « كيف تـكون الأحكام التركيبية القبليـــة ممكنة ؟ » وهذا هو السؤال الرئيسى فى الفلسفة النقدية •• وقد تطلبت الاجابة عنه نقدا لكل المعرفة النظرية والأخلاقية ، كما تطلبت تمحيصا لدعوى الميتافيزيقا بأنها تعطى معرفة عما هو مفارق للطبيعة ، أى انها تعطى معرفة عما يجاوز نطاق كل خبرة ممكنة •

نقد العقل الخالص

مهمة هذا النقد الأولى هى (١) عرض ما يدخل من الأحكام التركيبية القبلية فى الرياضيات البحتة والعلم الطبيعى . وبيان « كيف تكون تلك الأحكام ممكنة » (ب) تمحيص دعاوى الميتافيزيقا . ومن المهم اذا أردنا أن نميز فى فلسفة كانط بين ما هو ادخـــل فى باب التاريخ الخالص وبين ما يمت الى القضايا المعاصرة ، أن نلاحظ أن كانط كان مقتنعا بأن الرياضيات فى عصره وفيزيقا نيوتن والمنطق الأرسطى — كلها كاملة الى الحد الذى يجعل تحليلها بمناهج الفلسفة النقدية يعطى كل تلك القضايا الأساسية التركيبية القبلية التى يمكن أن تستنبط منهـا فى يسر — قل أو كثر — أى قضايا أخرى بطرائق التدليل المألوفة • والخبراء منقسمون حول هذه المسألة ، ألا وهى الى أى حد يرغمنا تطور الهندسة اللااقليدية والنسبية ونظرية الكم والمنطق الرياضى الجديد ، على الاعتراف بأن كانط ما كان لينجح فى وضع تخطيط كامل للمعرفة القبلية •

ومن الافتراضات الأساسية فى الفلسفة الكانطية ، أن الادراك الحسى والتفكير أمران مختلفان ، اذ ينسبهما كانط ــ تمشيا مع علم النفس فى عصره ــ الى ملكتين متميزتين من ملكات العقل ، الأولى هى الحس والأخرى هى الفهم . فاذا طرحنا الأحكام التحليلية جانبا ــ وهى تلك الأحكام التى لاتفعل أكثر من توضيح معنى حدودها ــ فان كل حكم يتالف أو يبدو أنه يتالف من تطبيق أحد المدركات العقلية على شىء جزئى بعينه ، أما ادراك الجزئيات فيعزى الى ملكة الحس ، بينما يعزى الى الفهم ادراك المدركات العقلية والقواعد التى يتم وفقا لها تطبيق تلك المدركات (على الجزئيات) ، ومن الضرورى لكى ندرك وظيفة الحكم التركيبى القبلى ومشروعيته أن نفحص مقوماته ، فنفحص نمط المدرك العقلى ونمط الشىء الجزئى اللذين يجعلانه على ما هو عليه .

ولنبدأ بالمدركات العقلية فنقول ، انها أنماط ثلاثة : الأول المدركات البعدية وهى التى نجردها من الادراك الحسى ، ويمكن أن نطبقها عليه (فكلمة « أخضر » مجردة من معطيات الادراك الحسى ، وهى أيضا تطبق على تلك المعطيات حين نحكم على شىء ما بأنه أخضر) والثانى هو المدركات العقلية القبلية التى وان لم تجرد من الادراك الحسى الا أنها تطبق عليه . والثالث هو « الصور » ، وهذه الأخيرة لا هى مجردة من الادراك الحسى ولا هى مما يطبق عليه . بينما لايتضمن تفسير كانط للمدركات العقلية البعدية شيئا غير مألوف للنزعة من السمات المميزة للفلسفة النقدية . وسنرى حين يتقدم بنا البحث كيف أن هذا التفسير أساسى : (أ) لفهم طبيعة تلك القضايا التركيبية القبلية التى تتضمنها الرياضيات والعلم الطبيعى والميتافيزيقا والأخلاق والحكم الجمالى والتفسير الغائى ، (ب) ولفهم دعواها بأنها صادقة ، (جـ) ولتقرير ما اذا كان لهذه الدعوى ما يبررها فى كل حالة من تلك الحالات الثلاث والى أى حد يكون ذلك .

(أ) فلسفة كانط فى الرياضيات : يحاول كانط أول ما يحاول فى مناقشته للرياضيات فى عصره ــ من حساب وتحليل كلامى وهندسة اقليدية ــ أن يبين أن القضايا التى تحتوى على بديهياتها ومبرهناتها هى

قضايا تركيبية قبلية،وهو لا يعنى بالعبارات التحليلية القائلة بأن بديهيات النظرية الرياضية تلزم عنها مبرهناتها منطقيا • ومن المتفق عليه عامة — منذ الكشف عن الهندسات الاقليدية واستخدامها الناجح فى الفيزيقا — أنه من الممكن انكار مسلمات الهندســـة الاقليدية دون الوقوع فى أية استحالة منطقية ، وأن تلك المسلمات مستقلة عن الادراك الحسى ، وهذا يماثل ما عناه كانط بقوله انها تركيبية وقبلية ، فكثير من الخبراء ينازعون فى الطابع التركيبى القبلى للقضـــايا الحسابية وان تكن بعض القضـــايا الحسابية الخاصة « بمجموع الأعداد الصحيحة كلها » ، قد أنكرت دون الوقوع فى التناقض ، كما أنها مستقلة عن الحس من حيث انها لا تصف ادراكات حسية أيا كان نوعها • ويعتقد كانط أنه حتى الأحكام مثـــل (٧ + ٥ = ١٢) أحكام تركيبية ، لأن فكرة « ١٢ » ليست « محتواة » فى فكرة اضافة ٧ الى ٥ •

والآن وقد افترض كانط أن بديهيات كل نسق من أنساق الرياضيات البحتـــة ومبرهناته أحكام تركيبية قبلية ، فان عليه أن يسأل : كيف تكون مثل هذه الأحكام ممكنة ؟ هل هناك مثلا موضوعات جزئية أخرى غير الادراكات الحسية ، وهذه الموضوعات هى التى تمثلها المدركات العقلية فى الحساب والهندسة ؟ واجابة كانط عن هذا السؤال هى أنه توجد حقا مثل هذه الموضوعات •

ويرى كانط أن الزمان والمكان — اذا قابلنا بينهما وبين الادراكات الحسية القائمة فيهما — فهما : (١) فكرتان جديدتان ، (٢) وجزئيتان أكثر من أن تكونا كليتين•وفى أحد استدلالاته التى يهدف منها الى اثبات القبلية للمكان والزمان ، يلجأ الى امكان تغيير كل سمات الشىء المدرك فى الخيال ، ما عدا وجوده فى المكان والزمان (والحق أن اللون أو الشكل أو ما شابه ذلك للموضوع المدرك ، يختلف كل الاختلاف عن وضعه المكانى والزمانى) ومن استدلالاته التى يبين بها أن الزمان والمكان فكرتان جزئيتان وليستا كليتين ، استدلال يتألف من تأكيده بأن « التقسيم » عملية تختلف اختلافا تاما فى كلتا الحالتين ، فالمكان يقسم الى أماكن فرعية • والزمان الى فترات

زمانية ، أما تقسيم أى مفهوم كلى فانه ينقسم من ناحية أخرى الى أنواع مختلفة (فالحيوان مثلا يقسم الى « فقريات » و « لافقريات » ٠

فان كان كل من المكان والزمان جزئيا قبليا ، فان كانط يستطيع أن يفسر مشروعية أحكام الحساب والهندسة التركيبية القبلية ، فأحكام الحساب تصف تركيب الزمان وبما ينطوى عليه من تكرار لوحداته ، أما أحكام الهندسة فانها تصف تركيب المكان بنماذجه الممتدة ، وهكذا نتبين أن أحكام الرياضيات التركيبية القبلية « ممكنة » بفضل هذه الحقيقة ، وهى أننا حين نضع هذه الأحكام نطبق مدركات عقلية قبلية (وهى مدركات ان لم تكن مستقاة من الادراك الحسى فانها تطبق عليه) على جزئيات قبلية هى الزمان والمكان ٠ ويعتقد كانط أننا ندرك تركيب الزمان والمكان عن طريق ادراك تركيبات وان تكن مماثلة لرسومات ترسم على السبورة ، الا أنها لا تتألف من ظهور علاقات بالطباشير أو أية أداة طبيعية أخرى ٠

ويصف كانط تفسير مشروعية الأحكام التركيبية القبلية ـ كالحكم الذى وصفناه آنفا ـ بأنه تفسير « ترنسندنتالى » (أصلانى) (٢) وهو لهذا السبب لا يسمى فلسفته « نقدية » فحسب ، بل يسميها « ترنسندنتالية » (أصلانية) أيضا اذ « أنها لا تهتم بالأشياء اهتمامها بطريقة معرفتنا للأشياء من حيث انها ممكنة قبليا » ٠

(ب) فلسفة العلم عند كانط : ويمضى كانط ـ بتحليله للعلم وللمعرفة الادراك النظرى للواقع ـ الى بيان أننا نستخدم فى هذه المجالات أيضا ـ كما هى الحال فى الرياضيات البحتة ـ أحكاما تركيبية قبلية من واجب الفلسفة النقدية أو الترنسندنتالية أن تكشف عنها وأن تمحصها لتنظر فى مشروعيتها ، وهنا أيضا نراه يستحثنا على أن نتعرف على ما لدينا من قضايا تركيبية قبلية وعلى أن نثبت حقنا فيما نملك منها ٠

اننا جميعا نصدر أحكاما مؤداها أن هذه الحادثة الجزئية أو تلك « سببت » وقوع شىء آخر غيرها ، وفضلا عن ذلك فقد كان الاجماع

معقودا على قبول مبدأ السببية العام ، وهو المبدأ القائل بان لكل حادثة سببا وذلك قبل ظهور ميكانيكا الكم · والحكم الذى يعبر عن هذا المبدأ هو حكم تركيبى قبلى فى نظر كانط ، وفضلا عن ذلك فان ادراكنا العقلى بأن « س تسبب ص » ــ وهو ادراك متضمن فى المبدأ العام ونطبقه حيثما نصدر حكما عليه بعينه ــ هو ادراك قبلى ، ومن المؤكد أنه لم يتم تجريده من أى ارتبـاط ضرورى أدركناه بالحواس ، ما دام كل ما ندركه بالحواس هو تعاقب الوقائع · وكان هيوم قد أثبت من قبل أننا لانجرد علاقة الضرورة العلية « من » الادراك الحسى · وكانط يعتنق آراء هيوم فى هذا المجال من حيث جوهرها ، ومع ذلك فاننا نطبق هذا المدرك العقلى على الادراك الحسى · والاسم الذى يطلقــه كانط على المدركات العقليـــة التى لا تميز الزمان والمكان ــ على نحو ما تميزهما مدركات الرياضيات لكنها ممكنة الانطباق على الادراك الحسى ــ هو « المقــولات » ، وكونهــا من مقومات الاحكام التركيبية القبلية يجعلُ من الضرورى ترتيبها ترتيبا منظما .

وهناك مفاتيح بعينها يعتقد كانط أنه بمعونتهـا يمــكن أن يتم هذا الترتيب · فلدينا أولا الاختــلاف القائم بين الأحكام الذاتيــة المستندة الى الادراك الحسى ، والأحكام الموضوعيــة التجريبية · قارن مثلا بين هذين الحكمين : « الشىء الذى يبدو لى الآن لونه أخضر » و « هذا شىء أخضر » فالحكم الأول لايدعى أنه عن أى شىء معروض أمام الجميع أعنى ، أى شىء مســـتقل عن ادراكى الحسى ، أى شىء يدركه الآخرون بحواســـهم كمــا أدركه أنا بحواسى ، أى شىء يظـــل باقيــــا حتى بعد ان أختفى عن الوجود · أما الحكم الثانى فيدعى انه موضـــوعى وانه يقــال عن جوهر يوجد مستقلا عن ادراكى الحسى ، ومع ذلك فان كلا من الحكم الذاتى الحسى والموضوعى التجريبى يحتوى على نفس المضمون الادراكى الحسى · ومن ثم يقول كانط ، اننا حين نضع الحكم الذاتى المستند الى الادراك الحسى ، فاننا لانستخدم مدرك الجوهر أو بالأحرى « مقولة » الجوهر ، على حين أننا نستخدم هذه المقولة فى اصدار الحكم الموضوعى التجريبى ·· وهذا يؤدى بنا الى نتيجة : هى أننا لو عقدنا المقارنة بين الأحكام الموضوعية التجريبية

والأحكام الذاتية الحسية التى يحتوى كل منها على نفس المضمون الادراكى الحسى ، واذا طرحنا هذه الأخيرة من الأولى ـ اذا صح هذا التعبير ـ فانه يتبقى لدينا مقولة واحدة أو أكثر من مقولة ٠

وثمة مفتاح ثان لايتعلق باستكشاف المقولات فحسب ، بل يتعلق كذلك بالمعيار الذى يجعلنا نوقن بأننـــا قد استكشفناها جميعـا ، هذا المفتاح هو الاختلاف بين مادة الأحكام الموضوعية التجريبية وصورتها ٠ فالتعبير عن مادة مثل هذا الحكم يتم دائمـــا بوساطة مدركاته البعدية . أما الصورة فمن الممكن التعبير عنها بأن للحكم تركيبا بعينه ٠ فمثلا الحكم : « اذا أشرقت الشمس ، فان حرارة الصخر ترتفع » حكم مصوغ فى صورة « اذا ٠٠ ف ٠٠ » وتركيبه تركيب الحكم الشرطى ، وهذا يعبر ـ وفقا لكانط ـ عن هذه الحقيقة ، وهى أننا فى صياغتنا للحكم نلجأ الى استخدام مقولة « س تسبب ص » ٠ وحين يدخل كانط فى اعتباره الاختلاف بين الأحكام الذاتية الحســية والأحكام الموضوعية التجريبية التى لها المضمون الادراكى نفسه من ناحية ، والاختـلاف بين مادة الأحكام الموضـــوعية التجريبية وبين صورتها من ناحية أخرى ، يعتقد أنه فى مقدورنا أن نرى أن صورة الأحكام الموضوعية التجريبية أو تركيبها يمثل « المقولات » ٠ .

فاذا أثبتنا فى القائمة اذن ، كل شكل من أشكال الحكم ـ أى جميع صنوف التركيب المنطقى التى يمكن أن توجد فى الأحكام ـ دون أن نترك شكلا واحدا منها ، استطعنا أن نصل حينذاك الى قائمة كاملة للمقولات ٠ وان كانط ليعتقد أن المنطق التقليدى (الذى عدله بنفسه تعديلا طفيفا) يحتوى على قائمة بكل الأشكال المنطقية الممكنة للحكم ، ومن ثم فانها تشمل ضمنا كل المقولات ٠ ويتفق معظـــم الخبراء على أن كانط بالغ فى تقدير اكتمال المنطق التقليدى من هذه الناحية ، ولن نحاول هنا أكثر من ايراد المقولات كما رتبها كانط وهى : (١) مقولات الحكم ـ وهى الوحدة والكثرة وجملة الكل (٢) مقولات الكيف ـ وهى الموجـود والسلب وحد التناهى (٣) مقولات الاضافة ـ وهى الجوهر فى مقابل العرض ، والسببية فى مقابل التلازم ، والمشاركة أو التفاعل (٤) مقولات الجهة ـ وهى الامكان فى مقابل الاستحالة ، والوجود فى مقابل العدم ، والضرورة فى مقابل العرضية ٠

وليس يجدينا أن نمضى أبعد من ذلك فى الحديث عن اشتقاق تلك المقولات فالمبدأ هو نفسه ذلك الذى صورناه فى حالة « السببية » اذ يفصل المضمون الادراكى الحسى المشترك بين حكم موضوعى تجريبى والحكم الحسى (الذاتى) المقابل له ٠٠ يفصل أولا بين التركيب المنطقى المختلف أو الصور المنطقية المختلفة لهذين الحكمين وتكون الصور المنطقية للحكم الموضوعى التجريبى — بطريقة أكثر أو أقل جلاء — هى نفسها مقولة من تلك المقولات ٠

وتتألف الأحكام التركيبية القبلية من تطبيق المقولات على المعطيات المقدمة للحواس فى المكان والزمان ، أى من تطبيقها على الكثرة الادراكية فى مجال الادراك الحسى ٠ ولما كانت المقولات « لم » تجرد عن تلك الكثرة المعطاة على هذا النحو ، فان تطبيق المقولات على الكثرة ليس مجرد اعلان منا عما يوجد فى الادراك الحسى ، (كيف يمكن أن نعلن مثلا أننا قد وجدنا الضرورة السببية فى الادراك الحسى ، بينما كل ما أدركناه هو انتظام التعاقب بين الحوادث ؟) ٠ ان نظر كانط الثاقب الحقيقى — أو المزعوم — فى طبيعة تطبيق المقولات على الكثرة التى يتبدى عليها الادراك الحسى يعد نقطة رئيسية فى فلسفته النقدية ، وهو نفسه قد قارنها بفكرة كوبرنيكوس الثورية ، اذ جعل كوبرنيكوس « الملاحظ يدور حول الشمس بينما ترك النجوم ثابتة » ٠ وتطبيق المقولات على ما فى الادراك الحسى من تعدد ، بل ان مجرد قابلية هذه المقولات للتطبيق هو ما يحيل التعدد الذاتى للظواهر ، التى كانت لتكون مفككة فى الزمان والمكان ، الى حقيقة موضوعية (أو هى حقيقة تشترك فى ادراكها الذوات وتتبادل ذلك الادراك) نميز فيها الأشياء الطبيعية باعتبارها مصدرا للادراك الحسى المترابط ارتباطا منظما ، وباعتبارها جواهر قادرة على الدخول فى علاقات سببية وعلى التفاعل مع الجواهر الأخرى ٠

وهكذا فلأن يكون الشىء شيئا — فى مقابل الانطباع الذاتى البحت — معناه فى نظر كانط أن يكون حاملا للمقولات ، فالمقولات لاتجرد من الادراك

الحسى ذى الأجزاء الكثيرة ، وانما تفرضها الذات عليه ــ اذا صح هذه التعبير • وترجع حقيقة الأشياء التى تشترك فى ادراكها الذوات المختلفة الى الذات المفكرة ، بحيث يكون التفكير هو الربط بوساطة المقولات بين ما هو متعدد • وان كانط ليستخدم هو نفسه مثل هذه العبارات فى محاولته تقديم لمحة مبدئية عن وظيفة المقولات ، وعلينا أن نقنع أنفسنا هاهنا بهذه اللمحة دون أن نتعقبه فى التفصيلات الواسعة لتفسيره الكامل •

لكن ثمة نقطة واحدة ينبغى أن نتعرض لها على كل حال ، ذلك أن كانط يفرق تفرقة حادة بين الذات « الخالصة » التى تفرض المقولات وبين الذات التجريبية ، فكل وعى تجريبى بالذات انما يقوم هو نفسه على افتراض سابق بتطبيق المقولات ، واذن فالذات التجريبية التى تدرك حالاتها الخاصة وتكون بذلك على وعى بنفسها ليست هى الذات نفسها التى « تفرض » المقولات وليس ثمة وعى ذاتى بالذات الخالصة •

فاذا فهمنا أن المقولات من حيث تطبيقها على التعدد الادراكى الحسى هى التى تؤلف الأشياء ، كنا بذلك فى طريقنا الى فهم تلك الأحكام التركيبية القبلية التى ليست أحكاما رياضية • ويتصور كانط تلك الأحكام باعتبارها المبادىء التى يتم بوساطتها تطبيق المقولات على تعدد الادراك الحسى ، فهى تعبر عن الشروط التى تجعل الخبرة الموضوعية ــ فى مقابل كون المرء مدركا لظواهر مفككة ــ ممكنة ، كما أن تلك الأحكام هى الافتراضات السابقة التى لابد منها لكى ندرك الأشياء فى مجال الذوق الفطرى ، وفى مجال العلم • فشروط استعمال المقولات كما تعبر عنها الأحكام التركيبية القبلية غير الرياضية فى نظر كانط انما ترتبط بتلك الحقيقة ــ وهى أن الأشياء والادراكات الحسية قائمة كلها فى الزمان ، فهى شروط زمانية ، ويتضح ذلك بصورة أكثر جلاء فى حالة بعض المبادىء التركيبية القبلية بالنسبة الى بعضها الآخر • وهنا أيضا لانستطيع أن نمضى فى تفاصيل الكيفية التى استخلصت بها القائمة المزعوم لها أنها كاملة ، وأعنى قائمة تلك المبادىء • وعلينا أن نكتفى باحصائها : (١) يقابل

مقولات الكم المبدأ القائل : « ان جميع الادراكات الحسية مقادير ذوات امتداد » (٢) ويقابل مقولات الكيف المبدأ القائل : « انه حكما بظواهر الأمر كلها نقول ان ما هو حقيقى ، اى ما هو شىء مما يكون موضوعا لاحساس ، انما يكون ذا مقدار غزارى ، أعنى أنه يكون ذا درجة » (٣) ولمقولات الاضافة مبدأ يقابلها هو : « لا تكون الخبرة الموضوعية ممكنة الا بقيام رابطة ضرورية بين الادراكات الحسية » (هذا المبدأ الأخير يتم التعبير عنه بصورة أكثر عينية فى ثلاث قضايا تركيبية قبلية وهى : مبدأ بقاء الجوهر : « كل تغير (تعاقب) للظواهر ليس الا تحولا للجوهر » · مبدأ السببية : « جميع المتغيرات تقع تبعا لقانون ترابط العلة والمعلول » · ومبدأ التفاعل : « جميع الجواهر من حيث هى مدركة باعتبارها متآنية فى المكان متفاعلة تفاعلا تاما » (٤) ويقابل مقولات الجهة ثلاثة مبادىء باعتبارها مميزة لأحكامنا عن العالم الموضوعى ·

ويستطيع كانط — بعد أن وجد المبادىء التركيبية القبلية فى اكتمالها المزعوم — أن يتعرض لمسألة تبرير تلك المبادىء · ولعل هذا هو أصعب جزء فى الفلسفة الترنسندنتالية المعروف باسم « الاستنباط الترنسندنتالى للمقولات» · والنقطة الرئيسية فى هذا الجزء هى : أن تطبيق المقولات على الأشياء — وفقا للمبادىء — أمر مشروع ، لأن معنى أن يكون الشىء شيئا ليس الا قبوله للتشكل بالمقولات ، والقول باستخدامنا للمقولات حين نفكر فى موضوعات الواقع ، وبأن استعمالها هو الذى يؤلف الواقع الموضوعى هما على مايبدو أهم ما أسهم به كانط فى نظرية المعرفة وفلسفة العلم ، أيا ما كان رأينا فى دعواه بانه استكشف الافتراضات السابقة على « كل » معرفة علمية وموضوعية استكشافا كاملا ·

(جـ) آراء كانط الميتافيزيقية : يؤدى تحليل المعرفة الرياضية والنظرية الى الرأى القائل بأن المعرفة النظرية تتألف كلها من ترتيب مادة الادراك الحسى الواقعة فى المكان والزمان وفقا للمقولات ، وهكذا تكون المعرفة حسية وعقلية على السواء ، فهى الحصيلة المشتركة للادراك الحسى وللتفكير · فلا يسعنا فيما لايمكن ادراكه ادراكا حسيا الا أن نجعله موضع تفكيرنا ، لكننا لا نستطيع أن نعرفه ، فيمكننا أن نفكر —

بل ينبغى لنـا أن نفكر ـ فى أن هنـــاك شيئا ما خارج الزمان والمكان والمقولات ، هو « الشىء فى ذاته » • ويطلق كانط على مذهبه الذى يؤمن بوجود : « شىء فى ذاته » « المعقول أو النومين » وهو لاسبيل الى ادراكه بالحس ، وان كان من الممكن التفكير فيه • أقول انه يطلق على مذهبه هذا مذهب المثالية « الترنسندنتالية » فى مقابل المثالية المفارقة التى تدعى معرفة الشىء فى ذاته • وكل محاولة لتطبيق المقولات على الأشياء فى ذاتها لاتؤدى الا الى الوهم والخلط •

وثمة مصدر آخر لمثل هذا الوهم ، هو الاستخدام غير الســـليم « لصور العقل » • فكما أن كانط استخلص المقولات ـ وهى تصـــورات لم يتم تجريدها من الخبرة وان كانت ممكنة التطبيق عليها ـ استخلصها من الصور الممكنة للأحكام ، فكذلك يستخلص « الصور » ـ وهى تصورات لا هى تجريدات من الخبرة ولا هى ممكنة التطبيق عليها ـ يستخلصها من الأشكال الممكنة للاستدلال المنطقى • وهو بفعله هذا يعود الى قبول المنطق التقليدى باعتباره كاملا على وجه العموم • والمبدأ الذى نهتدى به هو هذا : نستطيع أن نمضى دائما فى البحث عن مقدمات لاســتدلالاتنا فى مقدمات أعلى منها دون حد نقف عنده (نستطيع أن نمضى دائمـــا فى البحث عن الشروط ثم عن شروط الشروط التى يجب تـــوافرها لصــــدق أية عبارة) • وتتكون الصورة حين نفترض أن هذا التسلسل اللامتنـــاهى « بالقوة » انما يعطى لنا « بالفعل » فى مجموعة • ويســـلم كانط بثلاثة أنماط من الاستدلال الاستنباطى بحيث ينشـــأ عن كل نمط من تلك الأنماط سلسلة من المقدمات التى هى لامتناهية بالقوة ، وبالتـــالى تنشأ « صور » ثلاث هى : (أ) صورة الوحدة المطلقة للذات المفكرة (ب) صورة الوحدة المطلقة لسلسلة الشروط التى يخضع لها الظاهر (ج) صـــورة الوحدة المطلقة للشروط التى تخضع لها موضوعات الفكر عامة • وكل « صورة » من صور « العقل » هذه تزودنا بموضوع مصطنع لنظـــام ميتافيزيقى مصطنع • فالصورة الأولى تزودنا بموضوع لعلم النفس التأملى (الذى يحتوى على معرفة قبلية مزعومة عن الروح) • والصورة الثانية تزودنا بموضوع لعلم الكون التأملى (الذى يتضمن معرفة قبلية مزعومة

عن العالم) والثالثة تزودنا بموضوع اللاهوت التاملى (الذى يتضـــمن معرفة قبلية بالله) ٠

وكل معرفة ميتافيزيقيـــة بالوقائع ـ فى نظر كانط ـ اما أن تعبر عنها المبادىء التركيبية القبلية ، واما تستنبط من هذه المبادىء ٠ فان كانت الأولى أخذت المقولات على أنها مميزة للأشياء فى ذاتها ، وان كانت الثانية أخذت « الصور » على أنها مميزة لشىء يعطى فى الخبرة ، ففى كلتا الحالتين تكون الميتافيزيقا شيئا زائفا ، ذلك أن الاستعمال الخاطىء للمقولات و « الصور » وهذا ما يحاول كانط اثباته ـ يؤدى الى مغالطات عنيدة ، ولا يمكن التعرف على هذه المغالطات وحلهـــا الا بفهم طبيعـة « الصور » و « المقولات » ووظيفتها ٠ ومن بين تلك المغالطات يوجه كانط اهتمـــاما خالصا الى البراهين المزعومة على وجود الله ، وخاصة البرهان الوجودى ، وهو البرهان القـائل بأننـا نستطيع أن نستدل على وجود الله من أننـا نستطيع أن نتمثل فكرة كائن كامل ، فالكائن الكامل واجب الوجـــود ما دام عدم الوجود نقصـا ٠ ورد كانط على ذلك هو أن الوجـــود ليس محمولا ٠

وهناك مغالطات أخرى يسميها النقائض ، وأهمها بالنســبة لمذهب كانط فى مجموعه هو التناقض الذى يقوم بين (١) حرية الارادة (حيث تعد الارادة علة تلك الأفعال التى تصدر عن ذات مسئولة أخلاقيا ، وتكون مسئولة عن تلك الأفعال) وبين (٢) مبدأ السببية الطبيعية الذى ينطبق على الظواهر جميعا (والذى يعد أحد شروط الواقع الموضوعى) ، وهنا يفرق كانط بين « صورة » الحرية الأخلاقية التى لا تتعلق بالظواهر ، وبين « مقولة » السببية التى تنطبق على الظواهر ، وخبرتنا عن الالتزام الأخلاقى تستلزم منطقيا « صورة » الحرية الأخلاقية ، فهى صـــورة نستطيع ـ بل ينبغى ـ أن نفكر فيها ولكننا لانعرفهـــا ، اذ نحن لا نستطيع أن نفكر فيها (و) أن ندركها ادراكا حسيا ٠ و « صورة » الحرية اللاظاهرية التى ينبغى أن نفترضها اذا كان الانسان كائنا أخلاقيا ، تتفق تمام الاتفاق

مع مقولة السببية التى يعد تطبيقها على الظواهر شرطا لمعرفة الوقائع ٠ وسنعود الى هذا الموضوع فى القسم الثانى ٠

وبينما نجد أن لتطبيق « المقولات » على الظواهر وظيفة مكونة ـ أى تكوين الظواهر لتصبح أشياء ـ لانجد «للصور» أية وظيفة من هذا النوع ـ كما رأينا من قبل ـ لكن لها وظيفة منظمة ، فهى « توجه الفهم الى هدف بعينه .«.» مما يحقق لنا أعظم وحدة وأعظم اتساع فى الوقت نفسه » ٠ و « للصور » ـ كما رأينا ـ جذور فى مطلبنا الخاص بالبحث عن الشروط التى تتوافر لأى حكم صادق من ناحية ، وجذور فى الافتراض القائل بأن مجموع تلك الشروط التى تكون سلسلة لامتناهية بالقوة ، انمـــا يعطى « بالفعل » على صورة متناهية من ناحيـــة أخرى ٠ وهذا الافتراض ـ على خلاف المطلب ـ منبع لمعرفة مصطنعة ، بيد أن مطلبنـــا يضفى على حكمتنا وحدة أعظم ما دمنا باتباعه نربط بين أحكامنـــا ـ بواسطة العـــلاقات الاستنباطية ـ ربطا منظما ٠

نقد العقل العملى

يختص هذا الجزء من الفلسفة النقدية بالمبادىء التركيبية القبلية التى تكمن وراء معرفتنا بما ينبغى أن يكون عليـــه الأمـــر وعلى الأخص معرفتنا بما ينبغى أن نفعله ، وهذا الشطر من الفلسفة النقدية يرمى الى عرض هذه المبادىء واثبات مشروعيتها ٠

والقانون الأخلاقى ـ الذى نستطيع أن نحدد به ما اذا كان فعل ما ملزما أو غير ملزم ـ ينكشف لنا عن طريق تحليل خبرة الانسان الأخلاقية واللغة التى يصوغ بها هذه الخبرة ٠ ويحـــاول كانط أن يبين أن الأخلاقيـــة أو اللا أخـــلاقية التى لفعل فاعل ليست صفة لسلوكه ، كما أنها ليست صفة لأية رغبة تعتمل فى نفسه لاحداث حالة بعينها من الحالات ، فهذه الصفات لايلزم عنها أن الشخص يؤدى واجبه من أجل الواجب ٠ ولكى نعرف ذلك ينبغى أن نعرف ما يطلق عليه اسـم مبدئه الأخلاقى ٠ والمبدأ الأخلاقى عند الفاعل هو القاعدة العامة التى يصوغها لتبرير أفعـــاله

(لقد فعلت ما فعلت لأنه حيثما وجدت هذه الظروف فى أى مكان وزمان فينبغى على المرء أن يقوم بهذا الضرب من الفعل) .

ويذهب كانط الى أن مبدأ الشخص يكون أخلاقيــا اذا تمشى مع القانون الأخلاقى ، اذا كان ثمة قانون أخلاقى ، والقانون الذى يستخلصه من تحليل الخبرة الأخلاقية صورى بحت ، وهو الأمر المطلق المشهور : ان مبدأ فعلى - وبالتالى الفعل الذى أقوم به تبعا لهذا المبدأ - انمــا يكون أخلاقيا فى حالة واحــدة ، وواحدة فحسب ، وهى ان أرانى قادرا على أن أريد له أن يكون قانونا كليا . وبهذا المحك الصــورى تنقسم المبادىء الى أخلاقية ولا أخلاقية ، تماما كما تنقسم الأقيسة بوساطة الاختبارات الصورية الى صحيحة وباطلة ، فالمبادىء هى المادة التى نختبرها بذلك المحك الصورى . ولانستطيع أن نوغل هنا فى عرض كانط لكيفية تطبيق القانون الأخلاقى على الفكر والعمل ، كما لا نستطيع أن ننظر فى براهينه على أنه من الممكن التعبير عن القانون الأخلاقى بطرائق متعددة ، لكنها متعادلة ، وأبرز صياغة بين الصياغات التى يراها متعادلة فى تعبيره عن الأمر المطلق هى هذه :« اعمل بحيث تعامل الانسانية ممثلة فى شخصك وفى الأشخاص الآخرين جميعا ، لا باعتبارها وسيلة فقط . بل باعتبارها دائمــا غاية أيضا » . وما من أحــد يعيش فى ظل التقليد الأوربى يمكن أن يجد شيئا غامضا أو مغرقا فى الفنية فى هذه الصياغة .

وبخبرتنا عن الصراع بين الواجب والرغبة، نجد أنفسنا ملتزمين بالأمر المطلق ، ولكن هل هذا الالتزام موضوعى - لا بمعنى أنه صادق بالنسبة لخبرتنا الأخلاقية ، ولكن بمعنى أنه ممكن فى عالم يخضع لقانون السببية؟ ويجيب كانط بأن الالتزام موضــوعى بكل ما فى الكلمــة من معنى ، « فصورة » الحرية التى نستطيع أن نفكر فيها دون أن نعرفها ، ليست فقط مما يتطلبه احساسنا بالواجب ، اذ تتمشى هذه الصورة كما ذكرنا من قبل-من حيث سيطرة مبدأ السببية على العالم الظاهرى.فالانسان من حيث هو كائن لا ظاهرى يخضع للسببية ، ولكنه من حيث هو كائن أو كائن ينتمى الى عالم الشىء فى ذاته ، فانه حــر ، فهو لايستطيع أن يعرف ماذا

تكون حريته تلك . بيد أنه يعلم مع ذلك « أنه » حر . ومن الممكن أن نثبت اتساق الحرية الأخلاقيـــة مع نظام الطبيعة ، ولكن لابد أن تظل طبيعة الحرية الأخلاقية سرا ملغزا .

من ذلك العرض السابق يتضح لنـــا أن الأخلاقيـــة فى نظر كانط لاتحتاج ـ كما يعرف الانسان واجبه ـ الى فكرة كائن آخر فوق الانسان ، أو الى دافع آخر غير القانون الذى يدفعه الى أداء واجبه .. ومهما يكن من أمر ، فان الأخلاقية تفضى حتما الى افتراض أن الفضيلة ترتبط ارتباطا ما بالسعادة ، وأن كلا منهما يرتبط بالآخر ارتباطا محكما ، وعلى هذا النحو توحى الأخلاقية بصورة عن قوة من شأنها أن تصون هذا الترابط . غير أن الرابطة بين الدين والأخلاقيـــة ليست منطقية ، اذ تقوم على فعل من أفعال الايمان الذى يفسر الاتساق بين الحرية الاخلاقية والطبيعة المجبرة فى سيرها السببى ، ولولا تفسيرنا ذلك الاتساق بالايمان لظل أمرا ملغزا . وافساح المكان لهذا الفعل من أفعال الايمان بوجود الله هو مأثرة أعظم ـ فى نظر كانط ـ من ايراد البراهين الباطلة على هذا الوجود .

نقــد الحكم

حاول كانط فى « النقدين » الأولين أن يستكشف ويبرر المبـــادىء المفترضة افتراضا سابقا فى أحكامنا « الموضوعية » عما هو كائن ، وعما ينبغى أن يكون ، ولكنـــه فى « نقد الحكم » معنى بالكشف عن المبادىء « الذاتية » التى تكمن عند الجذور فى (١) بحثنا عن نسق ما فى تفسيراتنا للظواهر الطبيعية (٢) وفى ادراكنا للجمال . والفكرتان الرئيســـيتان اللتـــان يبحث فيها النقــد الثالث هما فكرة القصد والقصدية (ويعنى بالكلمة الأخيرة الانســـجام الذى قد ندركه دون التعرف على أى قصد خـــاص) .

وفكرة القصد متضمنة فى « أى » تفسير علمى ، فكل تفسير من هذا النوع انما يقوم دائمـــا على الافتراض الضمنى بأن القوانين التجريبية الخاصــــة التى نستكشفها هى أكثر من مجرد اقتران غير ذى رباط ،

أو كومة من التعميمات غير المترابطة ، فنحن نبحث عن وحـــدة منتظمـة بعينها ، وهذا يســـتلزم امكان اعتبـــارها « وكأن عقـــلا فاهمــــا (وان لم يكن عقلنا الفاهم) قد قدمها لملكاتنا الادراكية لكى يجعل فى الامكان قيام « نسق » من الخبرة يجىء متمشيا مع قوانين الطبيعة » . هذا الافتراض الذى يؤكد طابعه الافتراضى لفظة « وكأن » ليس جملة تصف الواقع ، وانما هو مبدأ ذاتى منهجى .

والى جانب الافتراض العام عن وجود انســـجام بين عقلنا الفاهم والطبيعة التى نحاول فهمها ، ينظر كانط فى مجالات خاصة من مجالات البحث والتفسيرات الغائية التى تستخدم فيها أحيانا ، ولهذه التفسيرات فائدتها فى تمهيد الطريق للتفسيرات السببية أو فى ملء ثغرات سببية مؤقتة ، بل ربما كانت ثغرات دائمـــة و « فكرة » الأغراض فى الطبيعة « فكرة » نافعة ولا غنى عنها من الناحيـــة المنهجية ، ولكنها باعتبـارها « فكرة » فهى تختلف عن « المقولات » من حيث انها لا سبيل الى تطبيقها تطبيقا موضوعيا .

ويثبت كانط أن التفسـيرات الغائية تدعم الافتراض القـائل بأن « الكون صـــادر عن كائن عاقل .. موجـــود خارج العالم » بيد أن الغائية — حتى فى أكمل درجاتها — لا تبلغ أن تكون برهانا على وجود الله مادامت هذه المبادىء الغائية لا تزيد عن كونها عبارات ذاتية عن « ملكاتنا الادراكية بحالتها التى هى عليها » .

وقد رأينا أن كانط يعترف بالقصدية خالية من القصد ، والحق أنه يعرف الجماد بأنه « صورة القصدية من حيث انها تدرك بمعزل من مثول قصد بعينه » . وترجع وحدة الخبرة الجمالية (الاستطيقية) الى تفاعل غير محدد بين ملكات الادراك الحسى والخيـــال من ناحية ، وبين العقل الفاهم من ناحية أخرى ، وأن الخبرة الجمالية (الاستطيقية) لتدعونا الى أن يقوم العقل الفاهم بتطبيق المدركات العقلية عليها ، مع أنها أغزر من أن تمسك بها تلك المدركات العقلية .

على أن الحكم الجمالى (الاستطيقى) الى جانب اضفائه القصدية على ما نحكم عليه بأنه جميل ـ يذهب الى ما هو أبعد من ذلك ، وهو أن الشىء الجميل يرتبط ارتباطا ضروريا بشعور باعث على اللذة ، وأنه بوصـــفه شيئا جميلا يعد موضوعا للمنفعة ، وأنه يثير اللذة فى نفوس الناس جميعا . هذه العمومية المطلوبة للأحكام الجماليـــة (الاستطيقية) تختلف تمام الاختلاف عن العمومية (الموضوعية) التى تتصف بها الأحكام التركيبية القبلية ، اذ ليس لها فى ملكاتنا الادراكية غير أساس ذاتى بحت ، ومن هذه الناحية تتساوى الأحكام الجمالية (الاستطيقية) مع التفسير الغائى .

ولم يكن المقصود من نقد كانط للحكم أن يحل محل (النقدين) الآخرين بأى حال من الأحوال ، وليس من الممكن تأييد مثل هذا التأويل ، الا اذا ذهبنـــا الى أنه قد نظر الى « القصد » و « القصدية » باعتبـــارهما مقولتين مكونتين لواقع موضوعى .. بيد أنه من الواضـــح أنه قد عامل « القصد » و « القصدية » على أنهما « فكرتان » .

تأثير كانــط

فيما يتعلق بالرياضيات اعتنق هلبرت والمدرسة الصورية من ناحية وبرونر والحدسيون من ناحية أخرى ، رأى كانط القائل بأن الرياضيات تتألف من قضايا تركيبية قبلية تصف تركيب المكان والزمان والبناءات التى تقوم فيهما ، وأن هلبرت ـ بالاضافة الى ذلك ـ ليعـــد اللامتناهى الفعلى فكرة كانطية ، أما فيما يختص بفلسفته عن العلم ، فقد حافظ عليها أنصار المذهب المضـــاد للظاهرية واعتنقها أينشتين بصورة جوهرية . وقد أثر رأيه عن وظيفـــة « الصور » على بيرس وعلى غيره من البرجماتيين مثل فيهنجر . وبراهين كانط عن النقائض التى تنشأ حين تؤخذ « الصور » على أنها مميزة للواقع الموضوعى ، مصدر من مصادر نظرية هيجل القائلة بأن الواقع مناقض لذاته ، وأن المناقضات ترتفع باعادة تركيب « الصورة » تركيبا ديالكتيكيا (جدليا) .

وقد كان تأثير آراء كانط المضادة للطبيعة قويا غاية القوة على الحدسين الأخلاقيين الذين جـــاءوا بعدئذ ، كما ارتضى كثير من فلاســـفة الأخلاق فى المدارس المختلفة تفرقته بين العقل الخالص والعقل العملى .

الأبطال

توماس كارلايل

١٨٤١م

عندما نشر المؤرخ الانجليزى الأشهر « توماس كارلايل » هذا الكتاب الجامع — بعد أن ألقاه فى سلسلة محاضرات بمدينة لندن خلال سنة ١٨٤٠ — أحدث هزة هائلة فى الأوساط والمحافل الأدبية والعلمية .. فقد كان المألوف فى كتابة التاريخ حتى ذلك الحين أن يستمد الكاتب أصل الأحداث من الحركات والتيارات السياسية ، والاتجاهات المختلفة التى تسير دفة الأمور دون الالتفات الى « شخصيات » الرجال والأبطال ، وأثرها القوى فى اعداد العدة لتلك الأحداث .. فاذا بكارلايل يجىء فيهدم هذه النظرية العتيقة ليبنى على أنقاضها نظريته الجديدة التى تعتبر سيرة حياة الزعيم أو البطل بمثابة العنصر الأساسى من عناصر تاريخ أمته .. فكارلايل يؤمن ايمانا عميقا بالوحى شبه الالهى الذى يلهم عظماء الرجال ، ويؤمن بمدى نفوذهم على تاريخ شعوبهم وأثر الرسالات التى يضطلعون بها فى صنع مستقبل بلادهم .

و « توماس كارلايل » (١٧٩٥ — ١٨٨١) أحد الكتاب المبرزين فى تاريخ الأدب العالمى ، وقد حفل الأدب البريطانى فى القرن التاسع عشر بطائفة من كبار الكتاب والنقاد والشعراء والمؤرخين ، ولكن « كارلايل » كان مع ذلك أجلهم شأنا ، وأبعدهم شهرة وأسماهم مكانة .

ولم يكن « كارلايل » كاتبا كبيرا فحسب ، وانما كان كذلك رجلا عظيما ، عظيما فى شخصيته الواضحة المعالم الخالصة الجوهر ، وفى اخلاصه وصراحته ، وفى جلده العجيب على البحث والتحرى والتحقيق ، ومثابرته الدائمة على التأليف والتفكير دون أن يعبأ بالشهرة أو بالمال . وقد ظل طوال حياته يصدع برأيه ويدلى بحكمته دون أن يبالى أوقعت فى النفوس موقع القبول والاستحسان أم موقع الضيق والاستهجان ؟ ولم يكن اعجاب الجمهور به أو تقديره لأدبه وشخصيته ليحمله على أن يقول

غير ما يعتقد ليستبقى هذا الاعجاب ويحتفظ بتلك الثقة ٠ وقد ظل قرابة ربع قرن وهو يشغل مكانة مرموقة بين معاصريه ٠

وكان ما يمقته « كارلايل » ويحمل عليه تظــل آراؤه فيه تنتقل من فم الى فم وتردد فى الأندية المختلفة فيقره بعض الناس على آرائه، ويتلقاها بعضهم بالرفض والاستنكار ، ولكن الاتجاهات التى كان يوافق عليهــا ويشيد بها كان يكفيها موافقته واشـــادته دليلا على صحتها ، وباعثا على تأييدها ٠

وكان جميع الناس يعلمون أنه وصل الى تكوين معتقداته واعتناق افكاره بعد أن خاض لجج التجربة الشخصية وبذل مجهودا فكريا ، وأنه علم نفســـه قبل أن يتطلع الى تعليم غيره ، وأنه مهما كان التقدير الذى تلقاه آراؤه وتظفر به رسالته فان نزاهته واخلاصه وصراحته فوق متناول الشكوك ، كما أن له من المؤلفات العظيمة ما يدعم مكانتـــه ويبعد صيته وشهرتـــه ٠

وحياة « كارلايل » مثل حيـــاة أكثر الكتـــاب والمؤلفين لم تتخللها أحداث خارجية عظيمة ، فهى تكاد تكون مقصورة على مغامراته الفكرية والمؤلفات التى استأثرت بجهـــده واستغرقت وقته ، وحياته الزوجية وعلاقاته بأصدقائه القليلين المختارين ، مثل « ارفنج » و « ستيوارت مل » و « براونتج » وغيرهم من الكتاب والمفكرين ٠

ولد توماس كارلايل لأب بنـــاء ، وكان أكبر اخوته التسعة ، أرسله أبوه الى مدرسة القرية ، فالى المدرسة الثانوية ، ولما كان الفتى ذا نبوغ ظاهر قرر الوالد أن يبعث به الى جامعة « ادنبره » ليتلقى تعليمه العالى فى الدين اعدادا له ليكون فيما بعد قسيسا ، وسار الفتى على قدميه من بلده الى « ادنبره » وهى مسافة طولها مائة ميل ، بلغها وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، ولكن أين لهذا الصبى الفقير بمصروفات الجامعة ؟ لابد له أن يلجأ الى ما يلجأ اليه أبناء الأسر الفقيرة عادة فى اسكتلندة ، وهو أن يشتغل ليكسب قوته ابان دراسته الجامعيـــة ٠ وأخذ كارلايل يشتغل بالتدريس بعض وقته ، ثم ما لبث أن تبين فى نفسه نفورا من هذا الذى أريد منه أن

يدرسه فانحرف عن ذلك الطريق ليكتب مقالة هنا ومقالة هناك، ثم ليدرس اللغة الألمانية ، وفي هذه الدراسة كانت ولادته الأدبية ، فقد انفتحت له آفاق فسيحة ، عرف أولا كيف يصوغ انجليزيته صـياغة ألمانيا ثم عرف ثانية كيف يفكر ·

لما بلغ « كارلايل » عامه الثلاثين ، جـاء الى لنـدن مربيا لأولاد أحد الأغنياء ، ولم يمض طويل وقت حتى صادف من أصبحت له فيما بعـد شريكة حياته ، وبعد زواجه سافر الى « ادنبره » حيث أخذ يكتب في النقد الأدبي ، لكن الزوجين لم يجدا هنـالك ما يقتاتان به فعادا أدراجهما الى لندن ، ومن ثم أخذ يخرج نتاجه الأدبي « الثورة الفرنسية » و « فلسفة الملابس » و « الأبطال وعبادة البطولة » و « الماضي والحاضر » و « خطابات أوليفر كروموبل وخطبه » و « تاريخ فردريك الأكبر » ·

وآيته الكبرى هي « الثورة الفرنسية » التي قص قصتها في صورة حية ناصعة · فكارلايل مؤرخ موهوب ، يبعث الحوادث والأشخاص بعثا جديدا ، فاذا أنت ازاء حيـاة تجـرى فيها الدماء ، وأشخاص يتحركون وينشـطون كمـا يتحـرك الأحياء وينشـطون ، ومن خصائصه في وصف الأشخاص أنه كثيرا ما يوفق الى عبارة واحدة تلخص كل شيء عن الرجل الذي هو بصدد الحديث عنه ·

فرغ « كارلايل » من كتابه « الثورة الفرنسية » ، فأعار المخطوط الى « مل » ليقرأه قبل طبعه ، وحدث أن أعاره « مـل » بدوره الى سـيدة تدعى « مسز تيلر » فألقت به خادمتهـا في النـار ظنـا منهـا أنه أوراق مهملة · ولم يكن عند « كارلايل » نسـخة أخرى ، ولم يستطع أن يستعيد بالذاكرة عبـارة واحدة فأخذ نفسـه بكتابتـه من جديد · ولم ينقطع أسفه على الصورة الأولى لأنها كانت في رأيه أروع ، وان تكن زوجته تخالفه الرأى في هذا ، فعندها أن الصورة الثانية أقل من الأولى حيوية ، لكنها أكثر تنسيقا وأنظم تفكيرا ·

أما كتابه « فلسفة الملابس » فيعرض رأيه فيه بأن العمل واجب مقـدس على الانسـان ، وبأن احتمال المكاره في سـبيله فرض واجب ،

وليست السعادة التى ننشدها جميعا الا شعور الاطمئنان الذى نحسه اذا ما أدينا واجبا « بارك اللهم فيمن وجد عملا يؤديه ، ان فى هذا وحده البركة التى لا بركة وراءها ترجى » . ان العمل المتقن معناه النظام ، والنظام شىء تمناه « كارلايل » لبلاده ، بل للانسانية جمعاء ، متأثرا فى ذلك بما درس من الأدب الألمانى والروح الألمانى .. فلن تفهم «كارلايل» حق الفهم الا اذا وضعت نصب عينيك انه ألمانى الثقافة ألمانى التفكير . ولقـد قيـــل ان انجلترا فى عصر فيكتوريا كانت ألمانيـــة النزعة والاتجـاه بتأثير الملكة فكتوريا نفسها وزوجها الألمانى ، لكنها كانت كذلك أيضا بتأثير « كارلايل » الذى كان له من الأثر على معاصريه ما لم يكن لكاتب آخر فى عهده .

اما آيته الكبرى الثانية فهى كتابه عن « الأبطال » ، الذى سنتحدث عنه بعد قليل . وهو يصـــور البطولة فى شتى نواحيها ، بطولة الحرب وبطولة الدين وبطولة الشعر وهكذا . وهو فى عبادته للبطولة وايمانه بها يبشر بالفلسفة الألمانية أيضا ، تلك الفلسفة التى كان « نيتشه » بعد ذلك لسانها النـاطق .

سر العظمة والبطولـة

اقترحت الآنسة « هاريت مارتينو » (١) على كارلايل القاء سلسلة من المحاضرات .. وجمعت الاشتراكات لها وبدأها « كارلايل » بالقـــاء محاضراته عن الأدب الألمانى فى سنة ١٨٣٧ . ونجحت المحاضرات نجاحا باهرا .. فاتبعها « كارلايل » بالقاء ثلاث سلاسل أخرى من المحاضرات عن تاريخ الانسان الروحى من أقدم العصور حتى عصره فى سنة ١٨٣٨ ، ومحاضرات عن الثورة الفرنسية فى سنة ١٨٣٩ ، واختتمها بمحاضراته عن الأبطـال وعبادة البطـولة فى سنة ١٨٤٠ ، وقد ظفرت هذه المحاضرات بالتقدير الكبير عند القائها ، ثم ظهرت مطبوعة فى سنة ١٨٤١ فى كتاب « الأبطـال وعبادة البطـولة والبطـل فى التاريخ » وهو ليس من كتبه الضخمة الحافلة التى أمضى السنوات الطويلة فى اعدادها مثل كتابه عن الثورة الفرنسية أو كتابه عن رسائل « كرومويل » ، أو كتابه عن تاريخ

« فردريك الثـانى البروسى » ، ولكنه مع ذلك يمثـل المدخل الى فلسفته التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وقد حـاول « كارلايل » فى هذه المحاضرات بسط الكثير من أفكاره الرئيسية ، وبخاصة الأفكار التى ذكرها فى صورة رمزية شـعرية فى كتاب الملابس ، كما كشف فيهـا عن تصـوره للتاريخ ومنهجه فى اسـتقراء حوادثه ، وتفهـم ثوراته وانقلاباته ، وقد اسـتهل المحاضرة الأولى بقوله الذى أوضـح اتجاه المحاضرات من بادىء أمرها : « التاريـخ العـام أو تاريـخ ما أنجزه الانسـان ، هو فى صـميمه تاريخ عظمـاء الرجـال الذين عملوا فى هذه الدنيا ، وقد كان هؤلاء العظمـاء هم قادة الناس وهم المبتدعون والقدى ، بل هم بالمعنى الواسع مبتـكرو كل ما حاول السـواد الأعظم من الناس أن يعملوه ، وكل ما نراه فى هذه الدنيا قائما ومكتملا هو بحذافيره النتيجة المادية الخارجيـة والتحقيق العلمى والتجسيم للأفكار التى استقرت فى نفوس عظماء الرجـال الذين أرسلوا الى هذه الدنيا . ويمكن أن يقـال بحق ، ان روح تاريخ العـالم برمته هو تاريخ هؤلاء الرجـال » .

وهؤلاء الرجال العظماء سواء كانوا شعراء أو مصلحين أو كتابـا أو رجال أعمال أو رجال دين ، فانهم جميعا يحملون بين جنوبهم هذا السر الغـامض سر العظمة والبطولـة الذى تنزل عليهم وأودع فى قلـوبهم . فليسوا هم من مخلوقات الظروف وصنع الحوادث ، وانما هم الذين يخلقون الظروف ويصنعون الحوادث ويملون ارادتهم ، ويحققون مثلهـم العليا . ويقول عنهم « كارلايل » : « مثل هذا الرجل هو ما ندعوه الرجل الأصيل الطريف ، وهو رسـول موفد من المجهول اللانهائى يحمل الينا الأخبار والبشائر ، يحملها الينا مباشرة من الحقيقة الداخلية الباطنة للأشياء ، وهو يعيش متصلا اتصالا دائما بهـذه الحقيقة ، ولا تستطيع الاشاعات الباطلة والتخرصات الكاذبة أن تحجبها عنه ، انه مقبل من قلب الوجود النابض ، وهو جزء من الحقائق الأولية للأشياء » .

ومثل هذا الرجل العظيم أو البطل ، لا يستطيع جهل العصر الذى يظهر فيه ونقائصه وعيوبه أن تشوه رؤيته الأصيلة أو تمحو نضارتها . وهو قد وصل الى حقيقـة مجدية تهب القوة والحياة ، ومن أجـل هذه

الحقيقة يلتفت اليـه وينزل على رأيه ويؤخذ بقوله ، وهو قوى بهـا ؛ وما كشفه هذا الرجل خالد على الزمن ، وتأثيره باق ولا يزول · وقد أكد « كارلايل » هذه الفكرة فى كتابه عن رسائل « كروموبل » وخطبه ، الذى فرغ لتأليفه بعد انتهائه من القاء محاضراته حيث قال : « أعمال الرجل العظيم باقية لا ينالها البلى ، ولا تخلق جدتها ، ولو دفنت تحت أكوام من الأسـمدة وتلال من النفايات والقاذورات · وما استودع فى الانسان وحياته من البطولة ومن الضوء الخالد يضـاف الى الآبـاد فى دقة متناهية واستيفاء تام ويبقى جزءا مقدسا جديدا من حصيلة الأشياء » ·

ويردد « كارلايل » هذا الرأى تأييدا لما سبق أن قاله فى كتابه عن الأبطال ، فقد قال فى المحاضرة الأولى : « ليس هناك شعور فى قلب الانسان أنبل من هذا الشعور بالاعجـاب بمن هو أسمى منه وأجل شأنا ، وهذا الشعور حتى هذه الساعة وحتى جميع السـاعات القادمة هو التأثير الحى فى حياة الانسان · والدين فى اعتقادى يقوم على هذا الشعور أليس الولاء الصادق وهو روح حياة المجتمعات منبثقا من عبادة البطولة والاعجاب المستبسلم الخاضـع بالرجل العظيم ؟ حقا ان المجتمع قائـم على عبـادة البطولة » ·

وهذا الشعور عند « كارلايل » هو أعمق ناحية فى الانسان ، وهو موجود حتى فى عصور الهدم والتدمير وعهـود التنقص والازدراء ، لأنه كامن فى نفس الانسـان لاصق بطبيعته · وفى ذلك يقول « كارلايل » فى كتابه عن الأبطال : « يبدو لى أننى أرى فى عبادة الأبطال التى لا يستطيع أن ينال منها شىء ، الصخرة الراسخة التى تحول دون سقوط الدول فى مهاوى الهلاك وأعماق الخراب » ·

ويمكن أن نتبين فى تضاعيف هذا الحديث شدة تأثر « كارلايل » بالتفكير الألمانى · فنظرية « كارلايل » فى الأبطال من وجوه كثيرة تطبيق عملى للفكرة التى غلبت على التفكير الألمانى فى أوائل القرن التاسع عشر ، وهى ان كل أمة من الأمم ، وكل عصر من العصـور ، وكل حضـارة من الحضارات لها فكرتها الخاصة الغالبة المستغلية · وهى تستمد سماتها من

هذه الفكرة العامة ، ويمكن أن نستخلص الفلسفة والدين والفنون وجميع عناصر الفكر والعمل من هذه الفكرة الرئيسية العامة التى ينبع منها كل شيء كما ينتهى اليها كل شيء ، وما أسماه « هيجل » فى كتابه عن فلسفة التاريخ « الفكرة » جعله « كارلايل » بحـكم مزاجه البريطانى العملى « العاطفة البطولية » ولكى يتجنب الغموض نظر الى هذه العاطفة البطولية ممثلة فى بطل معين · وقد كان « كارلايل » كاتبا فنانا مطبوعا ، ولذا لم يجد صعوبة فى تحويل الفكرة المجـردة الى عاطفة ، ثم منح هذه العاطفة جسدا وروحا وذلك باظهارها ممثلة فى أبطاله ، فهو بطبيعته لا يرتاح الى الصور المجردة ولا يأنس بالمفاهيم الفكرية ، وانما يروقه ويرضى نزعته الفنية وشعوره أن يراها مجسمة فى الأشخاص البارزين والأبطال العظماء ·

فالرجل العظيم أو البطل فى رأى « كارلايل » يمثل الحضارة التى اشتملت عليه والعصر الذى احتـواه ، وقد كشف فكرة العصر وأعلنهـا ووقف الى جانبها مناضلا عنها رافعا لواءها · ولم يجد عصره متحولا عن أن يتبعه وينقاد له · فالوقوف على هذه الفكرة ممثلة فى العاطفة البطولية وموقف البطل يجعلنا نفهم العصر بأبطـاله ، وقد استطاع « كارلايل » بانتهاجه هـذا المنهج أن يعرف تاريخ العصـور عن طريق دراسته لحياة الأبطال الذين برزوا فيها ، وأصبحوا علما عليها وعنوانا لها ، وكأنه بهذه الطريقة قد أعاد كشف ما سـبق أن كشفه أسـاتذته الألمان ، فقد شعر مثلهم بأن كل حضارة مهما اتسعت رقعتها وطال عهدها هى كل متماسك الأجزاء متجاوب الأنحاء ، فنظريتـه فى البطولة جمعت الأجزاء المتناثـرة فى الحضارات والعصور التى حاول « هيجل » أن يربطها بعضها ببعض بطريق القوانين التى كشفها ، وأمكن لـ « كارلايل » بذلك أن يفهم العلاقة العميقة البعيدة بين الأشياء ، تلك العلاقة التى تربط الرجل العظيم بعصره · والشعور البطولى هذا اذن هو باعث المشاعر الأخرى ، كالطاعة والولاء والحب والاعجاب ، وهو محرك الثورات وباعث الانقلابات ومجدد الحياة الانسانية ومنقذها من الضلال والتخلف والجمـود ، وعلى المؤرخ الحق أن ينظر الى الحضارات والثورات وشتى مظاهر الحياة الانسانية فى ضوء هذا الشعور البطولى ، لأنه باعث كل حركة ، والذين يكتفون فى

التاريخ بالنظر الى النظم والأوضاع والقوالب والصيغ ، يغيب عنهم الجوهر واللباب ، فليس الانسان مخلوقا هامدا جامدا ناضب الحيوية مغلول العزيمة تصوغه القوانين والنظم ، ولا هو كائنا عديم الحياة فاقد الحس تعبر عنه الصيغ وتتضمنه ألقوالب • والتاريخ الحق ملحمة بطولة الانسان وقصة محاولاته العظيمة وأعماله الجليلة المدوية فى صفحات التاريخ •

والأبطال الذين اختارهم « كارلايل » فى محاضراته من بين العدد الكبير من الأبطال الذين يعجب بهم هم أحد عشر بطلا • والظاهر أنه رأى الاقتصار على الحديث عنهم ، ليكون ذلك أدعى الى التركيز وأبلغ وقعا فى النفوس • فالبطل فى صورة اله هو « أودين » اله « الاسكندنافيين » • والبطل فى صورة نبى هو نبينا الكريم «محمد بن عبد الله (ﷺ) • واختار البطل فى صورة شاعر الشاعرين العظيمين « دانتى » و « شكسبير » • ومثل للبطل فى صورة مصلح دينى بكل من : « لوثر » و « نوكس » • وضرب مثلا للبطل فى صورة كاتب بـ : « جونسون » و « روسو » و « بيرنز » • وقدم لنا « كرومويل » و « نابليون » مثلين للبطل فى صورة ملك •

ويؤكد لنا « كارلايل » أن علينا أن نقترب من هؤلاء الأبطال بنفوس ملؤها الرهبة والاجلال ، لأنهم يضطلعون بالواجب الاسمى ، ولا يخضعون لمعايير النقد العادية • وقد لا يخلون من عيوب ونقائص — وان كان « كارلايل » يحاول أن يهون من شأن تلك العيوب والنقائص أو ينكرها جملة — ولكن مع ذلك علينا أن نحبهم ونحترمهم ونحنى الرقاب أمام عظمتهم •

١ — البطل فى صورة اله :

وفى محاضرته عن البطل فى صورة اله يقول توماس كارلايل :

نتناول هنا موضوع « البطولة » و « عبادة البطولة » فى تاريخ البشرية وهو موضوع لا يقل اتساعا ولا شمولا عن التاريخ نفسه • فان تاريخ ما أداه الانسان فى هذه الدنيا هو فى لبه تاريخ العظماء الذين أسهموا فى تقدمها •

ومن الأقوال الصائبة ان دين الانسان هو أهم حقيقة عنه .. ولا أعنى بدينه مذهبه فى العبادة ، وانما أقصد الشىء الذى يؤمن فعلا به والطريقة التى يشعر بانه مرتبط بها روحيا بالعالم غير المرئى .. هل كان يؤمن بالوثنية أو تعدد الآلهة أو مجرد التمثيل الرمزى للغز الحياة ؟ — وفى هذه الحالات تكون القوة الطبيعية المادية هى العنصر الرئيسى — أو كان يؤمن بالمسيحية وبأن الذى لا يرى (بضم الياء وفتح الراء) هو الحقيقة الوحيدة ، وبأن الزمن يستند الى الأبدية ، ومن ثم تكون السيادة القدسية قد حلت محل السلطان الوثنى ؟ أو كان يتجه الى الالحاد والتشكك والبحث عما اذا كان هناك عالم غير مرئى .. أو يتجه الى عدم الايمان والانكار الصريح ؟

ان الاجابة عن هذه الأسئلة تهيىء لنا لب تاريخ الانسان من حيث معتقداته .

ولنتخذ « أودين » — الصنم الرئيسى لدى وثنيى اسكندناوة رمزا للبطل فى صورة الاله .. وأول ما ينبغى أن أجاهر به فى هذا الصدد معارضتى للنظرية القائلة بأن تلك الوثنية — أو أية ديانة أخرى — انما تألفت من دجل وكهانة وخداع .. فالدجل لا يخلق شيئا بل يجلب الموت على كل شىء ، والانسان فى كل مكان عدو بالفطرة للأكاذيب .

وقد كانت الوثنية يوما حقيقة خالصة لدى معتنقيها .. وكان جلال الطبيعة أو الدنيا — الذى لا يتبدى اليوم الا للموهوبين — يتجلى اذ ذاك أمام كل من تأملها . وكان جسم الانسان وسر وعيه أكثر ما فى العالم جلالا وغموضا ، فكانا رمزا لله وأهلا « للعبادة » فى نظر الناس فى تلك العهود .

فأى شىء أقرب الى المعقول اذ ذاك من عبادة البطل .. من الاعجاب السامى بالرجل العظيم ؟ .. ان اعجاب المرء بمن هو أسمى منه هو المؤثر الحيوى فى حياة الانسان ، وهو البذرة الأولى للمسيحية .. ولا شك فى أن شعوب « اسكندناوة » الشمالية ، تلك قد أوتيت معلما وزعيما سبق سواه .. أوتيت بطلا حقيقيا من دم ولحم ، كان هو الموحى لها بالهها الصنم « أودين » .. وتصف الأساطير هذا البطل بأنه مخترع الحروف

الأبجدية الاسكندنافية وبأنه مبتكر الشعر .. ذلك لأن هذا الانسان النبيــل المخترع والمبتكر كان حريا بأن يبــدو لأهل الشــام فى بداوتهم بطلا ونبيا والها .. وأن ماروى عن « أودين » البشرى من أنه تكلم بصوت بطل وبوحى من السماء فنبأ قومه بما للشــجاعة والشــهامة من أهمية لا حد لها .. ومن أن قومه آمنوا برسالته هذه ، واعتقدوا أنها من السماء وأنه ذو قداسة لأنه أبلغهم هذه الرسالة .. كل هذا يبدو لى كبذرة أولى للدين لدى أهل الشمال .. لأن ذلك الدين كان يمجد الشجاعة ويقدسها ويفرضها فرضــــا ..

٢ ـ البطل فى صورة نبى

وفى الفصل الخاص بموضوع البطل فى صورة نبى يقول :

ان العقيدة المحمدية بين العرب أوضـــح مثل للظاهرة الثانية من ظواهر تكريم الأبطال ، حيث لا ينظر الى البطل كاله ، وانما كملهم من الله .. كنبى .

فلنحاول أن نفهم ما كان « محمد » (ﷺ) يعنيه بالدنيا . أو بالأحرى ما كانت تعنيه الدنيا لديه .. انه بالتأكيد لم يكن دجالا ولا محتالا واسع الدهاء ولا مزيفا .. والفروض القائلة بأنه كان كذلك ليست سوى نتاج عصر الحاد ، فهى تكشف عن ألوان من الشلل الروحى تدعو للأسى ... أفيقوى مدع زائف على ايجاد دين ؟ .. ان الزائف لا يستطيع أن ينشىء شيئا ولو كان هذا الشىء بيتا من طوب .. وما كان ميرابو ولا نابليون ولا بيرنز ولا كرومويل ولا أى مخلوق ليستطيع أن يفعل أمرا ، ما لم يكن قبل كل شىء صادق الايمان به .. فان الاخلاص وصدق الايمان هما أعظم ما يميز جميع أولئك الذين يأتون عملا من أعمال البطولة ..

والعرب شــعب جدير بالذكر .. بــل ان بلادهم ذاتهــا أهل لأن تذكر .. تصور آفاقا شاسعة رملية جرداء خاليــة صامتة كالبحر .. وأنت فيها وحيد فى خلوة مع الكون .. تصليك فى النار شمس ذات شواظ ووهج لا يحتمل ، وتغطيك بالليل السماء الواسعة العميقة ذات النجوم .. انها بلاد تصلح لقوم من البشر خفيفى الأيدى كبيرى القلوب ..

ومن ثم يمتاز العربى بأنه يقظ نشيط خفيف الحركة ٠٠ وانه أكثر الناس استغراقا فى التفكير والتأمل واشدهم تحمسا وغيرة ٠٠

وهكذا كان العرب كرماء جسورين صرحاء صادقين عميقى الايمان ٠٠ وكانوا بخلالهم العظيمة يرتقبون اليوم الذى يظهرون فيه للعالم ويستأثرون باهتمامه وتقديره ٠٠

وبين هؤلاء القوم ولد محمد (ﷺ) فى سنة ٥٧٠ ، فشب فى أحضان البادية وحيدا مع الطبيعة ومع أفكاره ٠ وقد عرف من باكورة عمره بأنه يفكر وكان زملاؤه يلقبونه بـ « الأمين » ٠ وبلغ الاربعين من عمره قبل أن يتحدث عن أية رسالة من السماء ٠ وكان طيلة هذا العمر يمارس حياة وادعة هادئة ينفذ فيها ببصيرته خلال مظاهر الأشياء الى الأشياء ذاتها ٠٠

ثم ٠٠ وبعد أن قضى شهرا معتزلا فى غار بالقرب من مكة يصلى ويتأمل ، أنبأ زوجه خديجة بأنه — بفضل نعمة من السماء لا سبيل إلى وصفها — لم يعد يتخبط فى الظلمات بل وضح لبصيرته كل شىء ٠٠ فاذا كل هذه الأصنام والأوثان هباء وليس هناك سوى اله واحد فوق الجميع ٠٠ فالله كبير ٠٠ وهو الحق ٠٠ (الله أكبر) ٠٠ وهكذا جاء الاسلام يدعو الى طاعة « الله » ٠٠

وهذا هو المذهب الصادق الوحيد الذى عرف حتى الآن ٠٠ فالرجل يصيب فى تصرفاته ويغدو عزيز الجانب طالما ربط نفسه بالقانون العظيم العميق ، المسيطر على الدنيا ، على الرغم من كافة القوانين الموضوعة والمظاهر المؤقتة الزائلة ، وكل حساب وتدبير ٠٠٠ وهذه هى روح الاسلام ٠٠ وهى أيضا عين روح المسيحية ٠٠ فعلينا أن نتقبل كل ما يحدث لنا على أنه من الله المهيمن علينا ٠٠ والاسلام يرمى — بطريقته الخاصة — الى انكار الذات وقمع النفس ٠٠ وهذه هى أسمى حكمة كشفتها السماء لعالمنا الأرضى ٠٠ وانى لأجد فى محمد — وفى قرآنه — الصدق والاخلاص والتحرر الكامل من الزيغ والضلال قبل كل شىء ٠٠٠ وقد ظل دينه طيلة هذه القرون الاثنى عشر مرشدا لخمس الجنس البشرى ٠٠ وظل — قبل كل شىء — موضع ايمان قلبى عميق ٠٠

لقد كان العرب شعبا ضيق الأفق ، فبعث اليهم نبى بطل ، فلم ينقض قرن حتى كان العرب قد وصــلوا الى غرناطة من ناحية والى دلهى من ناحية أخرى ٠

٣ ــ البطل فى صورة شــاعر

يقول كارلايل :

ان البطولة التى تتمثل فى القداسة أو النبوة من نتاج العصــور الغابرة ، ولا سبيل الى تكرارها فى العصــور الحديثة ٠٠ ومن ثم فنحن نرى بطلنا الآن فى صورة أقل طموحا ، ولكنها أيضا أقل استدعاء للشك او للتساؤل ٠٠ تلك هى صورة الشاعر ٠٠ اذ ان البطل يستطيع أن يكون شاعرا أو ملكا أو كاهنا أو ما شئت له أن يكون تبعا لنوع الوسط الذى يولد فيــه ٠٠ ولا أكاد أتصور عظيما حقا يعجزه أن يكون أى نوع من العظماء ٠

والواقع أن الشاعر والنبى سـواء فى محاولة فض مغاليق أسرار الكون ، وان كان النبى ينفذ الى السر المقدس من ناحيتــه الخلقية ، فى حين أن الشاعر يستشفه خــلال بحثــه عن الجمال ٠٠ فالشعر أغنيته بطبيعته ، اذ ان أفكاره موسيقية ، لا فى اللفظ فحسب بل وفى صميمها وصوغها وموضــوعها ٠٠

مقارنة بين شكسبير ودانتى

ولنأخذ مثلا « شكسبير » و « دانتى » الشاعرين اللذين ارتقيا الى مراتب تقرب من القداسة ٠

لقد عاشــا بعيدين أحدهمــا عن الآخر ٠٠ ولم يكن لهما من نظير ، بل كان كل منهما فردا فذا ٠٠ ولقد وضع دانتى كتابه فى المنفى وسجله بدماء قلبه ٠٠ واتخذت روحه العظيمة المشردة فى الأرض لنفسها وطنا وسكنا فى ذلك العالم الآخــر المهيب الذى صوره ٠٠ وما أشبه المراحل

الثلاث – الجحيم والمطهر والجنة – بثلاثة أقسام في عالم قدسي عظيم فوق كل المقاييس الطبيعية !. وهذه الأقسام الثلاثة بعضها فوق بعض في ظلمة ورهبة مخيفتين ٠٠ هكذا كان عالم الأرواح الذي صوره دانتي ٠٠ وكان تصويره أصدق ما قيـل في الشعر ٠٠ ونحن نرى أن الصدق هنا معيار قيمة الشعر ، وأن القوة هي طابع عبقرية دانتي ٠٠ فان عظمته تتجلى في تعبيراته القوية ، وفي عمق عباراته ، وفي حيوية الصـور التي ترسـمها كلمـاته ٠

وهكذا نرى دانتي يتألق في سماء المجد – حيث يومض كل عظيم رفيع الشأن في كل العصور – براقا كالكوكب الناصع ٠٠

وكما بعث دانتي الايطالي الى عالمنا ليمثل في صورة موسيقية ديانة العصـور الوسطى ويستخلص منهـا ديانة أوروبا الحـديثة ، وحياتها الداخليـة الكامنة ٠٠ فكذلك يمكن القول بأن شكسبير يصور لنـا حياة أوروبا الخارجية في تطورها في زمنه بما كانت تحفل به من معاني الشهامة والأدب والكرم والفكاهة والطموح ٠٠ وما كان يلابسها من طرائق التفكير العلمي والتصرف والنظر الى الحياة ٠٠

وكما أننا لا نزال نرى في أشعار هوميروس بلاد الاغريق العريقة ، فاننا سنظل نرى في أشعار شكسبير ودانتي – ولو مرت آلاف السنين – ما كانت عليه أوروبا الحديثة من ايمان ومن حياة ٠٠ اذ صور لنا دانتي الايمان – أو الروح – بينما رسم لنا شكسبير الجسد بطريقة لا تقل عن طريقة دانتي نبلا ٠٠ فكأنما بعث شكسبير ليسجل لنا هذه الناحية من حياة أوروبا ٠٠ وفي الوقت الذي بلغت فيه الشهامة – التي كانت تطبع الحياة الأوروبية – ذروتها وأوشكت أن تنحـدر الى الانحلال البطيء الذي نراه الآن في كل مكان ٠٠ في ذاك الوقت بعث هذا القطب من أقطـاب الشعر « شكسبير » بعينين ثاقبتين تنفذان الى أعماق المظاهر ، وبصوت غرد يتردد عبر الأجيال ليرقب تلك الحياة ويسجل لها وصفا يبقى على الزمن ! ٠

الاضطهاد الذى اظهر عبقريا !

وهكذا كان الرجلان القديران : دانتى عميق ، قوى ، ملتهب كتلك النار المكامنة فى جوف الأرض .. وشكسبير هادىء واسع الأفق ، بعيد النظر كالشمس المطلة على عالمنا المنيرة له .. وقد أنجبت ايطاليا أحدهما وكان للانجليز شرف انجاب الآخر ..

وكان ظهور شكسبير فى انجلترا عجيبا حتى لكأنه جاء وليد المصادفة .. وكثيرا ما يخيل الى أنه لو لم يضطهد سيد مقاطعة « وركشاير » ذلك « الشكسبير » لأنه كان يسرق الوعول من أراضيه ، لما قدر لنا أن نسمع عنه كشاعر عظيم ، هادىء ، كامل ، قادر على استكمال كل نقص فى نفسه .. وكأنما لم تكن غابات ستراتفورد وسماؤها ، والحياة الريفية الخشنة فى جنباتها بكافية لتكوينه .. ثم ، ألم يكن ذلك العصر العجيب الزاهر ، الخالد الأثر فى تكوين انجلترا ، والذى ندعوه بعصر « اليزابيث » لونا آخر من ألوان المصادفة فى حياة شكسبير ؟

ألا ما أشبه الحياة بشجرة تزدهر وتذبل وفقا لقوانينها وقواعدها الخاصة التى لا نكاد نهتدى الى حقيقتها .. انه لعجب لم يوله أحد حقه من التأمل والدراسة بعد .. فما الورقة الذاوية الجافة الساقطة على الأرض سوى مثل تتجمع فيه عوامل هى فى الواقع أجزاء من النظام الشمسى من مجموعة الكواكب والأجرام .. وما من فكرة تخطر للانسان ولا كلمة [illegible] من جميع البشر وله [illegible] بشكل ظاهر أو بشكل غير ظاهر — على سائر الناس عاجلا أو آجلا .. وهكذا الأمر كله كالشجرة تستمد حياتها من دورة العصارات فى كل كيانها ومن تأثيراتها على هذا الكيان ، ويتجلى الاتصال والتعاون المتبادلان فيها بين أصغر ورقة وأدق وأدنى شعيرة فى الجذر .. وبين أعظم الأجزاء وأضألها على العموم ..

سر عظمة شـكسبير

وتظهر عظمة شكسبير أكثر بروزا وجلاء فى تصويره للانسان ٠٠ فليس لمخيلته الهادئة المتكبرة مثيـل ٠٠ اذ ان كل كلمة فى رواياته انما تنبعث من تغلغل فكر وصفاء قريحة وجلاء بصيرة ٠٠ وهو فى تصويره يلم بكافة أنواع الانسان : من « عطيل » الى « فالستاف » ، ومن «جولييت» الى « كوريولينس » ٠٠ وهو يصور كلا من هؤلاء تصويرا كاملا دقيقا فى عدل وانصاف واعتزاز بكل منهم ٠٠

ومن المقاييس الصحيحة للرجل ، مدى ما يؤتى من بصيرة ٠٠ وقد كان شكسبير أعظم أهل الفكر ، اذ ان مسرحياته تعتبر فى عمق الطبيعة ذاتها ٠٠ أى ان فنه لم يكن اصطناعا ، ولم يكن أسمى ما فيه وليد الصنعة ومن ثم فستظل الأجيال القادمة تجد فى شكسبير معانى جديدة وأضواء جديدة تكشف عن نفوسهم كمـا كشفت عن نفوس أبناء جيل شكسبير والأجيال اللاحقة له .

وهكذا كان شكسبير — هو الآخر — نبيا ذا بصيرة ملهمة ، ولكنه فسر وحيها من ناحية أخرى ٠٠ ذلك أن الذين تأويهم الجزيرة الانجليزية لن يلبثوا عما قريب أن يغـدوا جزءا صغيراً من الانجليز ، اذ سينتشر السكسون شرقا وغـربا ، وفى أصقاع شاسعة من الكرة الأرضية ٠٠ فما الذى يستطيع أن يربط بين هؤلاء جميعـا فى أمة واحـدة متماسكة حقا ، فلا يتفككون ، ولا يتقاتلون ، بل يعيشون فى سلام ؟

اننى أجيب على هذا ، بأن الذى سيربط بينهم لن يكون سوى ملك انجليزى لا يزعزع الزمن أو الأحداث عرشه ٠٠ الملك شكسبير الذى يشرق علينا كأنبل والطف وأقوى الروابط ، وانا لنذهب الى أنه سيظل يرسل ضياءه فوق الشعوب الانجليزية لآلاف السنين .

حقا ان من أعظم ما تحظى به أمة ، أن يكون لها مثل هذا الصوت الجهورى ملهما !

٤ ـ البطل فى صورة رجل الدين

أما عن البطل فى صورة رجل الدين فان كارلايل يقول : ..

ورجل الدين ــ كذلك ــ نوع من الانبياء ، اذ لا بد من أن يؤتى هو الآخر قبسا من الالهام .. فهو يرأس الناس فى عباداتهم ، ويربطهم بالقوة القدسية التى لا تدركها عين ..

لقد كان « لوثر » و « نوكس » من رجال الدين المعترف بهم ، ولكنا نؤثر هنا أن نعتبرهما كما صورهما التاريخ : مصلحين ! .. فان المصلح المكافح ظاهرة لا مناص من حدوثها وتمس الحاجة اليها بين آن وآخر .. اذ ان الحواجز والعقبات لا يمكن أن تتلاشى قط عن طريق الانسـان ، بل ان دواعى التقدم نفسها قد تنقلب الى سـدود وقيود ، مما يستدعى عزمها وزحزحتها لنمضى قدما ونخلفها وراءنا .. وهى مهمة كثيرا ما تكون بالغة الصعوبـة ..

ولنا أن نعتبر لوثر من محطمى الأصنام ليردوا البشر الى الحقيقة ، وهذه وظيفة العظماء ومعلمى البشرية .. فلقد قال لوثر للبابا : « ليس هذا الذى تدعوه غفرانا للخطايا سوى حبر على ورق لن يلبث أن يبلى .. انه وأمثاله لا يعدو ذلك .. فليس غير الله غافر الذنوب وليست الكنيسة ممثلة لله ولا الجنة والنار صورا رمزية .. وانى اذ أؤمن بهذا أشعر بأننى ــ أنا الراهب الألمانى الفقير ــ أقوى منكم جميعا » .

ولعل أهم مراحل الاصلاح هى التطهر وهو ما يذهب اليه المتطهرون (البيوريتان) وقد أنتج التطهر ثمـارا جنية فى الدنيا .. بل انه وطد أقدامه كدين قومى لدى الاسكتلنديين ، واتباع الكنيسة «المشيخية» التى كان « نوكس » قسها الأكبر ومؤسسها ، والتى غدت مذهب اسكتلندا ، ومذهب أوليفر كرومويل الذى أراد اصـلاح نظـام الحكم والحيـاة فى انجلترا .. وفى وسعنا أن نصف ما فعله « نوكس » لأمته بأنه بعث حقيقى من الموت ! اذ شرع القوم يرتدون بعده الى الحياة ، فازدهر الأدب والفكر والصناعة فى اسكتلندا .

وظهر أقطاب خلدهم التاريخ مثل جيمس وات ، ودافيد هيوم ، وولتر سكوت ، وروبرت بيرنز ٠٠ وانى لأرى « الاصلاح » وأرى « نوكس » فى قرارة نفس كل واحد من هؤلاء العظماء الخالدين ، وفى أعمالهم ٠٠ وأعتقد أنهـم ما كانـوا ليبلغوا ما بلغوا لولا روح الاصلاح التى نفثها هو فى أبناء عصره ٠٠

ان « نوكس » مثال يبين لنا كيف يستطيع المرء بصدق الاخلاص أن يغدو بطلا ٠٠ كان رجلا طيبا ، أمينا ، موهوبا ، ذكيا ٠٠ لم يكن خارقا للعادة ، بل انه كان ضيق العقل متواضعا اذا قيس بلوثر ، ولكنه من حيث الايمان والتشبث الغريزى بالحق والاخلاص الصادق الحقيقى ، كان فذا لا يفوقه أحد !٠٠٠وما أروع ما قاله عنه ايرل مورتون اذ وقف بقبره : « هنا يرقد الشخص الذى لم يرهب يوما انسانا » ٠

٥ ــ البطل فى صورة أديب

ثم هناك البطولة فى مجـــال الأدب ، وهى ظاهرة فذة جديدة ٠٠ فالأديب الذى يقضى عمره فى جحر قذر ، وثوب رث ، ثم يقدر له اذا مات أن يسيطر من قبره على أمم وأجيال بأسرها ٠٠ هذا الأديب يجب أن يعتبر أهم شخص فى حياتنا الحديثة ٠٠ فهو بهذا الوضع روح الجميع ، اذ انه فى حد ذاته يؤدى عين المهمة التى كانت الأجيال الغابرة تسمى صاحبها نبيا أو كاهنا أو صاحب قداسة ٠٠

ولقد كان الأنبياء الثلاثة الكبار فى القرن الثامن عشر ــ الذين وصموا بالزندقة والالحاد ــ هم : جونسون وروسو وبيرنز ٠٠ وما كانت بطولتهم الا فى أنهم حملوا النور الى البشر تحت أعباء من العوائق والعقبـات المتراكمة كالجبال ٠

أما « جونسون » فقد اعتدت أن أعتبره دائما من عظماء الانجليز ٠٠ كان نبيا بفضل ما أوتى من اخلاص ، وبفضل ما كان له من مقدرة على أن يؤدى رسالتـه بأسلوب مستمد من أعماق الطبيعة ، وان صـــاغه فى الأسلوب الذى كان يسود عصره ، والذى كان يعتمد على التجديف فى كل المقومات الخلقية والروحية !

وكانت أسمى دعوة نادى بها هى مراعاة الدقة والحذر فى معالجة المسائل العقلية والأدبية ٠٠ وأردف بهذه دعوة رفيعة أخرى هى : « طهر عقلك من الزيغ والزندقة » ٠٠ وهاتان الدعوتان تؤلفان أعظم رسالة كانت ممكنة فى ذلك الزمن ٠

أنانيــة روســو !

أما « روسو » ، فلست بحاجة الى الاسهاب فى الحديث عنه وعن بطولته ٠٠ انه لم يكن قويا ، بل كان معلولا سريع الانفعال والتأثر ، كثير التشنج ٠٠ أجل لم يكن قويا ، وانما كان شديدا ، وكان مخلصا فى حماسه وايمانه بالآراء التى يراها حتى لقد كانت تستولى على لبه ٠

ولكن ، كانت غلطة روســو ومبعث شقوته ، أنه كان أنانيـــا ٠٠ فالأنانية منبع كل الأخطاء والتعاســات على اختلافها ٠٠ ولم يقدر له أن يصل الى الغلبة الكاملة على الشهوة المجردة ، فظل الجوع الجنسى حافزه الرئيسى ٠٠٠ وكان شــديد الغرور متعطشــا أبدا الى أهازيج الاطراء ٠٠ وكانت نفسه بأسرها مسممة ملوثة ، لا يعمرها سوى الشك ، والاعتزال، والمسلك الذى يمتاز بحدة الانفعال وتقلب الطباع ٠٠

ومع ذلك ، فقد استطاع روســو — وهذه حاله — أن يلمس الحقيقة ويكافح من أجــل الوصــول اليها بما أبداه من اهتمام واحتفاء بالطبيعة وبالحياة الفطرية الضاربة بين أحضان الطبيعة ٠٠ وكان من الغريب حقا أن نجد فى قرارة فؤاد روسو المسكين جذوة من النــار القدسية الحقيقية برغم مثاليته ونقائصه وانحرافاته ٠٠ فلقد انبعث فى نفسه — برغم الفلسفة الساخرة والزندقة والمجون التى شاعت فى أيامه — شعور بمعرفة لا يكاد العقل يصدقها بأن هذه الحياة التى نحياها حقيقة صحيحة واقعة ، وليست وهما أو مجرد نظرية ٠٠

ووجدت الثورة الفرنسية فى روسو الرسول الذى يبلغها انجيلها ٠ وساعدت حملاته المحمومة على ما فى الحياة المتحضرة من تعاسات ونقائص على بث وقدة الحمى والثــورة فى فرنسا عامة ٠٠ ومن العسير أن نحدس

ما قد يفعله حكام العالم برجل كهذا ، ولكن فى وسعنا أن نعرف ما قد يفعله رجـل مثـله بهم ٠٠ انه كفيل بأن يسوق الكثيرين منهم الى ٠٠ المقصلـة ! ٠

أما بيرنز ، فان مأساة حياته معروفة للجميع ٠٠ فان هذا الرجل الذى تقمصته أعظم نفس فى الأراضى البريطانيـة طرا ، كان يبـدو منحوسا ٠٠ فلقد ولد فقيرا، لم يجد من يعلمه فكأنما خلق للكدح والعناء ٠٠ ولما قدر له أن يمارس الكتابة راح يؤلف فى أساوب ريفى ولهجة خاصة لا يألفها سوى أهل الاقليم الريفى الصغير الذى كان يعيش فيه ٠

اننا لنجد فى بيرنز نبوغا ساميا ، ومع أنه نبوغ « غفل » غير مصقول، الا أنه امتاز بالبساطة الصادقة التى تنطوى على القوة ٠٠ كان فيه معنى كامن ، عميق ، من ضياء الشمس والبهجـة ٠٠ على أن الخلة الأولى فى شعره وفى حياته هى الصدق فى الاخلاص ، مما جعله يعيش فى صراع حامى الوطيس لاستجلاء حقائق الأشياء ٠

٦ – البطل فى صورة الحاكم

من حق ولى الأمر على الناس ، أن يـكون أهم العظماء ، اذ اننا نكل اراداتنا الى ارادته ، وندين له بالولاء ايمانا منا بأن فى هذا خير الجميع ٠٠ وهو يسمى بال « عاهل » أو « المنظـم » أو « الملك » أو « الحاكم » ٠٠

ومن الثوار من نصب نفسه ملكا فى عهود الثورات بعد أن ماتت الملكية والغيت كما فعل كرومويل ونابليون ٠

ولقد كانت حرب « البيوريتان » – فى تاريخ انجلترا – جزءا من الحرب الشاملة التى تصنع التاريخ الحقيقى الصحيح للدنيا ٠٠ حرب العقيدة والايمان ضد الجحود والكفر ٠٠ أو بالأحرى صراع أولئك المجاهدين من أجل حقائق الأمور ٠ ضد أولئك المتشبثين بمظاهر الأمور وأشكالها ٠٠

ويقف كروموبل عاليا ، رفيع المكانة بين « البيوريتان » ، يمد يديه جبارا نحو الحقيقة التى تجلت له عارية وجها لوجه وقلبا لقلب ٠٠ ومع ذلك

فانه الوحيد بين المكافحين الذى قيل عنه انه لم يكن له عذر ولا حجة ٠٠ وانه كان أنانيا طامعا فى طموحه ، غير أمين ، بل كان منافقا ، مرائيا ، جشعا ٠٠ فحول الصراع النبيل من أجل الحرية النيابية الى مهزلة تدعو للرثاء ، مثلت من أجل مصلحته الخالصة ٠

هذه هى الصورة التى رسموها له ٠٠ ولقد كانت تبدو لى دائما أبعد من أن تصدق ، فان كل ما نعترفه عنه لا ينم لى عن صدق وصراحة واخلاص ، ولا نملك الا أن نلاحظ فى كل أعماله نظرته الحاسمة العملية واتجاهه نحو كل ما هو عملى ، وبصيرته الصادقة التى تتغلغل به الى أعماق الواقع ٠٠

ومثل هذه الخلال لايمكن أن يؤتاها رجل دعى ، زائف ٠٠ فان من كان زائفا لا يرى من الأمور سوى المظاهر الزائفة ، وسوى الرياء والنفاق ، فى حين أن الرجل الصادق لا يميز سوى الحقيقة العملية ٠٠

موهبة نابليون الرئيسية

ونابليون لا يقل عظمة فى نظرى عن كرومويل ٠٠ صحيح أن فتوحاته الهائلة شملت أوربا بأسرها — فى حين أن كرومويل حصر جهوده فى انجلترا على صغر مساحتها — ولكن فتوحات نابليون لا تميزه على كرومويل، اذ انها لا تعدو أن تكون نصبا خشبية يرتفع عليها ليزداد ظهورا ، ولكنها لا تزيد من عظمته ولا تغير منها ٠٠

ولقد شاع فى أيام نابليون مثل معناه : « زائف كنشرة رسمية » ، لما عرف عن النشرات التى كان يصدرها نابليون أثناء غزواته من احتشادها بالزيف ٠٠٠ ومع ذلك فقد أوتى نابليون شيئا من صدق الاخلاص ٠٠ أوتى شعورا غريزيا عجيبا للوقوف على الحقيقة ٠ وقد قام شعوره هذا على أسس من الواقع طيلة السنين التى كان يحفل فيها بالأسس ٠٠ وكانت له غريزة فطرية تفوق ثقافته ٠

ومما يروى عنه أن رفاقه شغلوا ذات مساء بالجدل حول وجود الله وعدم وجوده ، وأخذوا يؤكدون بكل الحجج المنطقية أن لا وجود لله ٠٠

فما كان من نابليون الا أن تطلــع الى النجوم ثم قال ٠٠ « ياله من ذكاء يا سادة ، ولكن .. من الذى خلق كل هذه ؟! » ٠٠٠ وهكذا تسرب من ذهنه منطقهم المنطوى على التجديف والزيغ ، اذ طالعته الحقيقة العظمى مائلة أمام عينيه ٠٠ وكذلك كان نابليون فى الأمور العملية : يرى ككل من كتب له المجد ، لب الناحية العملية فى كل أمر فيتجه اليه مباشرة !!٠

ومن ثم ، فقد كان فى أعماقه ايمان ظل حقيقيا صادقا طيلة وجوده ٠٠ وكان من صدق بصيرته أن رأى أن الحكم لصالح الشعب حقيقة لا قبل للعالم كله بمقاومتها أو كبتها ، فاتجــه اليها بوعيه وحماسه ٠٠ ثم ، ألم يكن موفقــا فى اجلاء غموضها ، حين قال : « ليس أجدر بالسلطات من الأيدى التى تحسن مسك زمامها » ٠٠ وهذه فى الواقع هى الحقيقة كلها فهى تتضمن كل ما للثورة الفرنسية أو أية ثورة أخرى من معان ٠٠ انها رسالة صادقة عظيمة من آخر العظماء الذين أوردنا ذكرهم هنا ٠٠

مدام بوفاري
جوستاف فلوبير
١٨٥٧م

فلوبير ٠٠ رائد الواقعية فى الأدب العالمى

كان جوستاف فلوبير رجلا غير عادى ٠ ويرى الفرنسيون أنه كان عبقريا ، غير أن كلمة العبقرية تستخدم اليوم بصورة غير دقيقة : فقاموس أكسفورد يصفها بأنهـا « قدرة غريزية خارقة تمكن صاحبها من الابداع التخيلى أو التفكير الأصيل أو الاختراع أو الاكتشاف ٠٠٠٠ » ويقارنها القاموس « بالموهبة » ، ويرمى من وراء ذلك الى أنها تحقق أغراضها بالفهم الغريزى والنشاط التلقائى أكثر مما تحققه عن طريق العمليات التى يمكن تحليلها بوضوح . وبهذا المقياس لايحتمل أن ينجب القرن الواحد أكثر من ثلاثة أو أربعة عباقرة ، وستفقد الكلمة قيمتها حين نطلقها على مؤلف ألحان مستحبة ، أو كاتب كوميديات حية ، أو رسام صور خلابة ٠٠ انها أعمال ممتازة فى مجالها ، وقد يتمتع مؤلفوها بموهبة وما أجمل أن يتمتع المرء بهذه الموهبة التى تعتبر شـيئا نادرا ، غير أن العبقرى يعيش فى مجال آخر ، ولو اضطررت الى اختيار العبقرى الذى أنجبه القرن العشرون،فربما كان « ألبرت أينشتين » هو الاسم الوحيد الذى يرد الى الذهن ، وقد كان القرن التاسع عشر أكثر خصوبة ٠ أما ادراج فلوبير بين هؤلاء الذين يتمتعون بهذه الموهبة الخاصة أو عدم ادراجه ، فشىء يقرره لنفسه القارىء الذى يطالع هذه المقدمة واضعا تعريف القاموس نصب عينيه ٠

على أن هناك شيئا واحدا ليس فيه مجال للشك : فقد اصطنع فلوبير الرواية الواقعية الحديثة ، وتأثر به بطريق مباشر أو غير مباشر كل كتاب الرواية منذ ذلك الحين ٠ وعنـــدما كتب تـوماس مان « بودنبروكز » ، وعندما كتب آرنولد بنيت « حكاية الزوجات العجائز » ، وعندما كتب تيـودور دوايزر « الأخت كارى » ، فانما كانوا يهتدون بالشرارة التى

أشعلها فلوبير ٠ ولا نعرف كاتبا غيره كرس نفسه لفن الأدب بمثل هذا النشاط العنيف الذى لا يخبو ٠ ولم يكن الأمر معه كما هو بالنسبة لمعظم المؤلفين الآخرين الذين يرون أن الادب وان كان نشاطا على جانب كبير من الأهمية ، الا أنه يسمح لهم بمزاولة أوجه نشاط أخرى تريح الذهن أو تنعش الجسد أو تثرى التجــربة ٠ لم يكن فلوبير يعتقد أن العيش هو الغرض من الحيـــاة ، وانمـــا الغرض من الحيـــاة فى نظره هو الكتابة ، ولم يوجد راهب فى صومعته ضحى مختارا بلذات الدنيا حبا فى الله أكثر مما ضحى فلوبير بثراء الحياة وتنوعها فى سبيل طموحه لخلق عمل فنى ٠

لقد اعتنق فلوبير حكمة بوفون التى تقول ، انه لكى يجيد الانسان الكتابة فعليه أن يجيد الاحساس والتفكير والحديث ٠ وكان يتبع الرأى القائل بأنه لا توجد طريقتان لقول الشىء ، انما هناك طريقة واحدة ، وأن اللفظ يجب أن يناسب الفكرة مثلما يناسب القفاز اليد ٠ وكان يرغب فى كتابة نثر منطقى رشيق متنوع ٠ وكان يتطلع الى أن يجعله ايقاعيا رنانا وموسيقيا كالشعر ، وأن يحتفظ له مع ذلك بمزايا النثر ! ٠ وكان على استعداد لاستخدام كلمات الحياة اليومية والألفاظ السوقية اذا اقتضى الأمر ، مادام يستطيع استخدامها بحيث يخلق شيئا جميلا ٠

ويتوقف نوع الكتب التى كتبها المؤلف على طبيعته كرجل ٠ ولهذا كان من الأفضل اذا كان كاتبا مجيدا أن نعرف بقدر ما نستطيع تاريخ حياته الشخصية ٠ وهذا له أهميته بوجه خاص بالنسبة لفلوبير ٠

ولد فلوبير بمدينة روين فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ وهو ابن أشيل كليوفاس فلوبير الذى كان كبير جراحى مستشفى المدينة ، وكان هو نفسه نجل طبيب بيطرى ، أما والدته آن جستين كارولين فليريــو ، فكانت تنتسب من ناحية والدتها الى أقدم الأسر فى نورمانديا السفلى ٠ وكانت شديدة الاعتزاز بنسبها ٠ وقد أورثت ابنها الاستعداد لاضطراب الأعصاب والميل الى احتقار الناس العاديين ٠ ومهما يكن من الأمر ، فانها كانت شديدة التوفر على العناية بنجلهــا ، وكان هذا من أســباب اعراضه عن الزواج فقد قضى حياته عزبا ٠

ولم يكن فلوبير فى طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء ، وقد وصفته سيدة عرفته فى مطلع شبابه فقالت : « كان جوستاف فلوبير فى ذلك الوقت يبدو كأنه يونانى فى مقتبل السن ، وكان طويل القامة نحيف الجسم رشيق الحركة كالرياضى المصارع ، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية وغير حافل بتقاليد المجتمع ... وحينما قلت له ان النفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتى لها قيمتها ، أصغى لحديثى فى غير اكتراث وقد علا وجهه الابتسام ، وكان يعجب بما هو جميل فى الطبيعة والفن ، وقال انه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر فى مصلحته الشخصية . ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة . وكان الذى يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئا يبدو له أنه جدير بالاعجاب . والمتعة التى يجدها الانســـان فى الاجتماع به والقرب منه باعثها تحمسه لكل ما هو نبيل . وتفوقه العقلى يبدو فى فرديته القوية،والذى ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية النافعة. فاذا سمع قول الناس ان الدين والســياسة أو الشئون العملية مشوقة مثل الأدب والفن ، فانه يفتح عينيــه عن التعجب والرثــاء لحالة القائلين بذلك » .

وهكذا كانت حالة فلوبير حينما قدم باريس سنة ١٨٤٠ لدراسة القانون ، وقد مل الحياة بها وكره ما يسمى « حياة الطلبة » ، ولم يكن قد وضع خطة حياته الأدبية بعد ، وكان يقضى أكثر أيامه وحيدا فى شقته الصغيرة . وما يكاد يفتح كتــابا من كتب القانــون حتى يطوى صفحاته ويستلقى ساعات فى فراشه حالما ، لقد صار ممن يؤثرون الاسترسال مع الأفكار والغوص فى التأملات .

وكان يتردد من الحين الى الحين على موســم براديبه ، وهناك لقى فى أحد الأيام فيكتور هيجو وعرف السيدة لويز كوليه وكانت احدى النساء المتأدبات المعروفات فى ذلك العهد ، وفى سبتمبر وأكتوبر سنة ١٨٤٠ قام برحــلة فى جبال البرانس وجزيرة كورســيكا .. وكان لهذا التغيير فى أسلوب حياته أثره الحسن فى حالته النفسية ، ووصفه لجزيرة

كورسيكا فى الرسائل التى بعث بها الى أصدقائه ينم على قدرته الفائقة على الوصف التى تجلت بعد ذلك فى مؤلفاته .

وفى سنة ١٨٤٥ مات والده وتوفيت شقيقته كارولين فى السنة التالية وأصبحت والدته تعيش فى عزلة ، فصمم على مغادرة باريس التى كان لا يستريح الى الاقامة بها ، وترك دراسة القانون التى كان يكرهها وآثر أن يعيش فى كرواسيه القريبة من روين بمنزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصعدات فيه ومنحدرات ، وفى الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة .

وقضى فى ذلك المكان أربعة وثلاثين عاما حتى أدركه الموت ، وعاش عيشة دراسة وعكوف على العمل لم يتخللها سوى رحلة الى بريتانى مع صديقه ماكسيم دى كامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه كذلك الى الشرق سنة ١٨٤٩ وزيارات لباريس فى فترات غير منتظمة .

ولم يقبل فلوبير على الأدب اقبالا جديا الا فى سنة ١٨٤٦ ، وبدأ يكثر من القراءة والاطلاع ويكتب مذكراته ويسجل تعليقاته على ما يقرأ فى رسائله الى أصدقائه ، ويضع خططا لحياته المقبلة وشرع فى كتابة أصول روايته « اغراء القديس أنطونيوس » .

وفى سنة ١٨٤٩ ، قام بالرحلة الى الشرق مع صديقه ماكسيم دى كامب ، وزار مالطة ومصر وسوريا وفلسطين والقسطنطينية وأثينا وجزءا من بلاد اليونان ، وفتن بما شاهد من مناظر ، وعاش باقى أيام حياته يحلم بالعودة الى تلك البلاد الحافلة بالأطلال الدوارس والآثار التاريخية .

وبعد سنة ١٨٥٠ أصبحت حياة فلوبير مقصورة على حوادث حياته الأدبية ، وصار تاريخه تاريخ كتبه التى شغل بتأليفها ، وكان يقضى معظم العام فى كرواسيه مقبلا على التأليف ، ولا يسمح لنفسه بالراحة الا مدة أيام قلائل . وكان لا يذهب الى روين الا اذا كانت هناك بعض أعمال تقتضى ذلك . وحينما كان يزور باريس كان يجتمع بسانت بيف وتيوفيل جوتييه وغيرهما من الكتاب والأدباء . وفى أواخر حياته كان يلقى ألفونس دوديه

واميل زولا والأخوين ادمون جونكور وجيل جونكور ، وتدور بينهم أحاديث عن الأدب والفن ، وفى بعض هذه الزيارات كان يجتمع بريـنــان وتين وجورج صـــاند ٠

وشغل فى المدة من سنة ١٨٥٠ الى ١٨٥٦ بكتابة روايته المشهورة « مدام بوفارى » ، وقد ظهرت فى مجلة « ريفى دى بارى » من أول أكتوبر سنة ١٨٥٦ الى ١٥ ديسمبر من السنة نفسها ٠ وفى يناير وفبراير سنة ١٨٥٧ شغل بالقضية التى اتهمته فيها الدولة بالخروج على الآداب فى رواية مدام بوفارى ٠ وقد برأته المحكمـــة ، ولكن بعد أن أبدى القاضى ملاحظات شديدة حول قيمة الكتاب من الناحية الأخلاقية ٠

وفيما بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦١ شغل بتأليف رواية « سلامبو » واتمام رواية « اغراء القديس أنطونيوس » ، وظهرت «سلامبو» سنة ١٨٦١ بعد أن بذل فى كتابتها جهودا أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية مهمة ٠

وفيما بين سنة ١٨٦٢ الى سنة ١٨٦٩ عاد الى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله ، وكانت نتيجة هذه الدراســة رواية « التربية العاطفية » التى ظهرت فى سنة ١٨٦٩ ٠

وبعد سنة ١٨٧٠ تكاثرت عليه الهموم والأحزان ، وكان بطبيعته ميالا الى الحزن والتشاؤم ، وقد قوى هذا الميـل فى نفسه تقدم سنه والأحداث السياسية وما لقيته روايتاه « سلامبو » و « التربية العاطفية » من قلة الرواج وسوء التقدير ، يضاف الى ذلك تعرضه لمرض عصبى أصابه كانت نوبات هجماته تشكل خطـرا مستمرا على حياته ٠ وكان قد فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم لى بوتيفان ، كما فقد صداقه ماكسيم دى كامب ، وفقد والدته سنة ١٨٧٢ ، وتقدم فى الشيخوخة وحفت به العزلة الموحشة ، ولم تسعفه فى تلك الفترة ســـوى رعاية قريبته مدام كومنفيل وصداقة جورج صاند ، التى ساندته وكتبت اليه رسائل مشجعة تنطوى على كثير من التقدير والاعجاب والتشجيع ، كما راقه تفتح ملكات تلميذه جى دى موباسان ٠ وقد علمه فلوبير العناية الشديدة بالأسلوب

والتحرج من المبادرة الى سرعة الاخراج ، ووجد فيه بحق خير متمم لرسالته ومقدر فى الكتابة الفنية لطريقته وخطته ٠

وفى سنة ١٨٧٧ أخرج مؤلفا به ثلاث قصص لم يلق النجاح المنتظر ، وأخذ يستعد بعد ذلك لكتابة رواية « بوفار وبيكيشيه » وكان يؤثرها على مؤلفاته ، وقد بذل فى كتابتها جهدا جبارا ، وبرغم ذلك مات قبل أن يتمها ، وكان ينوى أن يخرجها فى مجلدين ، ولكن المواد التى تركها لم تكن تكفى الا مجلدا واحدا ، وقد مات بفصل سكتة قلبية فى صباح اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وهو فى الثامنة بعد الخمسين من عمره ٠

الرواية

تعد رواية مدام بوفارى فى طليعة الروايات التى استوفت شرائط الواقعية ٠ وقد ظهرت فى وقت كان مناسبا لظهورها ، فقد كانت موجة الأدب الرومانسى قد أخذت فى الانحسار ، ومل قراء الأدب المبالغات الرومانسية ٠ وفى عالم الأدب كما فى عالم الفكر بوجه عام ، كلما سادت نزعة من النزعات تستنفد جهدها وتمهد السبيل لظهور نزعة مناقضة لها ٠ وبعد التحليق فى الخيال نميل الى أن نرسو على شاطىء الواقع ، ولما كان الواقع نفسه لا يخلو من رتابة مملة ، لذلك سرعان ما تمله النفس وترتد الى الخيال حتى تضيق ذرعا بنوع آخر من الرتابة ٠

وفلوبير يعيش مع أشخاص رواياته ، فيرى ما يرون ويشعر بما يشعرون ، وهذه هى الواقعية الحقة ٠ ورواية « مدام بوفارى » حافلة بالشخصيات الحية وكلهم ناس عاديون ، ولكن لكل واحد منهم مع ذلك خصائصه ومميزاته ، فهم ليسوا طرزا معروفة ولا مختصرات موجزة للانسانية ، وانما هم شخصيات نابضة بالحياة بادية السمات والملامح ٠

والحياة الرتيبة المملة الخالية مما يشوق ويعجب تؤثر تأثيرا سيئا فى أصحاب الخيال الواسع والطموح البعيد ، وقد يشتد هذا التأثير الى حد وقوع المأساة ، وهذا هو المحور الذى دارت حوله رواية «مدام بوفارى»٠

وفى تصوير فلوبير لمدام بوفارى قدم لنا صورة من أبرع الصور النسائية فى الآداب العالمية ، فقد استقصى حوادث حياتها ، وأرانا تطور مشاعرها وتتابع الحالات النفسية التى أستولت عليها واستبدت بها ٠٠ ولقد كان والدهـــا روالت رجلا عطوفا ولكنه مجرد من العاطفة الدينية والحاسة الأخلاقية ، حسيا الى حد ما ، قليل الجدية وبه شىء من الزهو والخيلاء ٠ وكانت لا تكاد تعرف والدتها ٠ وقد نشأت نشأة حسبما اتفق فى ضيعة والدها ، وظلت بها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها وتعلمت القراءة والكتابة دون أن تقوم بعمـــل أى شىء فى الضيعة ٠ وقرأت رواية بـــول وفرجينى فى طفولتها،وهى رواية لها تأثيرها فى ايقاظ الأحلام الرومانسية وبخاصة فى نفس حساسة نزاعة الى الاسترسال مع تلك الأحلام مثل الطفلة « امما » التى صارت فيما بعد مدام بوفارى ٠ ومن سمات النزعة الرومانسية تطلع الانسان الى ما وراء آفاق حياته الراهنة ، ومن شأن هذا التطلع أن يجعل صاحبه غير قادر على تبين ما فى حاضره من مزايا ونواح مقبولة ، والرغبة فى التغيير الدائم من أعراض النزعة الرومانسية ٠ وقد ظهرت هذه الأعراض على امما منذ بلوغها الثانية عشرة من عمرها ، وألحقها والدهـــا فى الثالثة عشرة بدير الراهبـــات ، وقرأت روايات السير ولتر سكوت التاريخية ، فامتلأ خيالها بصور العصور الوسطى والفرسان والقلاع والجسور التى تفتح وتغلق ، وقرأت أشعار لامارتين العاطفية ، وأخرجت من الدير وعادت الى ضيعة أبيها ٠ ولم تكن والدتها هناك لتحمل عنها أعباء الضيعة ، وكان لهذا الانتقال من الحياة الدينية الحالمة التأملية الى حياة الضيعة الرتيبة الخشنة اليومية وقعه السيىء فى نفسها ، ولذلك كانت تنتظر من ينقذها من الضيعة والاشراف على شئونها ٠ ويلوح فى أفق حياتها وهى تعانى التبرم بحياتها شارل بوفارى ، وكانت مستعدة للترحيب بأى رجل يتقدم لها ويطلب يدها ، وكان يبدو لها أن كل رجل قادر على اشباع أحلامها الرومانسية واستنقاذها من الرتابة المملة التى تعيش فيها وتعانى أوصابها ٠

وقد استطاع فلوبير فى وصفه لشخصية شارل بوفارى أن يتغلب على صعوبات جمة ، فشارل بوفارى أقرب الى أن يكون طرازا من الناس

منه الى أن يكون له شخصية ، أو هو شخصية بغير شخصية ان صح هذا التعبير ، وهو مخلوق سلبى تشكله البيئة كما شاءت ، وهو خلو من الذكاء والارادة والخيال ، لا يفكر ولا يحـلم ولا يكاد يرى شـيئا بعينيه ، فهو صدى لأفكار غيره من الناس ، ورغباته تملى عليه ، وهو المنفذ ، ومشاعره نفسها تاخذ الصورة المطلوبة لها ، وهو يحب زوجتـــه ولكن كما تريده هى أن يحبها ، ويحب طفولته ولكن بالأسلوب الذى يفرض عليه ، وقد تزوج فى أول الأمر على ارادة والدته وعملا باشارتها ، وهى التى اختارت له الزوجة الملائمة فى تقديرها ، وماتت زوجته الأولى ، أما فى المرة الثانية فقد تزوج باختياره المرأة التى أحبها ، وكان والدها قد أصيب بكسر فى ساقه فاستدعى الطبيب الريفى شارل بوفارى لمعالجتها وكان شارل حينذاك قد فقد توا زوجته الأولى ، ووفق شارل فى علاج الساق المكسورة واقتضاه ذلك أن يتردد غير مرة على ضيعة روالت ، وتكرر لقاؤه بالآنسة اما ، ولما أتم علاج الساق المكسورة وكان روالت قد علم بفجيعته فى زوجتـــه الأولى دعاه فى ذات صباح وقدم له أجر العلاج وأهدى اليه ديكا روميا وقال له وهو يربت على كتفيه : « لقد جربت هذه الفجيعة وكنت فى هذا الموقف نفسه ، وحينما فقدت زوجتى العزيزة كنت أذهب الى الحقول لأخلو بنفسى وسقطت على جذع شجرة وبكيت ودعوت الله ···· وكنت مستطار العقل الى حد أنى لم أر شيئا ، وفكرة الذهاب الى المقهى منفردا ملأت نفسى نفورا ·· مرت الأيام يتلو بعضها بعضا وبالتدريج تولى هذا الشعور ، لقد ذهب وغاص فى الأعماق ، أعنى بذلك أن شيئا يبقى فى القاع كما يقول الناس ، ويبقى راسخا فى قلب الانسان ! ولكن مادام هذا هو حالنا جميعا ، فعلينا ألا نستسلم لليأس وألا نطلب الموت لأن غيرنا قد مات ، وعليـــك أن تتجلد يا سيد بوفارى ، وكل هذا سيزول فاحضر لزيارتنا وابنتى تفكر فيك فى بعض الأحيان أتعرف ذلك ؟ وهى تقول انه يبدو أنك قد نسيتها » ·

وعمل شارل بنصيحته ، فكان يتردد على الضيعة ويقص عليه الشيخ صاحب الضيعة طريف أخباره ، وتأكدت العلاقة بينه وبين اما ، وشجع ذلك شارل على التقدم لخطوبتها ، وتم الزواج ، ولكن بعد انتهاء شهر

العسل ادركت اما انهـا لا تحب زوجها ، ورأته على حقيقته رجلا عاديا لا نصيب له من الخيال ، ولا عناية له بملبسه والمحافظة على مظهره الخارجى ، وليست له آراء مبتكرة ، وانما هو يردد كالببغاء الآراء الشائعة المجوجة، ولا يميل الى ارتياد المسرح ومشاهدة أحدث الروايات التمثيلية ، وحياته فى مجموعها بطيئة بليدة مكونة من أشياء صغيرة وتفاهات لا قيمة لها ، ولم يسؤها منه أنه من الناس الذين يمرون بالحياة دون أن يستنبطوا أسرارها ودخائلها فان معظم الناس من هذا القبيل ، وانما ساءها بوجه خاص أنه كان لا يفهم شيئا ولا يحسن النظر حتى من الزاوية الضيقة التى يعيش بها ، وهو لا يرى ما يتجاوز أنفه ، وهو يعيش لأنه يجد ما يمسك عليه رمقه ويقيم أوده ، وهى تعيش فى المستقبل وهو يعيش فى حاضره ، وهو مستغرق فى الواقع وهى مسترسلة فى الأحلام ، وهو كالمقيد بالمكان الذى يحتويه ، وهى هاربة بأفكارها وطموحها من مستقر وجودها ، فهو فى رأيها يمثل الحاضر الذى تضيق به وتمقته ، واذا حدثته فهو لا يصغى لها ولا يفهم مدلول حديثها ، وكل ما تحدثه عنه مناف لطبيعته ، وقد قبلته خطيبا ورضيته زوجا لا لأنهـا أحبته ، وانما بدافع من رغبتها فى التغيير وميلها الى مفارقة البيئة التى تعيش فيهـا وتجـربة لون آخر من ألوان الحياة ، وكانت نقمتها على حاضرها تزداد حدة مع مرور الأيام ، فهى لا تكف عن التطلع الى التغيير الذى تحلم به ٠٠ كانت كالملاح الذى ألقت به السفينة الغارقة على شاطىء مهجور ، فهو لاينى يدير الطرف فى الوحشة المحدقة به مترقبـا رؤية الشراع الأبيض لائحا فى الأفق غير عارف الى أى مكان تدفع به الرياح ، ولكنها تنتظر فى كل صباح مجىء يوم الخلاص ، وحينما تغرب الشمس ويقبل الليل يغمر نفسها الحزن وتعاود التطلع الى الغد المأمول ٠

ودعيت مع زوجها الى حفلة أقامها مركيز من أعيان الريف فى ضيعته ، وكان شارل قد عالجه وهدأ آلام بثرة أصيب بها ، وارتدت اما خير ما عندها من الملابس وازينت ورقصت مع أحد الحاضرين على نغمات الكمان ، وقد زادها حضور هذا الحفل ضيقا بحياتها ، فعادت غاضبة ناقمة ، وأخذت تتحلم بالحياة فى باريس وغشيان المسارح والصالونات ، وتحدث نفسها

بأن هذا هو الوضع الذى يلائمها ويرضى نزعاتها ، وصارت حياتها الحاضرة تبدو فى صورة أضأل من حقيقتها ، وأدنى من مستواها الحقيقى . وقوى شعورها بأن زوجها أكثر فظاظة وأشد نكرا ، فكانت تقول لنفسها « ما أشد فقره وأجدب نفسه وما أحقره وأهون شأنه ! » .

وفى هذا الموقف العصيب والحالة النفسية المتأزمة ظهر فى أفق حياتها العاشق المنتظر فى صوره الشاب الوسيم الرشيق ليون كاتب أحد المحامين فى مدينة يونفيل القريبة من روين ، وكانت قد أغرت زوجها بالاقامة بهذه البلدة وولدت له بها طفلة ، وكان ليون مثلها يحلم بالحياة فى باريس ويحب الموسيقى .

وتكررت مناسبات التقائهما ، وشعر كل منهما بتقارب ميولهما ولكنهما لم يتبادلا مع ذلك ألفاظ الحب وعباراته ، وشعر ليون بأنها تحاول بكتمانها عواطفها ارغامه على اعلان حبه لها .

وكانت تزداد فى خلال ذلك كراهتها لزوجها شارل ، وكان اعتقاده بأنه لا يدخر وسعا فى العمل على اسعادها يبدو لها كأنه اهانة تدل على فرط الغباء ، وأنه نوع من انكار الجميل ، وغلب على تفكيرها الاعتقاد بأنه هو العقبة القائمة فى طريق سعادتها ، وأنه سبب الشقاء الذى تعانيه ، وألقت عليه تبعة متاعبها جميعها ، وكانت تود لو أن شارل أوسعها ضربا حتى تجد مبررا لكرهها له وضيقها به والعمل على الانتقام منه ، وكانت فى بعض الأحيان تعجب من خواطرها الشريرة ، وبرغم ذلك كله كان عليها أن تتكلف الابتسام وتزعم أنها سعيدة وتدعى ذلك لتحمل الغير على تصديقها .

وكرهت هذا الرياء ومالت الى الهرب مع ليون الى أى مكان ، تجد فيه حياتها وتخلص من رتابة عيشها الممل ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تشك فى حبه لها ، فماذا تصنع ؟ .

كانت كلما فكرت فى ذلك تنهمر من عينيها الدموع ويشتد بها الكرب ، ولم يطمئن ليون الى بقاء هذه العلاقة التى لم تسفر عن حب واضح

صريح ، فأثر الابتعاد ونأى بجانبه عنها ، فأخذت تلوم نفسها وتأسى على ابتعاده عنها ، فقد كان النور الذى أضاء فى ظلمات حياتها والأمل الوحيد الذى تعلقت به فى نوبات يأسها ، فلماذا أضاعت من يدها هذه الفرصة السعيدة ، ولماذا تحرص على اجتذابه وتيسير أسباب اقترابه واكتساب عطفه وحبه ؟ وطاف ببالها أن تذهب اليه معتذرة متوسلة وترتمى بين يديه ، ولكنها أحجمت عن ذلك وكبر عليها الأمر ، وضاعف الأسف رغباتها وأطال حيرتها وأصبحت ذكرى ليون تثير شجاها ورواقد آلامها .

وأخذت تهدأ ثورة حبها له وتنطفىء وقدة هيامها به ، فقد ساءت حالتها النفسية واعتلت صحتها ، وفى هذه الفترة ظهر رودلف بولانجيه صاحب ضيعة لاهيشت القريبة من يونفيل ، وهو رجل عزب له دخل سنوى لا يقل عن خمسة عشر ألفا من الفرنكات ، وكان قد جاء الى شارل ليجرى عملية فصد لخادمه ، وحضرت مدام بوفارى اجراء العملية ونظر اليها بولانجيه بعد انتهاء العملية وتبادل بعض الأحاديث مع الحاضرين ومنهم مدام بوفارى وقال لها : « لقد سررت بمعرفتك » ودفع أجر العملية بغير اكتراث وانصرف .

وأعجب بولانجيه بمدام بوفارى ، واستماله جمالها وكان فى الرابعة بعد الثلاثين من عمره ، وفى طباعه شدة وصرامة ، ولكنه كان واضح التفكير وله خبرة بأحوال النساء وأسرارهن . وقد أخذ يفكر فى اما لأنها حسناء فاتنة ، وقال لنفسه : « انى أتصور أن زوجها غاية فى الغباء وهى من غير شك قد سئمت معاشرته ، وأظافره قذرة ، وهو لم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام ، وهى بطبيعة الحال ترى أن معيشتها فى هذه البلدة الصغيرة مملة وتفضل أن تعيش فى المدينة وترقص فى كل مساء . وهذه المسكينة لا بد أن تكون نزاعة الى الحب ، فاذا قال لها أى رجل ثلاث كلمات مهذبة فانها ستعبده عبادة ، وانى واثق من ذلك ، وستكون شديدة الحب قوية العطف ، ولكن كيف أتخلص منها بعد ذلك ؟ » وأخذ يقارن بينها وبين عشيقته التى ملها وبدأ يزهد فيها ، وقال لنفسه « انها أوفر منها جمالا وأكثر نضارة ... » وعقد العزم على ايجاد علاقة معها ، وشرع يفكر فى أقرب السبل الى ذلك ، واستقر رأيه على اغتنام

الفرص وان يزور شارل فى بعض الأوقات ويدعوه لزيارته مع زوجته ٠٠ وتسنح الفرصة المنتظرة ويلقى امما ٠

ومر على اللقاء الأول بينهما ستة أسابيع لم يرها فيها ، وقال لنفسه « انها اذا كانت قد أحبتنى من اليوم الأول للقائنا فان ذلك الحب سيقوى ويزداد وستكون شديدة الشوق الى لقائى » ، وحينما زارها تأكد من اصابة ظنه ، ووجد الفرصة سانحة لمصارحتها بحبه لها ، والواقع أن امما لقيت رودلف فى الفترة التى طغى فيها الملل على نفسها ولفها فى غياهبه وشعرت بأنها فى حاجة الى حب يستولى عليها ويذود عنهـــا السأم الذى تعانيه ، فقد كانت تحرص على الدخول الى عالم الحب لا الى رودلف ، وكان رودلف الذى هيأ لها الفرصة وأشبع فى نفسها تلك الرغبة ٠ وقد عرفت متعة الحب وعاشت فترة فى عالم غريب لامع كله أحلام ومتعـــة ونشوة ، فهى تحب الحب نفسه لا رودلف ، ورغبتها فى أن تعرف الحب هى سبب الخطيئة الأولى التى وقعت فيها ، ثم يقع الخلاف بينها وبين رودلف وهو مأساة حياتها ، فقد اتفقت معه على أن يهربا معا ، ولكن رودلف غير فى آخر لحظة رأيه ونكث عهـــده ونقض وعده ، وأرسل اليها رسالة يقدم بها أعذاره ، وكان لهذه الرسالة أسوأ وقع فى نفسها وانهارت أحلامها وفكرت فى الانتحار ومرضت مرضا شديدا ، وحينما خفت وطأة المرض صحبها زوجها شارل الى المسرح ، وهناك لقيت ليون وأعاد ذلك اللقاء نيران حبهما القديم الى الاشتعال ، وتجددت العلاقة الغرامية بينهما ، ولكن الشاب ليون لم يقو على الثبـــات أمام عواطفهـــا القوية المجتاحة ، وتعرضت لصدمة زادت همومها وبلبلت خواطرها وأوقعتها فى حيرة صعب عليها الخروج منها ، فقد أصبحت الصكوك التى كانت تستدين بموجبها وتسرف فى نفقاتها دون أن يعلم شارل واجبة الدفع ، وصارت مهددة فى كل لحظة بالحجز على ما فى منزلها وكل ما تملك هى وزوجها ، ولجأت الى ليون وتوسلت اليــه أن يعمــل على استدانة المبلغ المطلوب سداده لتتحاشى الحجز ، ولكن ليون لم يوفق فى مساعيه ولم يبق أمامها الا أن تستذل كرامتهـــا وتتنزل عن كبريائها وابائها وتذهب الى رودلف تلتمس منه أن ينقذها من ورطتها ٠

ويصف لنا فلوبير لقاءها لرودلف فيقول :

سألت نفسها ماذا تقول له وما الذى انتوت أن تبدأ به الحديث .. واقتربت منه بعد أن تنهدت تنهدا عميقا وقالت : « أوه ! لو كنت تعلم يا رودلف . لقد أحببتك حبا قليل النظير » وأمسكت بيده وجلسا حينا من الزمن مثل جلستهما فى اليوم الأول للقائهما ، ولما رأت أنه يجاهد فى اخفاء حنوه بدافع الكبرياء ، قالت وقد ارتمت على صدره : « كيف تنتظر أن أعيش بدونك ؟ لا يستطيع الانسان أن يتعود فقدان السعادة ، لقد كنت يائسة ، وخلت أنه كان يجب أن أموت فى حين أنك — أنت تجنبتنى » .

ولقد كانت هذه هى الحقيقة ، فقد عمل على ذلك فى السنوات الثلاث الأخيرة ، بدافع ذلك الجبن الذى يميز الجنس القوى ، واسترسلت امما فى حديثها محاولة اغراءه كالهرة العاشقة ، وبحركات رشيقة من رأسها : « انك متيم بنساء أخريات ، قل الحق ، أوه ! انى أفهم ذلك وأنا أعذرهن وأظنك أغويتهن كما أغويتنى ، وأنت رجل فيك كل الصفات التى تمكنك من أن تجعل نفسك محبوبا ، ولكننا سنبدأ ثانية ، أليس كذلك ؟ ولا نزال يحب كل منا الآخر ؟ انظر — انى أضحك وأشعر بالسعادة ...... تحـــدث الى » .

كان منظرها فاتنا جذابا وقد ترقرقت الدموع فى عينيها مثل قطرات الندى فى غلالة زهرة زرقاء ، وجذبها الى ركبتيه وداعب شعرها الذى انعكست عليه أشعة الشمس الغاربة بظهر يده فأحنت رأسها فقبل فى رفق جفنها بطرف شفتيه .

وهتف قائلا : « ولكنك تبكين . فما سبب ذلك ؟ » .

فاشتد نشيجها ، وظن رودلف أنه مجــرد تعبير عن حبها ، ولكن لما كانت لاتزال صامتة فقد ظن أن هذا آخر جهادها مع الاحتشام ، فمضى يقول : « أوه ! سامحينى . انك أنت المرأة الوحيدة التى أعتنى بها ، ولقد كنت قاسيا وأحمق . انى أحبك وسأظل أحبك دائما .. فما شأنك ؟ أرجوك أن تخبرينى » وركع على ركبتيه الى جانبها .

« حسن ، لقد دمرت حياتى يا رودلف٠أتعيرنى ثلاثة آلاف فرنك؟» ٠
فقال وقد أخذ ينهض من ركوعه بالتدريج وعلت وجهــــه سـيماء الجد
« ولكن ٠٠٠ ولكن هل هذا حقيقى ٠٠٠ » ٠

فمضت مسرعة فى حديثها قائلة : « أنت تعرف أن زوجى قد وضع أمواله فى يد محام وقد هرب المحامى وكان علينا أن نقترض ، والمرضى لا يدفعون ، وضيعة والده لم تصف بعد ، وسنحصل على المال قريبا ، ولكن اذا لم نجد ثلاثة آلاف فرنك فان منزلنا سيحجز عليه اليوم ، ولقد يحدث ذلك فى أية لحظة ، وقد جئتك معتمدة على صداقتك » ٠

ففكر رودلف الذى اشتد فجأة اصفرار وجهه :« أوه ! هذا هو السبب الذى جاءت من أجله » ولكنه قال فى هدوء تام : « ليس عندى ما يعادل هذا المبلغ يا عزيزتى » ٠

وكان بلا شك صادقا فيما قال ٠ ولو كان يملك هذا المبلغ لأعطاه لها من غير شك ، ولو أنه باعتبار القاعدة العامة من أعمال العطف التى لا ترتاح لها النفس ، وليس أكثر قضاء على الحب من طلب المساعدة المالية ، فنظرت اليه فى صمت دقيقة أو دقيقتين ثم قالت : « ليس عندك هذا المبلغ !! كان يجب أن أجنب نفسى هذا العار الأخير ٠ انك لم تحبنى قط ، ولست خيرا من الآخرين » ٠

« واحست كأن الأرض تدور بها ، وكانت لا تعى وجودها الا بتيار الدم السريع المتدفق فى شرايينها ، وكانت تستطيع أن تعتقد أنها سمعته يفلت منها مثل الموسيقى التى تصم الآذان والتى ملأت ما حولها ، وكانت الأرض تحت قدمها ألين من الأمواج ، وبدت أخاديد الأرض كأنها أمواج داكنة ، وظهر لها أن كل ما تتذكره وأفكارها جميعها كأنها تفر منها مثل آلاف الشظايا فى عرض كبير للألعاب النارية ، ورأت والدهــا ومكتب ليهيريه وحجرتها ومنظرا طبيعيا آخر ، وشعرت كأنها قد فقدت صوابها وتمشى المخوف فى نفسها ، ولكنها نجحت فى استعادة جأشها ، ولو أنها كانت لا تزال مضطربة النفس قد اختلط عليها الأمر ، ولم تستطع أن تتذكر سبب الحالة الرهيبــة التى تعانيها ، أى ان المال كان باعثها ولم

تذكر الا شقاءها فى الحب ، وشعرت بأنها تفقد روحها فى تلك الذكرى كالجرحى من الرجال الذين يشعرون وهم يعانون غصص الموت بأن حياتهم تتساقط من خلال جروحهم الدامية ٠

وأقبل الظلام ، وبدأ طير العقعق يعود الى وطنه ، وفجأة بدا لها كأن كريات نارية تنفجر فى الهواء مثـل الكرات المدوية ، وأنها تدور وتعلو حتى تختفى فى الثلج بين فروع الاشجار ، وظهر وجه رودلف فى وسط كل منها ، وأخذ عددها فى التكاثر وتقرب بعضها من بعض ، واختفت أخيرا ، وعرفت حينئذ أضواء المنازل التى كانت تضىء خلال السحاب فى الأفق ، ثم أخذت تدرك موقفهـــا على حقيقته وقد بدا أمامهـــا كالهاوية الفاغرة ٠٠ ولهثت كأن صدرها كان سيتمزق ، واتقدت فى نفسها حماسة بطولية جعلتها تكاد تشعر بالسعادة ، فانطلقت الى أسـفل التل وعبرت الجسر الخشبى واجتازت الممر الضيق ٠٠ وبعد أن عبرت الميدان وصلت الى حانوت الكيميائى ٠٠٠ » ٠

« ولم يكن هناك أحد ، وهمت بالدخول ، ولكن يمكن أن يحضر أحد على صوت الجرس ولذا تلمست طريقها الى الحائط وقد حبست أنفاسها حتى وصلت الى باب المطبخ حيث كانت هناك شمعة مشتعلة فوق الموقد وكان جستين يحمل طبقا للخارج ، فقالت لنفسها : « أوه ! انهم يتناولون عشاءهم وعلى أن أنتظر » ولما عاد قرعت النافذة قرعا خفيفا فخرج فقالت له: « أعطنى مفتاح الحجرة التى فى الطابق العلوى حيث يوجد ٠٠ » ٠

« ماذا تعنين بذلك ؟ » ٠٠ ونظر اليها وقد عرته الدهشة لاصفرار وجهها فقد بدا أبيض اللون فى ظلمة الليل ، وظهرت له غاية فى الجمال وقد حفها الجلال كأنها طيف ماثل ، وبدون أن يفهم ما كانت تريده أدرك أن شيئا مخيفا سيحدث . ولكنها بادرت مسرعة الى القول فى نغمة رقيقة منخفضة متوسلة : « انى أريده أعطنى اياه » ٠

وكانا يستطيعان أن يسمعا من خلال الحاجز الرقيق صوت السكاكين والشوك فى حجرة الطعام ، وادعت أنها تريد الزرنيخ الموجود بأعلى لقتل الفئران التى منعتها من النوم ٠

فقال : « ولكن لابد من أن أخبر السيد هوميز » فأجابته قائلة : « ان الأمر لا يستحق ازعاجه وسأخبره فى الحال ، أرجوك أن ترينى النـــور » .

وذهبا الى الممر الذى يفضى الى باب المعمل ، وكان هناك مفتاح معلق على الحائط وصاح الكيميائى الذى بدأ يقلق : « جستن ! » .

فقالت : « اصعد الى الطابق العلوى » فتبعها وفتحت المغلاق بالمفتاح واتجهت الى الرف الثانى مباشرة (لأن ذاكرتها خدمتها جيدا) وأمسكت بالزجاجة الزرقاء ورفعت سدادتهـــا وأدخلت يدها وتناولت كمية من المسحوق الأبيض وشرعت فى ابتلاعها .

فصاح بها ممسكا بيديها قائلا : « توقفى ! » .

فأجابته : « التزم الصمت والا حضر بعض الناس » .

« فلم يدر ما يصنع وأراد أن يدعو أحدا لنجدته ولكنهـــا طلبت اليه ألا يقول شيئا لأن الخطأ جميعه سيقع على سيده . وذهبت الى بيتها وشعرت فجأة بالارتياح كأنها قد أنجزت واجبا » .

وهكذا وصف لنا فلوبير عودة اما خائبة من قصر رودلف وتصميمها على تناول السم ، وكيف ذهبت الى دار الكيميائى هوميز وابتلعت الزرنيخ .

ولما عاد شارل الى المنزل ووجدها سألها : « ما الخبر ؟ » ، وطلب منها أن توضح له جلية الأمر ، وكانت حينذاك جالسة الى مكتبها وقد أتمت كتابة رسالة وطوتها بعد أن أثبتت بهـــا التاريخ والساعة وقالت له فى لهجة جادة : « لا تقرأ هذه الرسالة الا غدا ، وبين هذا وذاك ارجوك ألا توجه الى أى سؤال » .

ويشتد بها الألم وتسوء حالتها ، ويسرع شارل الى الرسالة ويفضها ويقرؤها ويعرف أنها تناولت السم ، ويطلب النجدة ، وتتقاذفه لجج الحزن فتقول له اما : « لا تبك فبعد قليل لن أتعبك أبدا » .

فيقول لها شارل : « ولماذا ؟ ما الذى دفعك الى ذلك ؟ » .

فتجيبه قائلة : « كان على أن أفعل ذلك يا عزيزى » فيقول شارل : « ألم تكونى سعيدة ؟ هل أخطأت ؟ لقد بذلت كل ما فى وسعى » ٠

ومسحت بيدها فى بطء على شعره ، وعمقت عذوبة هذا الاحساس حزنه ، وشعر بأن حياته جميعها تنهار أركانها حينما فكر فى أنه سيفقدها فى الوقت الذى تعترف فيه بحبها له ٠

واضطر شارل بعد موتها الى أن يبيع كل ما يملك من الأشياء الفضية وأثاث المنزل ليسدد الديون ، وفتح فى النهاية درج مكتب امما فوجد فيه الرسائل التى كان يبعث بها اليها ليون ، وصورة ردولف ، فتضاعف حزنه وكبر عليه الأمر ، ورفض أن يرى مرضاه وآوى الى حجرته معتزلا الناس وكان يتمشى فى حديقة داره جيئة وذهوبا وهو يبكى بصـــوت مسموع ، وفى ذات يوم وجدته طفلته الصغيرة ميتا وفى يده خصلة طويلة من شعر امما الأسود اللون ٠

هذه هى مأساة مدام بوفارى التى بذل فلوبير فى كتابتها جهدا جبارا ، فجاءت طرفة من طرائف الفن الخالد فى موضوعها وفى أسلوبها ٠

رسالة الخلود

محمد إقبال

١٩٣٢م

ســــيرة وصـــورة

محمد اقبال علم من أعلام الاســلام فى هذا العصر وقائد من قادة الفكر فى الشرق وهو رائد من رواد الوعى الانســـانى فى الفلســفة والدين ٠٠ انه « شــاعر فيلسوف وهب قلبه وعقله للمسلمين وللبشر أجمعين » ٠

وتستطيع اليوم ان نقول ، انه الى جانب شخصية جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ، ستظل شخصية اقبال من أبرز الشخصيات فى التاريخ الشرقى الحديث ٠

والحق أن شخصية اقبال شخصية جذابة لها على القراء ســـحر عجيب ، ولعل مرجع ذلك الى أنه شــــاعر يغوص على المعانى الفلسفية العميقة فيحسن تناولهـا وسبكها ويجليها للناس ببيانه الألمعى وشعره الناصع وتشبيهه الرائق ، فيجعل كتبـــه ــ على غزارة مادتها وعمق موضوعاتها ــ روضة غناء تسر الناظرين ٠

ولد محمد اقبال فى بلدة « سيالكوت » باقليم البنجاب فى الهند فى ٢٢ من فبراير سنة ١٨٧٣ من أسرة متوسطة الحال معظم أفرادها من المشتغلين بالزراعة ، وتنتهى الى سلالة البراهمة ٠ نزلت منذ ثلاثة قرون عن امتيازاتهـا الوفيرة ومنزلتها المرموقة بين الطبقات الهندية ، واعتنقت الاسلام على يد أحد رجال الصوفية فى كشمير ٠

كان أبوه ــ محمد نور ــ رجلا متدينا ورعا ويؤمن بقيم الروح ٠ وتعلم اقبال مبادىء القراءة على أبيه ، ولكنه تعلم منه شيئا آخر أثمن من القراءة والكتابة : مبادىء الأخلاق ٠

أدخل اقبال أحد الكتاتيب المعدة لتحفيظ القرآن فى سيالكوت • وقد حرص أبوه على أن تكون قراءة ابنه للقرآن قراءة وعى وتدبر وتفهم تؤدى الى العمل به والاهتداء بهديه ، وكان يقول له : « يابنى اقرأ القرآن كأنه نزل عليك » • ويعقب اقبال على وصية أبيه بقوله : « ومنذ اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت » •

انتقل اقبال الى مدرســة « سيالكوت » • وما ان أتم الدراســة الابتدائية حتى التحق بمدرسة البعثة الاسكتلندية للدراسة الثانوية ، بينما تلقى أصول اللغتين الفارسية والعربية على أحد أصدقاء أبيه « شمس العلماء ميرحسن » • وكان أستاذا ملهما متضلعا فى آداب هاتين اللغتين ، وشجع الأستاذ تلميذه لما ترسم فيه من نجابة وذكاء مبكر •• على أن يتابع قرض الشعر والكتابة باللغة الأوردية بدلا من اللغة المحلية السائدة فى سيالـكوت •

ثم دخل اقبال جامعة لاهور وأتم دراسته فيها • وانضم الى « جمعية حماية الاسلام » وعلى منصتها أخذ يقرأ شعره النابض بالحياة • وفى لاهور التقى بأستاذه المستشرق الانجليزى « الســـير توماس أرنولد » وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الألفة • وكان الأستاذ « أرنولد » شديد الاعجاب بمواهب تلميذه وانتاجه الشعرى ، ولذلك طلب منــه أن يقوم بدلا منه بمهمة التدريس فى جامعة لندن فى فترة من الدراسة الجامعية سنة ١٩٠٥ م • وهنالك تعرف الى كثيرين من أهل الفضل والعلم . ثم قصد الى جامعة « هيدلبرج » ثم الى جامعــة ميونيخ بألمانيا حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة برسالة قدمها عن « تطور الميتافيزيقا فى بلاد فارس » • وفى سنة ١٩٠٨ حصل على درجة فى القانون •

ولما عاد اقبال الى وطنه اشتغل بالشعر والفلسفة والسياسة ، وانتخب الشاعر الفيلسوف عضــوا بالمجلس التشريعى بالبنجاب ، ثم ذهب الى لنـــدن — سنتى ١٩٣١ / ١٩٣٢ للاشـــتراك فى « مؤتمـر المائـــدة المســـتديرة » •

واختير رئيسا لحزب مسلمى الهند ، ورئيسا لجمعية حماية الاسلام التى كانت تشرف على عدد من المؤسسات الدينية والاجتماعية .
ولبث زمنا طويلا يلقي المحاضرات في أرجاء الهند ، وشارك في سياسة بلاده بأقواله وأفعاله ورأس كثيرا من المجامع السياسية وكان عمادا قويا لحزب الرابطة الاسلامية .

ومات الفيلسوف الشاعر فى ٢١ من أبريل سنة ١٩٣٨ ودفن فى لاهور . واتخذ أصدقاؤه قبرا له في فناء المسجد الجامع (شاهى مسجد) . ثم كتبوا على ضريحه أن محمد نادر شاه ملك الأفغان أمر بصنع ذلك الضريح اعترافا منه ومن الأمة الأفغانية بفضل الشاعر الخالد .

ومحمد اقبال أول من نادى بضرورة انفصال المسلمين فى الهند عن الهندوس ، وبوجوب قيام دولة خاصة بهم يستطيعون فيها أن يظهروا روعة الاسلام وأن يحيوا فيها الحياة التى تتمشى مع تعاليم الدين الحنيف .

ومنذ أعلن اقبال هذه الفكرة سنة ١٩٣٠ أصبحت الهدف الأول الذى جاهد مسلمو الهند لتحقيقه ، الى أن تم لهم انشاء دولة «الباكستان» في اغسطس سنة ١٩٤٧ بعد نضال متواصل اشترك فيه جميع المسلمين هناك تحت قيادة محمد على جناح .

فلسفة اقبال

ان الدعوات الكبيرة ذات المرامى البعيدة والأهداف الانسانية قلما تنجح بالعصبيات الجامحة وحدها ، وقلما تستطيع أن تمضى بين العواصف والأنواء الثائرة بهذا وحده ، فلابد من الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة الواعية والعقيدة القوية الصادقة التى لا اهتزاز فيها ولا غموض ... وعندئذ تسهل التضحيات وتتضح المناهج ويعى الداعية ما يقول وبالتالى يعى الناس ما يلقى اليهم ، فيشمون منه روح الصدق وبوادر الاخلاص ونوايا الوفاء ! .. وهنا تراود أخيلتهم أحلام البعث والتحرر ، وتظل تلح عليهم وتتجسم أمام بصائرهم ، حتى يستجيبوا

لها ويهبوا كالأقدار النافذة التى لا تذعن ولا ترضخ ولا يخيفها بلاء مهما كثر ، ولا يروعها بذل مهما غلا ، ولا يعوقها حاجز مهما علا وصمد !٠٠

نقول ، ان الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة والعقيدة الصحيحة هى الاستعداد الواجب لمن يخوضون طريق الاصلاح والبعث والتحرير . فهذه اذن هى القاعدة ٠ وحينما نقول العلم نقصد العلم عامة ، سواء من الشرق أو الغرب ٠٠ فى «لاهور» أو « كمبردج »٠٠ ونقول أيضا العلم الذى يغزو العقول ويصل الى أعماقها فتفرزه وتفحصه وتأخذ منه بحذر كل ما يفيدها ولا يخالف فطرتها أو يضاد عقائدها ومثلها العليا !٠٠

ان من يتلقى كل شيء بقبول حسن ويقبل كل علم ويؤمن بكل نظرية دون فحص أو تمحيص فيلغى شخصيته ويتناسى وجوده ـ مثله كمثل الذى فقد حاسـة الذوق ـ فهو يأكل الشهد دون أن يشعر بلذة ، ويتناول المر دون أن يدرى له غصة أو مرارة ٠٠٠ انه يأكل فقط ليملأ معدة خاوية ويقضى عادة متبعة وتقليدا جاريا ٠٠ ولكى يعيش ! ٠٠

كان « اقبال » ـ شاعر الاسلام ـ من الصنف الأول من الرجال الذين ينهلون من العلم أنى وجدوه ويلحقون به أينما رحل ! ٠٠

وفى أثناء ذلك كان « اقبال » يلتقط الآراء السليمة والحكمة العالية والأفكار المستحدثة وغير المستحدثة فينتقدها ويفندها ويردها الى أصولها فيعلم الثمين من الغث والنافع من الضار ٠٠

وظل رأيه هكذا متحرر النزعة متحرر الفكرة يناقش وينقد ويبتكر ويقدم انتاجه فى ثوب رائع قشيب لا تملك أمامه الا أن تبدى الاعجاب ٠ وكان نتيجة ذلك أن أصبح « اقبال » ذا فلسفة جديدة ومذهب مستحدث وآراء عميقة ، يتناقلها الكتاب والفلاسفة من قطر الى قطر ومن جامعة الى جامعة فى « ايران » و « الأفغان » و « مصر » و « ألمانيا » و « انجلترا » و « ايطاليا » ! ٠٠٠

أجل ان المقلد الأعمى لا يأتى بجديد ، بل يجلب على نفسه السخرية والضحك أمام الأجيال التى تتوق الى الخلق والانشاء ، وتتلذذ بالجديد

النافع ، وفى نفس الوقت تمحى شخصيته وتذوب فرديته أو « ذاته » ، التى حرص « اقبال » فى فلسفته أن يجعل منها رمز التقدم وشعار التحرر والمجد والخلود ٠

كان محمد اقبال من أكثر مفكرى المسلمين احاطة ومن أوفرهم ابتكارا ، فى الوقت نفسه كان واسع المعرفة بمذاهب الفكر فى الشرق والغرب فأمدته هذه المعرفة بمادة خصبة صاغتها عبقريته مذهبا ضافيا جمع فيه بين العلم والدين والفن ، وكانت فيه نفحات من التصوف الاسلامى على العموم ، ومن خطرات جلال الدين الرومى على الخصوص ٠

أما فلسفة اقبال ، فنجد فيها قبسات من مذاهب المثاليين الغربيين والأخلاقيين منهم بوجه خاص،فيها قبسات من كانط،وفشته،وبرجسون، ووليم جيمس ٠ وفيها نزوع الى العمل الهادف وتغليب له على جوانب النظر المجرد ٠ ويبدو أن ما حاوله محمد اقبال فى تاريخ الفكر الاسلامى شبيه من بعض الوجوه بما حاوله « كانط » فى الفكر الغربى ٠ وقد عبر الشاعر الفيلسوف عن آرائه تلك فى طائفة من القصائد باللغتين الفارسية والأوردية ، فاستجابت لها الشبيبة المسلمة الهندية ٠ ثم بسطها بعد ذلك فى سلسلة من المحاضرات ألقاها باللغة الانجليزية سنة ١٩٢٨ ونشرها سنة ١٩٣٤ بعنوان « تجديد بناء الفكر الدينى فى الاسلام » ٠

وقد بين اقبال مقصده من هذه المحاضرات : بيان صلة المسلمين بفلسفة الغرب ، وحاجتهم الى اعادة النظر فى الاسلام كله دون انقطاع عن الماضى ، فى ضوء ما كشف عنه العلم من حقائق فى الكون وطرائق للنظر ٠

ينزع اقبال نزعة جوانية فى نظرته الى المعرفة والرياضة الدينية فيقول ما خلاصته : ان هنالك فرقا بين المعارف المستقاة من مصادر مختلفة ٠ وقد سوى القرآن بين ضروب الادراك الانسانى فى الاستمداد منها لمعرفة الحقيقة القصوى ٠ فلابد من أجل ادراك هذه الحقيقة أن يصحب الادراك الحسى هذا الادراك الحدسى الجوانى الذى يسميه القرآن « القلب » ، ومن ثم فالعقل والحدس أو الفكر والالهام ليسا متنافرين كما يتوهم المتوهمون ٠

ويمضى اقبال فى نظراته الجوانية فيقول : ان الدين لا يقنع بالتصور المجرد بل يطلب اتصالا بمقصوده ووسيلة هذا الاتصال العبادة أو الصلاة . الصلاة وسيلة استنارة روحية تعرف بها الذات الانسانية أنها موصولة بحياة أوسع . وكل طلب للمعرفة هو فى حقيقته صلاة . فالباحث فى العلم الطبيعى هو كالصوفى فى صلاته وتزيد الصلاة قربا من مقصودها بالاجتماع . والعبادة فردية كانت أو جماعية هى اعراب عن تلهف الوجدان الانسانى الى استجابة له فى صمت الكون الهائل .

ويقف اقبال عند مشكلة الحرية الانسانية ، مبينا أن تعاليم الاسلام قد أكدتها ، ولكن غلبة الأغراض السياسية أو المطامع الشخصية قد أشاعت فى عامة المسلمين جبرية مشئومة الحقت بالجماعة الاسلامية أضرارا بالغة .

ويتحدث الفيلسوف الشاعر عن تصور الاسلام للعالم على أنه عالم حركة ، وسنن مستمرة : « والحركة فى الجماعة الاسلامية بالاجتهاد . ويؤسفنا أن هذا الأصل الذى يهب للأمة الحيـــاة لم يعمل عمله فى المسلمين . ان من أقوى أسباب ضعف المسلمين اهمال هذا الأصل ، أعنى ابطال الاجتهاد » .

وفى حديث اقبال عن « الاجماع » باعتباره أصلا من أصول التشريع الاسلامى يقول : « والأصل الثالث من أصول الشرع الاجماع . وهو عندى أعظم السنن الشرعية . وعجيب أن هذه السنة الرشيدة نالت كثيرا من بحث المسلمين وجدالهم ، ولكنها لم تعد التفكير الى العمل ، وقلما صارت سنة عملية فى بلد اسلامى . ولعل اتخاذها سنة دائمة ونظاما محكما لم يلائم مطامع الملك السابق الذى نشأ فى الاسلام بعد الخلفاء الراشدين ، ولعل ترك الاجتهاد لأفراد من المجتهدين كان أقرب الى منافع الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس من تأليف جماعة دائمة عسى أن تفوقهم قوة . ومما يبعث على الرضا والأمل أن سيرة الحوادث فى هذا العصر وتجاريب أمم أوربا ، أشعرت الفكر المسلم الحديث بقيمة الاجماع وعرفته أنه ممكن . وشيوع النزعة الجمهورية ، ونشوء مجالس التشريع يمهدان السبيل الى العمل بسنة الاجماع » .

واضح أن فلسفة اقبال فى جوهرها ذات طابع دينى عميق وهى فى جوهرها تمجيد للاسلام ، وبعث للحياة والقوة فى المسلمين ، وتبشير لهم بمستقبل مجد وفخار اذا ساروا فى حياتهم على هدى دينهم الحنيف .
يقول الشاعر الفيلسوف فى نشيده الاسلامى المشهور :

فى ظـل السيف ترِبينا وبنينـا العز لدولتنـا
علم الاسـلام على الأيـام شـعار المجـد لملتنـا
ومحمـد كـان أمير الركـب يقـود الفوز لنصرتنـا
ان اسـم محمد الهـادى روح الآمـال لنهضتنـا
دوت أنشـودة « اقبال » جرسـا يحدو فيه الزمنا
ليعيـد قوافلنـا الأولى فى المجـد ويبعث أمتنـا

ولا ينفك اقبال متغنيا بمآثر الاسلام . وفى غنائه دعوة الى النهوض وحث للخطى على مواصلة السير مع القافلة . ولنستمع الى الفيلسوف يقول : « الغاية القصوى للنشاط الانسانى هى حياة مجيدة فتية مبتهجة . وكل فن انسانى يجب ان يخضع لتلك الغاية ، وقيمة كل شىء يجب ان تحدد بالقياس الى تلك القوة على ايجاد الحياة وازدهارها . وأعلى فن هو ذلك الذى يوقظ قوة الارادة النائمة فينا ، ويستحثنا على مواجهة الحياة فى رجولة . وكل ما يجلب الينا النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعة فيما حولنا انما هو انحلال وموت ... » .

وبهذا المعنى الارادى يتغنى اقبال بعزيمة المسلم فيقول :

يبتسـم المسـلم فى سلمه عن رقة المـاء ولين الحـرير
وتبصر الفـولاذ فى عزمـه اذا دعـا الحرب ونادى النفـير

ويقول أيضـا :

يمشى علـى الأشـواك والنـا
ر والسـيف ويمضى ساخرا بالعذاب
فهـو ترابـى ولكنـه
طليق على قيود التـراب

ويعبر عن قوة الايمان فى « شعار المؤمن » فيقول :

لم أحن رأسى خاشـــعا الا لمـــن بيمينـــه الاحيـــاء والافنـــاء

ثم يقـــول :

فقـــرى لخـــلاقى غنى عن خلقـــه
فأنـــا الغنى وان غـــدوت فقـــيرا
وأرى فنـــاء العيش خـــيرا للفتى
من أن يعيش على الغنـــاء أســـيرا

لقد رأى محمد اقبال أن الرجل الأوربى الحديث قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلى الصرف ، فلم يعد يعيش بروحه ، وأصبح لا يكاد يحس حياة الباطن والجوانى ، وينكر كل ما هو غيبى ويراه وهما . فهو فى مجال الفكر يعيش فى نزاع مع غيره دائمـا ، وهو يجد نفسه فى أغلب الأحيان عاجزا عن ضبط أنانيته وشهواته مأخوذا بسحر المادة يتكالب عليها تكالبا لا يعقبه الا الحسرة والشقاء .

« وقد كانت الحرب العظمى التى قامت فى أوربا قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وان الفطرة لتخلق اليوم فى أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة انسانا جديدا ، وتخلق عالما جديدا لاقامة هذا الانســـان ، عالما يرى هيكله غير البين فى آثار أينشـــتين وبرجســـون » ..

« لقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ... ولكن واأسفاه لم يستطع عباد القديم الذين سمموا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذى كان يثور فى الضمير الانسانى ! » .

فاذا نظرنا الى الشرق الاسلامى الفيناه يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطـــاولة .

« ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبين أن الحيـــاة لا تستطيع أن تبدل ما حولها حتى يكون تبدل فى أعماقها ، وان عالما جديدا لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجى حتى يوجد فى ضـــمائر الناس قبـــلا . هذا

قانون الفطرة الثابت الذى بينه القرآن فى كلمات يسيرة بليغة حين قال : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفســـهم » · انه قانون يجمع جانبى الحياة كليهما الفردى والاجتماعى ، وانه لجدير بالاكبار كل مسعى فى العالم ولا سيما فى الشرق يقصد الى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية فيولد فيها سيرة انسانية صحيحة » ·

ولقد كان اقبـــال شديد الايمان بأن للدين الأهمية العظمى والأثر الفعال فى توجيه حياة الفرد والجماعة على السواء · وفى هذا المعنى يقـــول :

« ان الدين فى أعلى صوره ليس أحكاما جامدة ولا كهنوتية ولا أذكارا · ولا يتيسر الا بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله اياه تقدم العلوم فى عصرنا · والدين وحده يرد اليه الايمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب شخصية فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة · ولابد للانسان من الارتقـاء الى تصور جديد لماضيه ومستقبله ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ، ويقهر هذه المدينة التى فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطنى بين الدين والمطامع السياسية . والحق أن سير الدين والعلم على اختلاف وسائلهما ينتهى الى غاية واحدة ، بل الدين أكثر من العلم اهتماما ببلوغ الحقيقة الكبرى » ·

ونظر محمد اقبال الى الدين الاســـــلامى على أنه « دين مفتوح » — اذا صح أن نستعير هنا تعبير برجســـون فى كتابه « منبعا الأخلاق والدين » — بمعنى أن رسالته رسالة انسانية ليست لها حدود زمانية أو مكانية ، وأن به قوة كامنة تستطيع أن تحرر نفوس البشرية من قيود الأجناس والألوان والعصبيات · وبذلك أعاد اقبال الى الأجيال الجديدة من المسلمين ما افتقدوه من الثقـة بالثقافة الاســـلامية ، كمـــا بعث فى نفوسهم تصميما على أن يبعثوا أمام الأبصار الحضارة المجيدة التى كانت فى وقت ما نعمة سابغة على الدنيـــا · ولقد تغنى اقبال بأنشودة الأمل والايمان لشعب كان قد فت الفشل فى عضده أعواما عديدة ·

ومضى الشاعر يحدث الشبيبة المسلمة مؤكداً انه على رماد الثقافة العربية المحترقة يمكن ان تتولد ثقافة افضل وابقى متى استمسكنا بحرف القرآن :

« ان مئات العوالم الجديدة منطوية فى آياته

والعوالم كلها مكنونة فى آناته

ومن بين هذه سيخرج عالم واحد يكفى أهل العصر الحاضر

فالتقوا معناه ان كان فى صدوركم قلوب واعية

ولئن أصبح أحد العوالم بائدا

أعطى القرآن عالما آخر »

وخلاصة رسالة الاسلام عند إقبال هى اقرار الحرية وتدعيم العدالة وتوطيد المحبة بين البشر . وفى هذا الصدد يقول الفيلسوف المسلم اقبال :

« ليست غاية الاسلام محصورة فى الواردات الذاتية التى تجعل المرء بمعزل عما حوله من الاشياء وعمن حوله من الناس ، بل بناء التربية التى تجعل الفرد صالحا لان يكون منه ومن غيره مجتمع صالح له انظمته القديمة ، فان العصبيات التى تدعو الى البغضاء والتنفير وضيعة مهينة ليس لها فى الاسلام وجود » .

نظرية الذات عند اقبال

واذا كان محمد إقبال قد اغترف من مناهل الفكر الاوربى على العموم ، واذا كانت فلسفته زاخرة بخواطر « نتشه » و « برجسون » على الخصوص ، فالذى لا شك فيه أن فيلسوف باكستان وشاعرها كان يحس احساس المسلم ويفكر بعقليته .

رأى اقبال ان الفلسفة الهندية والتصوف والصوفية الاسلامية المتواكلة قد كان من اعظم ... المسلمين ... اليأس والاستسلام والهرب من الحياة

والقعود عن العمل والاقدام ، من أجل هذا عنى الشاعر المصلح بانتقاد تلك الفلسفة التي ترادف الضعف والفناء وعارضتها بفلسفة جديدة تبشر بالقوة والتفاؤل والنماء .

تلك هى فلسفة الذات ، وهى تعتمد على الاعتقاد بأن « الذات » أو الشخصية شيء ذو وجود حقيقي وليست وهما من أوهام العقول ، فلهذا عارض اقبال أقوال « برادلي » وغيره من أتباع الفيلسوف « هيجل » ، أولئك الذين ينكرون وجود الفرد ولا يسلمون الا بالمطلق . كما عارض شطحات الشعراء من الصوفية ، لأنه كان يرى انتشار آرائهم من أسباب الانحطاط المتفشي في بلاد الاسلام .

ومجمل مذهب محمد اقبال فى الذات ، أن الحياة كلها فردية ، وأنه لا وجود لما يسميه فلاسفة المطلق « الحياة الكلية » ، وأن الله نفسه فرد الأفراد في نظر اقبال . ويسلم الفيلسوف بما يقوله « ماك تاجرت » من أن الكون ان هو إلا ارتباط بين أفراد . ولكنه يضيف الى ذلك أن النظام الذي نجده في هذا الارتباط ليس نظاما قد تم من ذاته أو تحقق منذ الأزل ، وانما هو نتيجة جهاد غريزى ودأب واع متواصل ونحن نسير على التدرج من التشتت والاضطراب الى الوحدة والنظام ، ونحن أعوان على تحقيق الوحدة والنظام فى العالم . فالكون ليس عملا قد تم وليس شيئا قد فرغ منه ، بل انه صائر دائما ، وانه فى طريق التكوين . وعملية الخلق مستمرة لم تزل ، والانسان هو أيضا يسهم فيها ما دام يشارك فى اقامة شيء من النظام ، على الأقل في شطر من الاضطراب . ويردد اقبال قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وظاهر أن هذه النظرة عن الكون والانسان معارضة لنظرات أتباع « هيجل » من المحدثين ، كما أنها مناقضة لجميع صور الصوفية النازعة الى القول بوحدة الوجود ، التى تعتبر الهدف الأقصى للانسان الفناء فى الحياة الكلية ، وترى أن نجاة النفس الانسانية فناؤها فى النفس الكلية .

والمثل الأعلى للانسان فى نظر اقبال ليس هو سلب الذات بل اثباتها وتوكيدها . ويقترب الانسان من تحقيق هذا المثل بازدياد فرديته

ووحدانيته . وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « تخلقوا بأخلاق الله » ؛ أى تشبهوا به فى صفاته . ومن أجل هذا يصبح الانسان واحدا اذا تشبه بالواحد الأحد تعالى .

وما الحياة اذن ؟ انها فردية . وأعلى صورها هى الذات ، والشخص الأتم وجودا هو الذى تزيد فرديته فتقل المسافة بينه وبين الله . وكذلك المؤمن — وهو الفرد الحقيقى — لا يمكن أن يتوه فى العالم وانما العالم يتوه فيه .

انمـــا الـكافر حـيرا ن له الآفــــاق تيـــه
وارى المـــؤمن كـــو نا تاهت الآفـــاق فيـــه

والحياة حركة دائمة جوهرها استمرار خلق الرغبات والمثل العليا . وأكبر عقبة تعترض طريق الحياة هى المادة والطبيعة ، ومع ذلك فليست المادة شرا ، وانما هى وسيلة لابراز ما فى الحياة من قوى كامنة . وتصل الذات الى التحرر والانطلاق بازالة جميع العوائق التى تعترض سبيلها . انها حرة من وجه ، ومقيدة من وجه آخر . وهى تصل الى حرية أتم وأكمل اذا اقتربت من الفرد الأعلى الذى هو مبرأ من كل قيد وهو الله سبحانه وتعالى . ويمكن أن يقال بالاجمال ، ان الحياة سعى دائب الى الحرية والانطلاق .

والشخصية عند اقبال حال فريدة من التجلد والجهد أمام المكاره ، ويقابلها الميوعة والرخاوة وهو يقول :

ونفســــك فاشحـــذن فى كل آن وعش أمضى من الســـيف اليمانى

ويقـول :

ففى الأخطـــار للهمم اختبـــار لأرواح وأجســـاد عيـــــار

ولما كانت الشخصية بهذا المعنى هى أثمن ما يحققه الانسان ، فقد وجب عليه أن يدأب على الصمود للأحداث وركوب الأخطار وتجنب مزالق التواكل والاسترخاء . وكل ما ينزع بنا الى السعى ، وضبط النفس

ومغالبة العوائق والصعاب ، انما ييسر لنا الانخراط فى سلك الحياة الخالدة وهو يقول :

اذا صانت الذات المتينة نفسها   أعيت على الأيام كل ممات

ويقول اقبال أيضا : « تنص كلمات القرآن على أن الكون الذى يواجهنا غير باطل ، ان له منافع كثيرة . وأهم نفع له أن الجهود المبذولة للتغلب على الصعاب فيه تشحذ بصيرتنا ، وتعدنا للنفوذ الى ما هو تحت سطح الظاهرات » . وبفضل هذه العقبات ، تستطيع الذات الانسانية أن تحقق « انيتها » وامكاناتها اللامتناهية .

وفكرة الشخصية عند اقبال تعطينا معيارا للقيم فى الفن والدين والأخلاق ، كما تعطينا مقياسا للخير والشر : فكل ما يقوى الشخصية خير وكل ما يضعفها شر . ومن هذا الوجه يشيد اقبال بفلسفة « اسبينوزا » اذ جعل شعارها الفرح بالحياة ، وينتقد فلسفة أفلاطون ، لأنه جعل الموت هو المطلب الأسمى الذى ينبغى أن يسعى الانسان اليه ، ولأنه قد تجاهل أكبر عائق فى طريق الحياة ، وهو المادة ، ودعانا الى الفرار منها بدلا من التغلب عليها .

وقوة الذات فيما يسميه اقبال : « العشق » ، ويعنى به الحماسة والرغبة فى العمل الخلاق . وأعلى صور العشق عنده هو خلق القيم وانشاء المثل العليا والسعى الدائب الى تحقيقها .. وكما أن العشق يقوى الذات فالسؤال يضعفها ويوهنها . و «السؤال» ها هنا هو الخمود وقصور الهمة والقعود عن العمل :

جدة الدنيا بتجديد الفكر   ليست الدنيا بصخر ومدر
همة الغائص فى « الذات » لها   من غدير الماء بحر قد زخر
قاهر الأيام من أنفاسه   هى أعمار خلود فى الدهر

وأعلى مراتب الذات هى المرتبة التى تصل فيها الشخصية الى الانسجام بين قواها وملكاتها جميعا ، فيصبح النوم محرما عليها ، وتصبح

[illegible] العقل والقلب ، بين العلم والدين ، بين [illegible]
وبين الفكر والعمل : هذه مرتبة الانسان الكامل الذى تنتظره الانسانية

والخلاصة ، ان تحلى الذات فى فلسفة اقبال هو جوهر الكون ومقصد الحياة [illegible]

على كل غصن تبين أن النبات مشوق لرحب الفضاء
فما قر فى ظلمة الترب حب جنون النشوء به والنماء
فلا تبغ فى فطرة ترك سعى فما ذاك معنى الرضا بالقضاء

وقد عبر اقبال تعبيرا جميلا عن لب هذه النظرية فى الذات بقوله :
[illegible] النغمة التى فى قرار فطرتك ، يا غافلا عن نغمتك أحلها من نغمات غيرك [illegible]

النزعة الانسانية والعالمية عند اقبال

« ... يا ضياء الانسانية والاخاء ، طارد بقوتك ظلام البغضاء حتى تزول عن أنفسنا الشكوك والوساوس ، عسى أن تشاهد الأمم مرة أخرى وجه السعادة التى اختفت خلف مطامع المتحاربين » .

هذا بعض ما قاله « اقبال » حينما كان يحلم بعالم تسوده المحبة والاخاء وتتحطم فيه — كما أسلفنا — حواجز الدم واللون والجنس ، وتنتهى أحقاد الطبقات التى لا تقوم الا على مشاعر البغض والتناحر والاستبداد .. لقد كان يهفو الى عالم نظيف قد هجعت فيه الحروب واستكانت المطامع الحمراء ونامت الأهواء الكافرة ..

ونظر « اقبال » بعين الحقيقة والواقع الى العالم الحديث ، فبدت له أمراضه واضحة كالشمس .. فكان أول ما راود ذهنه أن ينقذ البشرية مما دهاه ، لذا وضع فلسفته الخالدة التى ارتآها لأنها وقود الخلاص [illegible] الانسانى ، والهادى [illegible] الى طريق السعادة والهناء ..

وقد التزم فى فلسفته جادة الاسلام ، واتخذها سبيلا الى الحرية بعد أن درس وبحث وفكر وعاش فى خضم الحضارات المختلفة والمدنيات المتعاقبة بقلبه وفكره ، فتيقن أنه لا خلاص للعالم الا بدواء الإسلام بروحانيته وماديته ، كما رأي « برناردشو » و « تولستوى » وغيرهما من فلاسفة الغرب مثل هذا الرأى ..

ولم يشغل تفكير « اقبال » قضايا العالم الاسلامى والعالم العربى فحسب ، بل تناول كل ما يشغل أذهان العالم من مشاكل : فتحدث عن عصبة الأمم ، وعن هؤلاء الذين يعبثون بقدسيتها ويسخرونها لأهوائهم حتى انه كان من أول المتنبئين لها بالتمزق والفشل لبعد نظره السياسى ، وناقش نظريات الحكم المختلفة ، وواجه « موسولينى » برأيه فى قوة وحزم وبسط له تبلبل الأفكار فى الأمة الإيطاليــة ، ومغزى الحكم الدكتاتورى ، وتنبأ أيضا بانهيار ايطاليا السياسى عن قريب ، وقد حدث ما توقعه ابان الحرب العالمية الثانية .

وضرب اقبال بسهم وافر فى شرح المذاهب العالمية وماهيتها ، شأن العالم المتبصر الخبير ..

وكثيرا ما ترى فى شعره صورة لصراع الحبشة من أجل التحرير ، وثورات الشام وهى تناوىء الأستعمار ، وتمرد الهند وهى تدفع الغزاة ، وتحذيره الصهاينة وهم يحيكون الألاعيب والمؤامرات ، وخطط سماسرة السياسة ومستغلى الشعوب الذين يبيعون أنفسهم وضمائرهم للشيطان .

لقد كان نصيرا لقضايا الحرية فى كل مكان فى الشرق والغرب .. وكان غيورا على الأخلاق ثائرا على ضياعها عند الغربيين المنحلين المارقين أو الشرقيين الجامدين الخانعين ..

وكم كان حزن أقبال أليما حينما طلقت تركيا اســـلامها ، وقضى « كمـــال أتاتورك » على الخـــلافة الاســـلامية وعلى صلة تركيا بالعرب وقذف بنفسه فى أحضان الغرب بلا تحفظ ، ولكم نعى على « رضا بهلوى » فى ايران سياسته المتعجرفة التى تؤمن بكل ما يأتى به الغرب ، وكان

« اقبال » يظن أن أمثال هذه الحركات فى « تركيا » و « ايران » وغيرهما ليست الا خبط عشواء ، والتباس أفكار ومركب نقص ، وايمانا مطلقا بروعة المدنية الحديثة على علاتها ·· وكان يعتقد أن حركة البعث الحقيقية هى يوم أن يهب المسلمون من غفلتهم ، وينشروا نور مبادئهم وحضارتهم العريقة ويجوبوا ميادين العلم والكفاح فى همة ونشاط ···

و « اقبال » يرى أن حكم الشعوب يجب أن تسيره الفئة الفاهمة الواعية والتى لها من نضوجها وايمانها عاصم من الزلل والميل · لهذا فهو يأخذ على النظام « الجماهيرى » أنه لا يزن الرجال الوزن الحقيقى ، بل يعتمد على العـــدد لا القيم الشخصية ، وبمعنى آخـــر قوامه « الكم » لا « الكيف » ·· واقبال بهذا يرى أنه من الأوفق والأرجح أن يكون للفئات ذات الكفاية المرموقة كلمتها ورأيها ، كما كان فى صدر الاسلام بالنسبة لأهل « الحل والعقد » ، لذا يقول « اقبال » :

نظام الجماهير حـــكم بـــه تعد العبـــاد ولا توزن

ومع ذلك « فاقبال » يحترم رأى الأغلبية ، ويسير على رأى الجماعة لأنه صاحب نظرة ديمقراطية سليمة · وفى الوقت نفسه صاحب وجهة نظر ترفع من قيمة الانسان وتقدر كفاءته ومواهبه الشخصية ···

و « اقبال » لا يفتأ يردد الشـــكوى من طغاة العـــالم الذين يذيقون الشـــعوب الضعيفة الويلات ، ويبكى من أجل الســـلام الضـــائع والقوة الغاشمة التي لا قلب لها ولا ضمير ! ··

كم أصاب الانسان فى هذه الأ رض من اسكندر ومن جنكيز
ويقول التـــاريخ فى كل عصر خطـــر فـــرط قـــوة لعـــزيز
وهى سـم بغير دين ، وبالديـ ن دواء لكل ســـم نجيز

وهكذا ظل « اقبـــال » طوال حياته يحارب السياسة اللادينية فى « روسيا » و « تركيا » و « أوربا » وفى أى مكان، لأى « الميكيافيللية» ليست كما يرى من الاسلام··ويعتقد أيضا أن السياسة اللادينية ستورد الانسان

موارد التهلكة والدمار وتسلبه أسمى ما يعتز به من مشاعر وتقاليد وعقائد ..

ما الحق مخف عن فؤادى سره
فلقد حبانى الله قلبا مبصرا
فسياسة اللادين عندى خسة
مات الضمير بها وابليس افترى
لما قلى حكم الفرنج كنيسة
ساسوا كشيطان بلا قيد جرى
شرهت لأموال العباد كنيسة
فاذا الخسيس سفيرها بين الورى

فالاستعمار أنى حط رحاله ، وحيثما ألقى بعصاه ، يأخذ أكثر مما يعطى ويهدم أكثر مما يبنى ، ويفسد أكثر مما يصلح ، لأنه يأبى الا أن يظل محتفظا بصولجانه متمتعا بسلطانه حائزا على أسباب الثراء والنفوذ ! ..

لقد كان « اقبال » ينشد البعث لأمم الأرض قاطبة ، ولا يرجوه للمسلمين فحسب ، فحال أوربا فى نظره لا ترضى وخطتها منحرفة وكذلك حال الشرق لا تسر ..

علة الشرق ذلة واقتداء ونظام الجمهور فى الغرب داء
مرض القلب والبصيرة فاش ما بشرق ولا بغرب شفاء

فكان لا مناص من أن تتسع رقعة فلسفته فتشمل القاصى والدانى ، وتتناسى الألوان والأجناس وعناصر التفرقة ، فكلهم فى نظره يحتاج الى رعاية وعلاج وصحوة ، سواء فى ذلك الغاصب والمغصوب . وازاء ذلك كان لا يفتأ يصرخ بنزعته الانسانية العامة التى لا تعرف التعصب ، فلا هو بهندى ولا عربى ولا شرقى ولا غربى ، انه انسان وكفى ، وبشر يؤمن « بذاته » وانسانيته .. فقد علمته فلسفته الذاتية أن يحلق فوق مستوى الأهواء والتفرقات :

الى عصبيات العرب ما أنا منهم ولست بهندى ولا أنا اعجمى
فقد علمتنى (الذات) تحليق نافر يمر على الدارين غير مخذوم
فدينك تعداد لأنفاس محجم ودينى احراق لأنفاس مقدم

ومع احساس اقبال بهذه النزعة العالمية ، فهو يرى أنه هندى أعجمى بحكم المولد والنشأة فيقول : وماذا فى ذلك ؟ اذا كنت هنديا فى انغامى فالى عدنانى ، الصوت متكلم حنيفى ، واذا كانت كأسى من صنع الأعاجم ، فان خمرتها حجازية المنبع ، وأفكارى مستمدة من النبى العربى ، وهل الاسلام الا دين الله فى الأرض ووصيته الاخيرة الى الناس عامة ، وقد انضوى تحت لوائه الطورانى والسامانى .. والشرقى والغربى :

و أنا أعجمى الدن لكن خمرتى صنع الحجاز وكرمها الفينان
ان كان لى نغم الهنود ولحنهم لكن هذا الصوت من عدنان

ولقد توارد فى شعر « اقبال » أسماء الأعلام من أئمة الفكر والحرب والدين والسياسة فى شتى العصور والبقاع ، فكان شعره موسوعة لهؤلاء جميعا .. تحدث عن « محمد » (ﷺ) و « عيسى » و « جنكيز » و « الاسكندر » و « نيتشه » و « أفلاطون » و « ابن الرومى » و « ابن سينا » ، واحنى رأسه اعجابا « بعلى » و « عمر » و « أبى ذر » ، وتحدث عن الفلاسفة والصوفية والملحدين والمؤمنين .. كل ذلك لأنه كان انسانا يعيش بكل ذرة من كيانه ، فشعر اقبال سجل حافل للأحداث التاريخية والسياسة العالمية وسفر جليل لماضى الاسلام وحاضره ..

مؤلفاته ورسائله

وكان أول كتاب ألفه هو (علم الاقتصاد) وكتبه باللغة الأردية فى عام ١٩٠٣ . وكان باكورة أعماله الشعرية (أسرار خودى) عام ١٩١٥ ، ثم تبع ذلك ب (رموز خودى) فى عام ١٩١٧ . وظهر ديوانه (بيام

مشرق) فى عـام ١٩٢٣ ، و (زبور عجـم) فى ١٩٢٧ ، و (جاويد نامه) فى عام ١٩٣٢ ، و (باس جيه بايد كرد / أى اقوام شرق) فى عام ١٩٣٦ ، و (ارمغان حجاز) فى عام ١٩٣٨ ، وكانت هذه الكتب كافة باللغة الفارسية • وطبع الكتاب الأخير بعد وفاة العلامه اقبال •

وطبع أول كتاب ألفـه العلامة محمد اقبال باللغة الأردية وهو بنغ دارِه) فى عام ١٩٢٤ ، ثم طبع كتاب (بال جبريل) فى عام ١٩٣٥ م ، وأعقب ذلك (ضرب كلام) فى عام ١٩٣٦ •• ويتكون (بنغ داره) من مجموعة من القصائد الأردية تعود الى الأطوار الثلاثة لحياة العلامة اقبال الشعرية • أما كتاب (بال جبريل) ، فانه يعتبر ذروة شعر اقبال الذى وضعه باللغة الأردية • ويتكون الكتاب من القصائد الغزلية والرباعيات والقصائد المختتمة بالأفكار الرائعة الخ • أما (ضرب كلام) ، فقد وصفه اقبال بنفسـه بأنه عبارة عن اعـلان حالة الحرب على الفترة الحالية (١٩٣٦) •

وكتب العلامة اقبال كتابين باللغة الانجليزية • كان الكتاب الأول بعنوان : (تطوير ما وراء الطبيعيات فى فارس) حيث ناقش فيه استمرارية الفكر الفارسى ، وعالج فيه التصوف بالتفصيل • ان مفهوم الصوفية عند اقبال هو انها تسـاعد على ايقاظ الروح وتجليها الى أعلى المستويات فى الحياة • أما الكتاب الثانى فهو (احياء الفكر الدينى فى الاسلام) ، وهو عبـارة عن كتاب يضـم ٦ محاضرات ألقاهـا العـلامة اقبال فى مدارس (حيدر أباد) . ان بعض الأفكار الرئيسية لمحاضرات اقبال الست هى : المعرفة والخبرة الدينية والاختبار الفلسفى للخبرة الدينية و مبـدأ الله ومعنى الصلاة والأنا الانسانية والجبر والاختيار وروح التراث الاسلامى ومبادىء الحركة فى الاسلام (الاجتهاد) • وقد ناقش تلك الأفكار بالتفصيل على ضوء الاسلام والفلسفة الحديثـة ، مما أدى الى فتح مجالات جديدة للدراسات الاسلامية لمفكرى العصر الحديث •

وبالاضافة الى هذه الكتب ، كتب العلامة اقبال المئات من الرسائل باللغة الأردية وباللغة الانجليزية أيضا • وقد طبعت رسائله التى كتبها

باللغة الأردية بتسع كتب مختلفة . وأدلى ببيانات حول قضايا الساعة المتعلقة بالمجالات الدينية والاجتماعية والثقـافية للهند وأوروبا والعالم الاسلامى . وعمل لبضع سنوات أستاذا للفلسفة والعلوم الشرقية فى الكلية الحكوميـــة بلاهور (الكلية الشرقية فى جامعة البنجاب) والقى العديد من الخطب فى حيـاته ومارس المحاماة فى محكمة لاهور العليـا ما عدا فى السنوات الأربع الأخيرة من حياته ، وكان يقابل الزائرين بكل حرية وكان بوسع كل فرد المجىء اليه والاستماع لما يقوله . وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كان يجد وقتا للشـعر حيث ان شعره ملىء بالمعنى ، ومفعم بالأساوبى الأدبى ، وفى الواقع ان شعره جعل الفلسفة موسيقية النغمة .

موضوع رسـالة الخلود

ودور الشاعر الفيلسوف محمد اقبال فى اثراء الحضارة الاسلامية والكشف عن جوهرها وتجليته للناس فى اثبات أصالة الفكر الاسلامى ومقدرته على تخليص البشرية والانسان المعاصر من المشاكل التى يرزح تحت وطأتها ، وفى النهوض بالبشرية من الكبوة التى تردت فيها بفعل الاستعمار الغربى ، وبفعل الاهتمام بالمادة وحدها على حساب الروح .. كل ذلك من الوضوح بصورة لا تحتاج الى المزيد ، والذى نهدف اليه هنا هو لفت نظر القارىء الى ذلك الكتاب البالغ الأهمية (وان شئت قل : واسطة العقد فى كتب « اقبال » جميعها) ، ألا هو كتابه « الخلود » .

لقد بدأت مصر والعالم العربى معها تعرف «اقبال» منذ الثلاثينيات من القرن الحالى ، وذلك من خلال ترجمـــة لبعض دواوينه وأشعاره الى اللغة العربية ، ومن خلال دراسة لبعض شعره وتقديم شىء من فكره ، مع جوانب من سيرته قام بها المرحوم الدكتـــور « عبد الوهاب عزام » . لكن ما ترجمه الدكتور « عزام » لم يكن كافيا لتقديم مذهب « اقبال » ولا لشرح أفكاره بصورة كاملة ، أضف الى هذا أن حرصه على ترجمة الشعر

الفارسى الى أبيات عربية منظومة أوقعه فى غموض وأفقد الشعر رونقه وبهاءه . وذهب بتأثيره فى النفوس العربية . مما حدا بالعلامة الأستاذ « أبى الحسن الندوى » أن يختار من دواوين « اقبال » مقتطعات تقرب فلسفته وأسلوبه من قراء اللغة العربية ، وبعد ذلك اضطلع الشيخ « الصاوى شعلان » بمهمة التعريف بشاعرنا وبقريحته (ولكن فى ميدان الشعر حيث قدم الكثير فى هذا المجال) وما لبث « اقبال » أن عرف فى العالم العربى ، وتوالت احتفالات الهيئات العلمية والدينية به واهتماماتها باحياء ذكراه فى صورة بحوث وكلمات يلقيها كبار المفكرين من هنا ومن هناك .

ومع ذلك ، فقد اعتمد كل الدارسين على كتابين اثنين لم يتعدوهما الى غيرهما فى كل ما قدموه عن ذلك الفيلسوف الكبير .. هذان الكتابان هما :

١ ـ محمد اقبال تأليف الدكتور عبد الوهاب عزام .

٢ ـ تجديد الفكر الدينى فى الاسلام وهو كتاب ألفه « اقبال » نفسه باللغة الانجليزية وترجم الى العربية .

ومع أن هذين الكتابين لم يتضمنا غير نظرية « الذاتية » فقط من بين النظام الفلسفى الكامل لاقبال ، ومع أنه هو نفسه اعترف بأن هذين الكتابين لم يتضمنا سوى عرض لفكره وآرائه بصورة عقلية لاتخلو من غموض وتعقيد ، فان أحدا لم يحاول تقديم جوانب جديدة فى صرحه الفلسفى من خلال كتب جديدة ، ولو حدث ذلك لما أخذ عليه مفكرون آراء سبق له الرجوع عنها فى مؤلفات لاحقة .. فقد كان الرجل يتمتع بشجاعة فائقة ، وما كان يستنكف العدول عن بعض أفكاره اذا تبين له أن الصواب جانبه فيها . ولقد استمر وضع « اقبال » على الصورة التى عرضنا لها فى البلاد العربية حتى قام مؤخرا الدكتور « محمد السعيد

جمال الدين » بترجمة رائعة مع دراسة جادة وعميقة لمنظومة « اقبال » المسماة « جاويد نامه » أو « رسالة الخلود » ٠

ان « جاويد نامه » هى الرسالة التى تجمع شتات أفكار فيلسوف الاسلام المعاصر وتتضمن كل آرائه بعد أن نضجت واكتمل عودها ، وتبلورت ، وقد اتخذ شاعرنا موضوع « المعراج » وسيلة أو أسلوبا قدم من خلاله فكره وفلسفته ٠ ويرجع ايمان اقبال بهذا الأسلوب ــ أسلوب المعراج ــ الى الأيام الأولى فى فترة صباه ٠ فقد نظم آنئذ قصيدة عنوانها « القصيدة المعراجية » باللغة الأردية عبر فيها عن قيمة المعراج النبوى ، وكيف أنه حل عقد الحياة ، فقد اكتسب النبى (ﷺ) فيه الصفات الالهية ٠ وقد قرر « اقبال » فى تلك القصيدة أن العشق الالهى الحقيقى يتمثل فى ادراك النفس الانسانية امكانية قربها من الله تعالى حتى لتكون منه قاب قوسين أو أدنى ٠٠ ففى المعراج التخلص من عقدتى الزمان والمكان، وتحرر النفس الانسانية من أسرهما ، اذا هى آمنت بالله حق الايمان واقتدت بالنبى صلوات الله وسلامه عليه ، واذا حدث ذلك فان حقيقة الذات الانسانية تتأثر وتصبح قادرة على الرقى الروحى والوصول الى أعلى الدرجات ، ولكن ينبغى أن يكون واضحا أن مقدرة النفس الانسانية على تحقيق ذلك ، انما هى رهن بشىء واحد هو التطلع الدائب الى الرقى وعدم ربط القلب الا بالله ٠ وبالله وحده ٠

استرعى موضوع تلك الرسالة أنظار الباحثين من المستشرقين ، فترجموها الى الايطالية والألمانية والفرنسية والانجليزية فى الخمسينيات من القرن الحالى٠ ثم ترجمت الى لغات شرقية فى زمن متأخر نسبيا ، وكان وحدة موضوع الرسالة وطول نفسها وتكامل عناصرها هو السر وراء الاهتمام بتلك الرسالة شرقا وغربا ، انها قصة متناسقة الأجزاء متواصلة الفصول وتهدف فى نهاية الأمر الى غاية واحدة ٠

ويبدأ الفيلسوف الكبير معراجه بدعاء يعبر عن الاحساس العميق بغربة الانسان فى ذلك الوجود ٠ ذلك الانسان المقيد بحدود الزمان

والمكان ، ولا يجد الفيلسوف بدا من الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى ، طالبا منه أن يخلصه من هذين القيدين ، ليتسنى له الاتجاه الى هدفه المتمثل فى القرب من الله سبحانه والتجلى أمام الذات الالهية ، ذلك فوق رغبته فى الخلود والتخلص من تراب هذه الأرض ·

ويستمر « اقبال » فى مناجاته ربه الى أن يلفه الليل بظلامه · وهنا تبدأ روح الشاعر الفارسى الكبير « جلال الدين الرومى » فى الظهور شيئا فشيئا ، ويدور بينه وبين شاعرنا حوار يشرح « الرومى » خلاله حقيقة المعراج بقوله : « ان المؤمن لا يرضى الا بالذات الالهية نفسها · فلقد ترك الرسول ﷺ السكون وما وراء الكون واتجه الى الله وحده » · وعلى الفور نرى اقبالا يتوق الى تحقيق تلك الرحلة المعراجية فيأتيه ملك يخلصه من أثقال الزمان والمكان وتحدث له خفة ورشاقة يبدأ بعدها رحلته من الأرض متجها أول ما اتجه الى فلك « القمر » بصحبة « الرومى » · وهنا يقدم « اقبال » وصفا رائعا لمشاهداته فى ذلك المكان ، ويحدثنا عن جباله الجرداء ، ثم يمضى فيه مع مرشده حتى يصلا الى « وادى الطواسين » ، وهناك يجدان صخرات أربعا كتبت عليها التعاليم الأساسية لدستور الأخلاق عند « بوذا وزرادشت والمسيح ومحمد » عليهما السلام · ومن خلال عرضه للجانب الأخلاقى عند هؤلاء ·· يعطينا رأيه فيما يتصل بالتطور الانسانى ، ويبين لنا كيف قامت النبوة بدور رئيسى فى توجيه التاريخ البشرى ، مقدما نظريته فى التفسير الروحى للتاريخ فى مقابل رأى أصحاب نظرية التفسير المادى لذلك التاريخ ·

وفى المرحلة الثانية يهبط « اقبال » مع « الرومى » فى فلك « عطارد » ويلتقيان باثنين من كبار المسلمين المصلحين هما « جمال الدين الأفغانى » « وسعيد حليم باشا » ويشكو لهما « اقبال » من تفرق المسلمين ، وضعف ايمانهم ، ومن الاستعمار والشيوعية اللذين ينخران عظام المجتمع المسلم وهنا يتحدث « الأفغانى » عن الوطنية الضيقة وما تجلبه من ضرر ، كما يلقى مزيدا من الضوء على انحرافات الشيوعية والاستعمار ، ثم يتحدث

المصلح التركى « حليم باشا » فيهاجم الحركة الكماليـة فى « تركيا » ، ويتوجه بحديث الى الأتراك قائلا : « ان المسلم عليه أن ينظر فى نفسه ثم القرآن اذا أراد خلق عالم جديد » • وعندما يشكو « اقبال » من عدم معرفة المسلمين لعالم القرآن مع تداول الكتاب الكريم بينهم يأتيه الجواب من « الأفغانى » موضحا أن الأعمدة التى يقوم عليها القرآن هى :

١ ــ الانسان خليفة الله فى أرضه •

٢ ــ الحكومة الالهية هى التفسير لقوله تعالى : «ان الحكم الا لله» •

٣ ــ الأرض ملك الله •

٤ ــ الحكمة خير كثير •

ثم يتساءل الفيلسـوف « اقبال » : كيف يمكن لموتى النفوس من مسلمى اليوم ، وكيف يتصور من أصحاب القلوب الخربة الآن ، احياء ذلك العالم الناصع البياض ــ عالم القرآن ؟ •• فينبرى « سعيد حليم » للرد عليه مؤكدا أن ذلك ممكن بشرط تحرير الروح المبدعة فى المسـلم من كل ما يقيدها : ذلك « أن القرآن ينطوى على عوالم لانهائية ، ويبقى عالم فى نفس المؤمن فيمنحه القـرآن عالما آخـر جديدا يمنحه عالما له نفس المحكمات ، ولكن صورته متغيرة متجددة أبدا » •

ومن فلك « عطارد » هذا يوجه الفيلسوف « جمال الدين الأفغانى » رسالة إلى « الروس » يدعوهم فيها الى الايمان بالله تعـالى ويبكى مع « الرومى » حاضر الأمة الاسلامية ، وأخيرا ينشد « اقبال » قصيدة يبين فيها للمجتمع المسـلم طريقة التخلص من مشاكله : أن يؤمن بالقـرآن ويبحث فيه من جديد عندئذ ستتفتح عيونه على عوالم أخرى جديدة خليقة بأن يحياها الانسان •

ويواصل الفيلسوف الاسلامى الكبير معراجه فتصل به المسيرة الى فلك « الزهرة » ، وهو الكوكب الذى يضم الأصنام والآلهة ومعبودات الأمم القديمة ، وقد شاهدها فى حالة سرور وبهجة بسبب فرار الانسان من

طريق الله واتجاهه لعبادة المحسوس والماديات ، وينطق لسان واحد من هذه الآلهة شاكرا فضل المستشرقين المستعمرين الذين أثمرت بذور تشكيكهم الحادا ، ويعلن ابتهاجه فقد أطبقت الجاهلية الحديثة على العالم ، وتحطمت وحدة المسلمين ، وهنا يطالب « الرومى » باعادة النظر فى الماضى والمستقبل ، فهيا انهض أيها المسلم وتخل عن هذا العقليد الأعمى والجمود ، فلابد من تبديل الفكر من الأعماق » ٠ وفى فلك « الزهرة » هذا يلتقى اقبال بعدوين لله والدين يعيشان فى حالة سيئة هما « فرعون وكتشنر » ٠ وفى هذا الموقف يحاول « كتشنر » الدفاع عن تنقيب « الانجليز » لقبور الفراعنة فيقول ان ذلك لم يكن جريا وراء الذهب والجواهر وانما طلبا للعلم والحكمة حتى يتسنى كتابة تاريخ مصر والعالم القديم من جديد ، ولكن سخرية فرعون تاتيه هنا حين يسأله : ولكن ما رأيك فى تربة المهدى ؟ مشيرا بذلك الى نبش « كتشنر » لقبر « المهدى » عندما ذهب لاخماد الثورة المهدية فى السودان سنة ١٨٩٨ م ، وهنا تظهر روح « المهدى » فتدعو العالم الاسلامى الى التيقظ والعمل وتقول : « الى متى تظلون أسارى الفرقة والتشتت ، لقد آن الآوان لاحياء حرقة المحبة الالهية فى القلوب ٠ يا أرض الحجاز ألا فلتنجبى « خالدا » آخر ، ألا فلتنشدى لحن التوحيد من جديد » ٠

المدينة الاسلامية الفاضلة

ثم يتقدم الشاعر « اقبال » مرحلة أخرى فى معراجه حتى ينتهى الى فلك « المريخ » ، وفى ذلك الفلك يعطينا تصوره للمدينة الفاضلة الاسلامية : مدينة تتخلق بخلق المصطفى (ﷺ) وتطبق الشريعة الاسلامية بكافة حذافيرها ، وبعد ذلك يأتى دور فلك « المشترى » حيث يلتقى الفيلسوف الكبير بأرواح ثلاث شخصيات هى « الحلاج » ، وشاعر هندى يسمى « غالب » ، وشاعرة من معتنقى المذهب وتسمى « قرة العين » ، وهى ايرانية الجنسية من أتباع المذهب البابى ، وقد حركت أناشيد هؤلاء الثلاثة نفس « اقبال » ، فأخذ يعرض عليهم مشاكله ويتوجه

بالقسم الأكبر منها الى « الحلاج » ويناقشه فى الحقيقة المحمدية وفى قولته « أنا الحق » ، وينتهى الى أنها كانت تعبيرا عن الجانب الالهى فى النفس الانسانية ٠ ثم يظهر « ابليس » ويبدى شـكواه من أن الانسان المعاصر لم يعد جديرا بخصومته ، ويدعو الله أن يهبه خصما جديرا بالمنازلة ٠ بعد ذلك يمضى « اقبال » مع مرشده « الرومى » الى فلك « زحـــل » موطن الأرواح الرذلة التى خانت شعبها وأوطانها ، وهنا ينصحه « الرومى » الا يهبط على هذا الكوكب فعليه يتنزل سخط الله وعذابه فى كل لحظة ، وفى هذا الموطن تنتهى مرحلة الأفلاك فى معـراج « اقبال » لتبدأ بعدها مرحلة ما بعد الأفلاك ، حيث يمضى الرفيقان الى أن يصلا الى جنة الفردوس فيصفاها مع ما فيها من عوالم وقصور ويتقابلان فيها مع الزاهدة الهندية « شرف النساء » التى كانت تحرص على الجمع بين المصحف والسيف فى حياتها كلها ، كما يلتقيان مع الملك الايرانى « نادرشاه » فيقدم « اقبال » — خلال حوار معه — نقدا للنزعات الانفصالية أو الوطنية التى عمت العالم الاسلامى ٠ بعد ذلك يلتقيان « بأحمد الابدالى » مؤسس دولة «أفغانستان» الحديثة ، الذى يهاجم بعنف اتجاه المســـلمين نحو تقليد الغرب فى سفاسف الأمور ، وكان اللقاء الأخير مع ملك الهند السلطـــان الشهيد « تيبو » ٠

بعد ذلك كله يتوجه « اقبال » الى الحضرة الالهية ، وتثور فى نفسه تساؤلات يخط القلم الالهى ردا عليها فى قلب شاعرنا ، وكلها تدور حول اصلاح العالم الاسلامى . وأخيرا ، ينتهى معراج « اقبال » على صوت يأمره بالعودة الى الأرض لكن بعد أن حصل على زاد يوجهه الى طريق الحق والى الرقى الروحى ٠

ويتمثل هذا الزاد فى دعوة على شكل خطاب موجه من الشاعر الى الجيل الجديد يشرح فيـه مفهـوم التوحيد ، ويتحدث عن افلاس المسلمين المعاصرين — والشباب منهم خاصـة — وينصح هؤلاء أن يربطوا قلوبهم بالله وحده ، ويحذرهم من اليأس بسبب الحقد والنفاق الذى يرونه فى المسلمين المعاصرين ٠

وهكذا يتضح أن الشاعر الباكستانى قد عالج فى معراجه أو فى كتابه هذا ، كثيرا من القضايا المهمة : تربوية وسياسية واجتمـاعية واقتصادية للدرجة التى جعلت بعض المستشرقين يقول عن رسالة الخلود : « فى كل شطرة يشعرنا الشاعر أنه يملك شيئا ليقوله ، وقد بدت ثقافته الاسلاميـة فيها عميقة وشاملة ، وفيها يرى أنه لا أسلوب التصوفى فى العصور الوسطى ، ولا القوميـــة والالحادية بقادرة على أن تشفى علل الانسانية البائسة ٠٠ فقد كان الرجل مصلحا يرى فى الاسلام العلاج الناجع لآلام البشرية ، والمتنفس السليم لامكانات الانسان وطاقاته » ٠

ويبدو جليا مما عرضناه أن الأستاذ « سيد عبد الواحد » ــ عالم باكستان الشهير ــ كان محقا عندما قال : « فى مقدورنا أن نعتبر رسالة الخلود أعظم أعمال « اقبال » ، انها « كوميديا الهية » شرقية ، وقد عبر فيها بروعة عن أفكاره المتعلقة بمختلف القضايا التى تجابه الناس فى حياتهم اليومية ٠ ويقدم اقبال فيها تفسيرا لحقائق الخلود ، ويناقش أكثر القضايا حساسية وتأثيرا بالنسبة للانسانية بطريقة فنية رائعة للغـــاية » ٠

الهـــــوامش

حرب البيلوبونيز

(١) انظر الجزء الثانى ، الصفحة ٩ من موسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » ·

(٢) **الحرب البيلوبونيزية** : (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق·م) صراع مسلح بين أثينا واسبرطة · منشؤه انتصار أثينا للديمقراطية وسيطرتها على امبراطورية واسعة ، بينما كانت اسبرطة تناصر حكم الأقلية « الأوليجاركية » · بدأت الحرب بسبب القرار الذى اتخذته أثينـــا بحرمان ميجارا الاتجار مع الامبراطورية الأثينية ، فاجتمعت العصـــبة البيلوبونيزية فى اسبرطة ، واتهمت أثينا بأنها خرقت صلح الثلاثين عاما ، وأعلنت الحرب عليها · وفى ٣٤١ ق·م غزت اسبرطة أتيكا ، ولكن أثينا كانت محصنة بأسوارها · وفى (٤٣٠ ـ ٤٢٩ ق·م) اجتاح الطاعون أثينا وتسبب فى موت كثير من الأثينيين ومنهم بركليس · ومضت السنوات العشر الأولى من الحرب دون نصر حاسم ، وعندما أخذت قوى الفريقين فى الاضمحلال ، عقد صلح بينهما (٤٢١ ق·م) كان بمثابة هدنة ، وفى هذه الأثناء تقدم صفوف أثينا زعيم جرىء يدعى القبيادس ، وأعد حملة كبيرة لفتح سراقوسة ، ولكنه اتهم بتهمة دينية ، واستدعى للعودة ، ففر الى اسبرطة حيث أذاع سر الحملة ، التى انتهت بكارثة مروعة لأثينا (٤١٣ ق·م) ، الا أنها أحرزت انتصارات بحرية لم تكن حاسمة بنت اسبرطة أسطولا ، وساعدها الفرس فقضت على الأسطول الأثينى (٤٠٥ ق·م) · وأخضعت أثينا ، وأصبحت زعيمة بلاد اليونان زهاء ثلاثين عاما ·

(٣) **السوفسطائيون** : جماعة من الفلاســفة قبل سقراط · كانوا يعلمون البلاغــة والخطابة ، أنكروا امكان الوصول الى حقائق موضوعية ثابتــة ، اذ الحقيقة عندهم ذاتية نسبية باختلاف الأفراد ·

(٤) **بركليس** : (ح ٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق·م) زعيم أثينى من أسرة الكميونيد العريقــة ، عرف باتساع أفقــه وذكائه ، درس على أساتذة ممتازين ، كان هدفه أن يجعل أثينــا زعيمة الحضارة الاغريقية ، وقوة سياسية كبرى · وتحت زعامته شهدت أثينا أزهى عصورها فأصبحت على حد قوله « مدرسة بلاد الاغريق » ·

(٥) **هزيود** : (القرن الثامن ق·م) منشىء الشعر التعليمى عند اليونان ·

الأناباسيس أو حملة قورش

(١) **ديوجينس** (٤١٢ ـ ٣٢٣ ق·م) : فيلسوف يونانى عاش فى أثينا داعيا الى البساطة · ومما يروى عنه أنه كان يجوب الطرقات نهارا حاملا مصباحا ليبحث عن « الانسان » أى الانسان الذى تتمثل فيه الفضائل البشرية الصحيحة ·

(٢) السبب فى نفيه من أثينا انه انضم الى عدوتها اسبرطة .

(٣) انظر الفصل الأول من الكتاب .

(٤) سمى الكبياديس كوثورنوس ، و (كوثورنوس) معناها القبقاب الذى يمكن لبسه فى القدمين .

(٥) **دلفى** : موقع ببلاد اليونان جنوب جبال برناسيوس ترجع شـــهرته الى مراسم كهانة الاغريق التى كانت تجرى فيه والتى بنى لها معبد عظيم فى دلفى وكانت تسكنه كاهنة تدعى بوتيا ، وكانت تنطق بالنبوءات فى لغـــة غير مفهومة ــ على مسمع كاهن يقوم بشرحها ونظمها فى أبيات من الشعر يسهل على الناس فهمها وحفظهـــا .

ملحمة عنترة بن شداد

(١) **المغلس** : السائر فى الغلس وهو ظلمة آخر الليل .

(٢) **الفلحاء** : مؤنث الأفلح . وهو المشقوق الشفة السفلى .

(٣) **جزر السباع** : فريسة السباع .

(٤) **القشعم** : النسر المسن .

(٥) **المطا** : الظهر .

(٦) **الأزرق** : السهم . اللهذم الطويل الحاد .

(٧) **نعق ومخرم** : موضعان .

(٨) **الرهيص** : الثابت فى مكانه .

(٩) **الدغل** : الشجر الكثير الملتف .

(١٠) **سرج وناظرة** : ماءان لبنى عبس .

(١١) **القذى** : ما يقع فى العين فيؤذيها .

برينيس

(١) كورنى : (١٦٠٦ م ــ ١٦٨٤ م) شاعر المأساة الفرنسى .

من مسرحياته « ميديا » و « السيد » . وقد أفل نجم كورنى فى أواخر أيامه عندما تفوق عليه راسين ، وانتزع الشهرة منه .

بــول وفرجينى

(١) **اركاديا** : اقليم يونانى فى العصر القديم كان يسكنه الرعاة وكان مصدر الهام للشعراء الذين صوروه على أنه مقر الطهر والسعادة ، وأصبح الاسم يطلق الآن على المجتمع الوهمى الذى ينعم فيه أهله بالحياة البدائية لا سيما حياة الرعاة .

(٢) **جزيرة « ايل دى فرانس »** : اسمها اليوم جزيرة موريس وتقع شرق مدغشقر .

نقد العقل العملى والنظرى

(١) انظر الصفحة ٢٥٢ من الجزء السادس من موسوعة « كتب غيرت الفكر الانسانى » ·

(٢) كثرت الترجمات العربية لهذه الكلمة ، فاستعملت لها : « المتعالية » و « الجوانية » و « الشـــارطة » و « التحليلية » و « التعمق الى الأصول » ·

الأبطـــال

(١) **هاريت مارتينو** : (١٨٠٢ ـ ١٨٧٦) كاتبة انجليزية · اهتمت بالاصـــلاح الاجتماعى ·

مراجـــع مختـــارة

١ – تاريخ العلم — جـورج سارتون
٢ – رواد الوعى الانسانى — عثمـان أمين
٣ – أدباء العرب — بطرس البستانى
٤ – العلوم عند العرب — قدرى حافظ طوفان
٥ – اعـلام الفن القصصى — هنرى توماس – دانالى توماس
٦ – من اعلام الأدب الفرنسى — د. جلال حسن صادق
٧ – من أعلام الأدب الأوربى — على كامل
٨ – من أعلام الأدب الانجليزى — كامل عبد المجيد – فؤاد فهمى
٩ – سيرة عنترة — د. عبد الحميد يونس
١٠ – البطل المضطهد ، ثأر عنترة — أحمد عباس صالح
١١ – أضواء على السيرة الشعبية — فاروق خورشيد
١٢ – الخالدون العرب — قدرى حافظ طوفان
١٣ – رسالة الخلود — ترجمة د. محمد السعيد جمال الدين
١٤ – قصـة الحضارة — ديورانت
١٥ – الموسوعة الفلسفية ريتشارد شاخت ترجمة د. أحمد حمدى محمود
١٦ – الموسوعة الفلسفية — ترجمة فؤاد كامل وآخرين
١٧ – قصة الأدب فى العالم — د. أحمد أمين
١٨ – محمد اقبـــال — د. عبد الوهاب عزام
١٩ – شخصيات تاريخية من سقراط الى راسبوتين . — على أدهم
٢٠ – الموجز في تاريخ العلوم عند العرب د. محمد عبد الرحمن مرحبا

الفهرس الشامل للأجزاء التسعة
مرتبا ترتيبا زمنيا

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

م	الكتــاب	المؤلف	السنة	لجزء	الصفحه
٢٣	ـ الأناباسيس أو حملة قورش	آكسينوفون	٣٧٠ ق٠م	٩	٣٠
٢٤	ـ خطب ديموستين	ديموستين	٣٦٠ ق٠م	٨	٥٩
٢٥	ـ فن الشعر	أرسطوطاليس	٣٣٥ ق٠م	٢	٣٢
٢٦	ـ أصول الهندسة	آقليدس	٣٠٠ ق٠م	١	٦٣
٢٧	ـ كتاب الجغرافيا	سترابون	٦٥ ق٠م	٧	١١٩
٢٨	ـ عن الصداقة	شيشرون	٤٤ ق٠م	٣	٧١
٢٩	ـ الانيادة	فرجيل	١٧ ق٠م	٤	٢٥
٣٠	ـ مصنفات جالينوس الطبية	جالينوس	١٥٠ ق٠م ـ ٢٠٠ق٠م	٥	٦١
٣١	ـ كليلة ودمنة	ابن المقفع	٧٥٠ م	٣	٩٩
٣٢	ـ العين	الخليل بن أحمد	٧٨٠ م	٣	١٢٣
٣٣	ـ الموطأ	مالك بن أنس	٧٨٥ م	٤	٤٥
٣٤	ـ ديوان أبو نواس	أبو نواس	٧٨٥ م ـ ٨١٤ م	٨	٨١
٣٥	ـ المحاورات	باركلى	٨٠٠ م	٦	١٧
٣٦	ـ الرسالة	الشافعى	٨١٥ م	٣	١٤٣
٣٧	ـ ملحمة عنترة بن شداد	من الادب الشعبى	٨٣٠ م	٩	٥٦
٣٨	ـ صحيح البخارى	أبو عبد الله ابن اسماعيل	٨٢٠ م ـ ٨٦٠ م	٧	١٣٥
٣٩	ـ البخلاء	الجاحظ	٨٦٤ م	٧	١٦٣
٤٠	ـ الرسائل الفلسفية	الكندى	٨٢٥ ـ ٨٦٦ م	٦	١١٥
٤١	ـ مصنفات جابر بن حيان الكيميائية	جابر بن حيان	٨٥٠ ـ ٩١٠ م	٧	٢٠٢
٤٢	ـ الأغانى	الأصفهانى	٨٨٥ م	٣	١٦٥
٤٣	ـ كتاب الزهرة	ابن داود الظاهرى	٨٩٥ م	٨	٩٩
٤٤	ـ الجامع لصناعة الطب (الحاوى)	الرازى	٩٠٠ م	٥ ٥	٨٢
٤٥	ـ ديوان المتنبى	أبو الطيب المتنبى	٩٠٠ ـ ٩٦٥ م	٥	١٠٥
٤٦	ـ فلسفة جحا	من التراث الشعبى	٩٠٠ م	٩	٧٦
٤٧	ـ تاريخ الأمم والملوك	الطبرى	٩٢٠ م	٥	١٤٣
٤٨	ـ العقد الفريد	ابن عبد ربه	٩٣٠ م	٤	٦٣

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

تابع الفهرس الشامل للأجزاء التسعة

م الكتــاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١٠١ ــ فاوست	جوته	١٨٢٥ م	٤	١١٧
١٠٢ــ فى قانون الاسكان	مالتوس	١٨٣٠ م	٦	٢٧٥
١٠٣ــ فلسفة التاريخ	هيجل	١٨٣٢	٢	٢٧١
١٠٤ــ فى التربية الجماليــه للانسان	شيلر	١٨٣٧ م	٢	٢٥١
١٠٥ــ الأبطال	توماس كارليل	١٨٤١ م	٩	١٩٤
١٠٦ــ الكون (عرض للوصف الطبيعى للعالم)	هومبولت	١٨٤٥ م	٢	٣٠٣
١٠٧ــ كوخ العم توم	هارييت بيتشر ستو	١٨٥٥ م	٧	٣٤١
١٠٨ــ مدام بوفارى	فلوبير	١٨٥٧ م	٩	٢١٨
١٠٩ــ أصل الأنواع	داروين	١٨٥٩ م	١	٢٢٣
١١٠ــ عن الحرية	جون ستيو مل	١٨٥٩ م	٤	١٣٣
١١١ــ الاخوة كرامازوف	دوستوفيسكى	١٨٦٠ م	٤	٢٦٧
١١٢ ــ الحرب والسلام	ليو تولستوى	١٨٦٤ م	٤	١٥٣
١١٣ــ بيرجنت	ابسن	١٨٦٧ م	٨	٢٥١
١١٤ــ رأس المال	كارل ماركس	١٨٦٧ م	١	٢٤٣
١١٥ــ تحرير المرأة	قاسم أمين	١٨٩٤ م	٤	١٦٩
١١٦ــ قواعد المنهج فى علم الاجتماع	دوركايم	١٨٩٥ م	٤	١٩٥
١١٧ــ أشعــار طاغور	طاغور	١٨٩٠ ــ ١٩٤١ م	٤	٢٠٩
١١٨ــ رسالة التوحيد	محمد عبده	١٨٩٧ م	٦	٣٢٥
١١٩ــ تفسير الأحلام	سيجموند فرويد	١٩٠٠ --	٤	٢٥٩
١٢٠ــ النظرية النسبية	أينشتين	١٩٠٥ م	١	٢٥٩
١٢١ــ الادارة العلمية	فريدريك تايلور	١٩١١ م	٨	٢٧٩
١٢٢ــ تدهور الغرب	اشبنجلر	١٩١٨ م	٥	٣٢٥
١٢٣ــ الشـوقيات	أحمد شوقى	١٩٠٠ م	٤	٢٣١
١٢٤ــ رسالة الخلود	محمد اقبال	١٩٣٢ م	٥	
		١٩٣٢ م	٩	٢٣٨

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل
احلام الأعلام وقصص اخرى

ى· رادو نكاياوم جابوتنسكى
الألكترونيات والحياة الحديثة

آلدس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت· و· فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر ج· فوريس و ا· ج· ديكستر هور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستر ديل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

د· قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

أولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها
تصنيفها – عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د· محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية
والفرنسية

د· عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
أصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للأهرام

د· صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل واحاديث من المنفى

فيرنر هيرنبورج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض · ماركس
والماركسيون

ف· ع· ادينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
ادب الأطفال « فلسفته ، فنونه
وسائطه »

د· نعمة رحيم العزاوى
احمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د· فاضل احمد الطائى
اعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د· السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى
منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د· روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

ا· سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر
القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور
الوسطى

· لينوابر تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى
السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
دور الكوميديا الالهية لدانتى
فى الفن التشكيلى

رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم
متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى
الوطن العربى

د· محى الدين احمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج· دادلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د· جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت
وأين توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى
حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
الشعر – الدراما – الحكاية –
القصة القصيرة ·

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س.
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا ..
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. انور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

ولت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصريه من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي

الان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

د. هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشه (بين النظريه والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما في المجتمع

دور كاس ماكليتوك
صور افريقية . نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشه

د. محمود سري طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لوري
المخدرات حقائق نفسيه

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الاعضاء في الالف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني

جون . ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ كنج واخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد ابو سديره
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هو
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسي - تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة .
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافي روائع الآداب العالمية ج ١

روى آرمز
لغة الصورة في السينما المعاصره

ناجاي متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل اليي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

ادامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الأوركسترالي

ابو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور شين بن نج وآخرون
مختارات من الآداب الأسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجو واخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني ٧ ج

جان لويس بوري واخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في أوروبا
بول كولز

وريس بير برابر
صناع الخلود

زيجمونت هبز
جماليـات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج٠ بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ جـ

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الافستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقـد السـينمائى الأمريـكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن اوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣جـ

هونى براج واخــرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ جـ

جابر محمد الجزار
ماستريخت

ابرار كريم الله
من هم التتار

ج٠ س٠ فريزر
الكاتب الحديث وعالمه ٢ جـ

سوريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهنديه

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
اسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د٠ بيارد دودج
الأزهر فى الف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ٠ ج٠ ولز
معـالم تاريخ الانسانية ٤ جـ

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ٣ جـ

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجـهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة ٢ جـ

بادى اونيمود
افريقيا ــ الطريق الآخر

د٠ محمد زينهم
فن الزجاج

برنسـلاو مالينوفسـكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسـلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتومان
كوننا المتمدد

سونداري
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج٠ برجين
الاعلام التـطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للســادات

ج٠ كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

زيليام هـ٠ ماثيور
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الامريكى

جـورج سـتاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى ٢ جـ

يانك لافرين
رومانتيكية والواقعيـة

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسـجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيـلم الأميركى

هارى ب٠ ناش
الحـمر والبيض والسود

جوزيف م٠ بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف بندهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت٠ ج٠ هـ٠ جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق ٣ جـ

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ جـ

هنرى بيربين
تاريخ اوربا فى العصــور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

فورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى والأمن القومى العربى)

٠٠ ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت ج· جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
ديناميكية الفيلم

ج· كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت ١ · كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر واخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند ، وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

بيجيل دى ليبس
الثيران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرايت
موتسارت

روبرت سكولز واخرون
افاق ادب الخيال العلمى

ب· س ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س· هوارد
اشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و· بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ أوربا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

د· مصطفى محمود سليمان
الزلزال

م· و· ثرنج
ضمير المهندس

١· ر· جرنى
الحيثيون

ستينو موسكاتى
الحضارات السامية

د· البرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٧٩٥ / ١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 5963 — 8